العناية بتربية الأبناء

بقلم: السيد عبد الحليم محمد

قال الله تعالى : (المـــال والبنون زينة الحياة الدنيا) ..

(أ) قيمة الاولاد فى الحياة : الاولاد قرة العين ، وسعادة النفس، وريحانة الدنيا • بهم تحلو الحياة ، وتجمل أيامها ، يدفعون عن نفوسنا القلق ، ويجلبون لها الانس والصفاء • فمن حرم الولد تشوفت نفسه الى الانجاب ، وتطلع الى السماء راجيا أن يهبه الله ذلك الرزق • لذا فمن رزق الاولاد فينبغى عليه أن يحفظ تلك الامانة ويرعاها حتى تؤتى ثمراتها فى الحياة • لانهم فلذات الاكباد التى يجب أن تصان ، والمهج التى تحفظ وترعى •

وانمـــا أولادنا بيننـــــا أكبـــادنا تمشى على الارض
لو هبت الريح على بعضـــهم امتنعت أعيننـــا عن الغمض

وقيـــل :

وأولادنا مثـــل الجوارح أيهـــا فقدناه كان الفاجع البين الفقد

(ب) رعاية الاولاد : فالله جل جلاله يقول : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) وهذا أمر الهى موجه الى كل مسلم تحت يده أسرة يعولها ، وأبناء يقوم بتربيتهم ، ليأخذ بحجزهم الى طريق النجاة ، وسبيل الســعادة • ويحفظهم من الوقوع فيما يدنســهم ويهلكهم فيكونون طعمة للنار تلتهمهم ، ويصلون جحيمها وسعيرها .. وهذا ناتج عن اهمـــال رب البيت الذى ناط به الاســـلام المسئولية الكبرى عن ولايته الصغيرة لمـــا رواه البخـــارى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فاذا كنت توقن بمسئوليتك ، ومحاسبتك يوم العرض الاكبر أمام خالقك فواجبك أن تسهر ليلك ، وتعمل نهارك لصيانة من كانوا فى كنفك ، لنرتفع بهم عن الدنايا ، وعما يدنسهم ، وتربأ بهم من عذاب النار ، وتخلصهم من دار البوار • ورعايتك تتمثل فيما يأتى :

١ ــ **الاشبــاع العاطفى والجسمى** : وذلك بالرحمة البعيدة عن التدليل الممقوت ، مع توفير المطالب الجســمية التى تضــمن نموهم الصحيح ، وسلامتهم من الامراض المهلكة ، فنماء الجسم اذا تكامل عند الطفل ، فانه يشب على القوة الجسمية والعقلية معا ، لان العقل السليم فى الجسم السليم • وقوة الجسم مطلوبة شرعا لمدافعة الاعداء ، ومقاومة النصب والعناء ، فى الحياة المليئة بالمتاعب والارزاء ، والقدرة على أداء الطاعات والواجبات التى فرضها الاسلام من صلاة وصيام وحج ، وسعى فى الأرض يعمرها ، ويجعل من الامة الاسلامية جبهة قوية منيعة فى وجه الاعداء ، تصدهم وتردهم ، وتردعهم ، وتزجر بغيهم ، وذلك بفضل تكامل بناء الجسم ، لقوله عليه السلام : (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير) • وتربية الاولاد عاطفيا : تقتضى الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، فبالحزم تســتقيم نفسية الطفل ، وينشأ بعيدا عن العقد والانفعالات التى قــد تحطم شخصيته وتهدم كيانه • فالشدة والقسوة تنأيان به عن مواطن الخير ، وتورثان فيه الحقد والكراهية ، والعداوة والبغضاء لاسرته ، بل لبنى جنسه جميعا ، وتوقفه موقف الخصم الالد ، والعدو الاشد ، والعنيد المتمسك برأيه ، وان ظهر له بطلانه ، فيشذ عن تقاليد بيئته ، وعــرف مجتمعه ، أو تجعل منه شخصا قابعا ذليلا مستكينا ، منقادا مترددا ، امعة لا يثبت على حق أو باطل •

واللين والضعف يخلقان منه انسانا مستهترا ، متلافا مدللا ، يفرض ارادته على كل شىء ، ويثور لأتفه الأسباب ، يتوهم أن الدنيا كلها فى قبضته ، خاضعة لارادته ، لا يسيطر عليه مسيطر ، وكأنه سيد الكون ،

يتصرف فيه كيف يشاء ، وأن من سواه عبيدا أذلاء ، فهو الآمر الناهى، والسيد المطاع •

والواجب أن تسود الرحمة فى التربيـــة التى تجمع بين الامزجة المختلفة لقوله صلى الله عليه وسلم : (من لا يرحم لا يرحم) وقوله عليه السلام : (ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء) وقوله : (الراحمون يرحمهم الرحمن) ولا أدل على أهمية الرحمة فى التربية وجعلها تعلو كل ارادة من تلك القصة التى تصور لنا رحمة رسول الله صلى الله عليه وســـلم حينما جاءه رجل يطلب ولاية اسلاميـــة ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن والحسين رضى الله عنهما • فقال الرجل : ان لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم قط • فقال له صلوات الله عليه وسلامه : أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ من لا يرحم لا يرحم •

٢ ــ غرس المبادىء الدينية والفضائل منذ الصغر : فالأبوان فى البيت هما المثلان العاليان فى نظر الطفل ، والنموذجان اللذان يقلدهما ويحتذيهما فمن نميرهما يشرب ، وعلى فعالهما ينمو ويربع ، فواجبهما أن تتمثل فيهما الفضائل الكبرى، والمثل العليا ، والاخلاق الرفيعة ، والمبادىء القويمة ، حتى ينهج الابناء نهجهما ، ويسيرون على منوالهما •

والبيت هو المدرسة الكبرى التى يرتضع الطفل فيها لبان الاخلاق ويغتذى بثمار الآداب ، ويغترف من ينبوع الفضائل والخير ، فاذا كانت قوية محكمة ، متينة البناء ، كانت عظيمة الاداء ، ثرية العطاء ، وانتظرنا من نشئها أن يكونوا نماذج مثلى ، ولبنـــات صالحة ، فى بنـــاء صرح المجتمعات • فالقدوة الحسنة لها أثرها الفعال فى تنشئة الاجيال وبنائها اذ الطفل بطبعه ميال الى التقليد والمحاكاة ، واتخاذ من هو أسن منه قدوة ومثالا ، يفعل مثل ما يفعل من حسنات أو سيئات •

وعلى حسب ما يعود الطفل يشب وينمو ، ويصلب عوده ، ويطبع على هذه الخلال •

وان من أدبتـــه فى الصبـــا كالعود يسقى الماء فى غرسه

حتى تراه مورقـــــا ناضرا بعد الذى أبصرت من يبسه

وقيـــل :

وينشأ ناشىء الفتيان منـــا على ما كان عـــوده أبـــوه

وقيـــل :

بأبه اقتدى عدى فى الكرم ومن يشـــابه أباه فمـــا ظلم

٣ ــ **العدالة فى المعاملة** : ان احساس الطفل مرهف وشديد تجاه أبويه وبخاصة اذا كان له اخوة آخرون ، فانه ينظر الى كل ما يبديه أبواه نحو سائر اخوته ، ويحصى عليه حركاته ، فاذا وجد ازورارا أو نقصا فى معاملته دون اخوته ، نشأت عنده عقدة الكراهية لباقى الاسرة ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، حتى فى القبل) وهذا دليل واضح على اهتمام الاسلام بالعدالة بين الابناء فى التربية • بل انه عنى بالدعوة الى العدل فى الاخذ والعطاء • فلقـــد قال رجلرسول الله صلىالله عليه وسلم : أعطيت ابنىعطية • فهلا تشهد عليه يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « هل أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ » فال : لا • قال صلى الله عليه وسلم : « أو تشهدنى على جور ؟ اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » • فالذين يفرقون بين الابناء فى المواريث بأن يعطوا الابناء ويدعوا البنات ، أو يعطوا واحدا ويحرموا الآخرين ، أو يعطوا واحدا أكثر من الآخرين ، أولئك قوم حادوا عن الطريق الاقوم ، واعوجت بهم المسالك ، وضاعوا وأضاعوا ولهم عذاب أليم •

السيد عبد الحليم محمد

(للمقال بقية)

كاد الليل ينسلخ عن النهار ، وبشرت بالصبح أنفاس الأسحار ، والدُجى مهوَّد وسُنان ، يخشى في المشرق ذئب السَرحان[1] ، والناس هاجدون كأنهم أيقاظ ، وكأن آذانهم مصيخة تلقاء المسجد ، تتحين دعاء المؤذن ، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصُدُ قُطبها ، وتتجه إلى إمامها ، والإمام هاجد يرعاه ربه ، تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وملء الأرض والسماء السكينة والسلام ، وسرى في أحشاء الليل سار كطيف الخيال في ظلمات الليال ، اتخذ من الليل إهابا ، وطوى من الصبح قلباً وجاباً ، آدم شديد الأدمة ، نحيف طُوال أجنأ كثير الشعر ، خفيف العارضين ، به شمط[2] ، تحمل جمته الشمطاء تباشير الصباح الوضاء .

بقلم الشيخ / السيد عبد الحليم محمد حسين

ماجستير في الأدب العربي

أذانُ بِلَالٍ ..

ويرتقى جدار المجلس مُقلّباً وجهه في السماء ، ثم ينتفض قائماً ، فيبعث في حواشي الظلماء ، صوتاً يجلجل في الأرجاء الله أكبر الله أكبر – الله أكبر الله أكبر ! أترى قلول الظلام مذءومة تلوذ بالباطل المنهزم . أم ترى الباطل مذعوراً يلتف في تلك الظلَم ؟ أترى ذلك النور المنبثق من الأفق الشرقي ، بسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الإلهي ، أم ذلك النور الوضاء : استجابة النهار لهذا النداء ؟ ليت شعري أيهما الصباح ، أيهما آذان بلال بن رباح ؟ ويمضي بلال يصدع قلب الظلام ، بشهادتي الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسولُ الله . ثم يُحيعل بالصلاة والفلاح ، ثم يعيد التكبير في تمديد ، فيختم بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله . ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ إلى القلوب ، فلم تتجافى عن مضاجعها الجنوب فيتوَّب بالقوم : الصلاة خير من النوم .

يتهلل وجه الرسول – ﷺ – لصوت الحق مدوِّياً في أعقاب الباطل يبسم لصوت الحق عالي طليقاً يملأ ما بين الأرض والسماء ، والمشرق والمغرب . يبسم حين يسمع دعوة الحق في قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشيّ . وهل ف

شِرْعة الإسلام عبد وحُرّ ؟ وهل في سنة محمد ﷺ عربيّ وحبشيّ ؟ وتنبعث في كل أذن من هذا الصوت بشرى ، وفي كل قلب من هذا النور إشراق . فيهب الأصحاب من مراقدهم تقشعرّ جلودهم ، وتطمئنّ قلوبهم ، فتستيقظ كل دار بأهبة الصلاة من الرجال والنساء والولدان .

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبويّة قائلا : « حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح . الصلاة يارسول الله » .

ويُسفر النهار ، وتنثال الجموع إلى المسجد ، فانظر من ترى : يخرج نفر إلى المسجد من خوخات في دورهم ، فهذا الآدم الربعة عظيم العينين ذو البطن ، علي بن أبي طالب ، يخرج من حجرة فاطمة . وهذا الطويل الجسيم الأصلع عمر الفاروق وهذا الأسمر الرقيق البشرة ضخم المنكبين كثير شعر الرأس عظيم اللحية عثمان ذو النورين – والصديق كان في السُنح هذه الليلة فيقدم مسرعاً فتراه أبيض نحيفاً معروق[٣] الوجه غائر العينين خفيف العارضين أجنأ . ويُقبل من دور بني زُهرة بجانب المسجد ، ثلاثة : أحدهم قصير دحداح ذو هامة عظيمة شئن الأصابع ، كثير الشعر ، هو سعد بن مالك بن أبي وقاص ، والثاني : آدم نحيف قصير له شعر يبلغ ترقوته ، يلبس ثوباً ناصع البياض ، تضوع منه ريح الطيب يمشي في وقار وسمت ، هو عبد الله بن مسعود . والثالث : ضخم طويل شديد الأدمة هو المقداد بن الأسود . وانظر هذين الرجلين : هذا لطويل الجسم خالد بن الوليد ، وهذا القصير لأبلج الأدعج عمرو بن العاص ، وفي أثرهما رجل هيل عظيم الهامة ، مكتحل يخطر في مشيته هو معاوية بن أبي سفيان ، وبجانبه رجل نحيف طوال ، معروق الوجه خفيف اللحية أجنأ أثرم الثنيّتين هو أبو عبيدة بن الجراح . ويُقبل من ناحية الحرة الشرقية رجلان : سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج . وهذا الرجل الطويل النحيف كثير الشعر الذي عليه سيما الحزن هو سلمان الفارسيّ . وراءه رجل ربعة أحمر شديد الحمرة كثير شعر الرأس يخضب بالحناء هو صهيب الرومي . وانظر بين الجمع : طلحة ، والزبير ، وأبا موسى الأشعري ، وأبا أيوب الأنصاري . ويأتي بنوا الصحابة : فهذا الغلام الطويل الأحمر : عبد الله بن عمر وهذا الغلام الطويل الأبيض المشرب بالصفرة الجسيم الوسيم الوجه عبد الله بن عباس ، وهذا الصبي الذي يشبه أبا بكر : عبد الله ابن الزبير .

ويخرج رسول الله صلوات الله عليه ، فيقيم بلال الصلاة ، فيسوّي الرسول الصفوف ويسدّ الفُرَج ويُكبر فيكبّرون ويذهب هذا التكبير نغمة متسقة بين ضوضاء العالم وجلبته ، ودعوة للحق بين أكاذيبه وأباطيله ، يذهب هذا التكبير في الأرجاء طمأنينة لقلوب ، ورِعْدَة لقلوب ، ورجاء لقوم ، وخوفاً لآخرين ، يُبشر الضعفاء والمظلومين بملكوت الله في الأرض ، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل .

إنما مزّق شمل الظالمين هذه الصفوف – لا صفوف القتال – وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال . ويقرأ الرسول ﷺ في الركعة الأولى آيات من سورة النور . منها : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

ويقرأ في الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٣٨ : ٤٠] .

هذه جماعة يمحصها الله ليورِّثها أرض ، ويُعلمها لتقوم بين الناس بعدله . هذا الصفّ من العُبّاد يجمع خلفاء الأرض وأمراءها وولاتها وقضاتها ومعلميها وقوّادها وجندها . وتلك الشرذمة من الزهاد هم ورثة العروش والتيجان عما قليل ، الذين يُقسّم الله رزقه بين أيديهم ، ويُصرِّف حكمه في الأرض بألسنتهم . جماعة تضمهم جُدُر المسجد اليوم ولا يسعهم العالم غداً . جماعة تحويهم أرض ضيقة بين لابتيْن ينتشرون بين المشرقيْن والمغربيْن وستجدفُ الأرض بحملاتهم ، وتقرّ بعدْلهم ، وتُضيء بإيمانهم .

قضيت الصلاة ، وانتشر المصلون .

لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جُنده ، قد فُتِحت بهذه الجماعة الأقطار . وعُمِرتْ بهم الأمصار ، هذا عمر في الشام ، قد أزال عنها سلطان الروم ، ثم جاءها ليُبرم العهود ، ويتفقد الرعية ، وهذا بلال في جيش المجاهدين غازياً . ينظر عمر إلى بلال يود أن يسمع آذانه ، ويهاب أن يستمع لمؤذن رسول الله . ويقول الناس لعمر : لو أمرت بلالاً أن يُؤذّن ! فيقترح عمر على بلال الآذان ، فينهض الشيخ ابن السبعين تحت أعباء السنين فيُدوّي في الأرجاء : الله أكبر . الله أكبر ...

لقد كان آذان الشام تصديق آذان المدينة ...

أجل أجل لقد صدق الله وعده ، ففتحت الجماعة الصغيرة الممالك . ودَوّى آذان المدينة في الآفاق .

ولكن انظر إلى عمر . ألا تراه ينشج ؟ ألا ترى دموعه تبل لحيته ؟ ألا ترى القوم في بكاء ونحيب ؟ فما أبكاهم ؟ لقد نصرهم الله ومكّن لهم في الأرض ، وأغناهم وأعزهم فما دهاهم وما أبكاهم ؟ يبكون إذْ رأوا المؤذن ، ولم يروا الإمام ! .

يبكون إذْ سمعوا مؤذن رسول الله ، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله ! إنهم أحبوه أكثر من أنفسهم وأموالهم والناس أجمعين أحبوه لأنهم رأوا في اتباعه عز الدنيا وسعادة الآخرة . وبذلك كانوا أوفياء للرسالة والرسول .

---

(١) ذنب السرحان : الفجر الكاذب .

(٢) الأدم : الأسمر . شمط : اختلط بياض شعره بسواده ، والأجنأ : متغير الوجنتين .

(٣) قليل لحم الوجه .

تأملات قرآنية

بقلم / السيد عبد العليم محمد حسين

فطرة الله

وجه الله رسوله ـ ﷺ ـ إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح ، طريق الفطرة التى فطر الناس عليها والتى لاتتبدل ولاتدور مع الهوى ، ولا يتفرق متبعوها فرقا وشيعا ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى

ثم يكشف عما فى طبيعة الناس من قلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة ، مالم يرتبطوا بمعيار ثابت ، لا يدور مع الهوى ، ثم يصور حالهم فى الرحمة والضر فيقول : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتقوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِن الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ * فَإِذَا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْه رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ منهم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَاءَ اتَيْنَاهُم فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا به يُشْرِكُونَ ، وَإِذَا أَذَقْنَا النَاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ .

أولا : اللغة

فأقم وجهك للدين : أخلص دينك لله ، وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط . حنيفا : مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق وهو الإسلام .

فطرة الله : خلقته . فطر الناس عليها : خلق الناس عليها ، وهى فطرة التوحيد . لاتبديل لخلق الله : لا تغيير لدين الله . ذلك الدين القيم : المستقيم . منيبين : راجعين إليه بالتوبة . واتقوه : خافوه . فرقوا دينهم : باختلافهم فيما يعبدونه . شيعا : فرقا ـ حزب : جماعة . ضر : شدة . رحمة : رخاء وسعة ـ سلطانا : حجة وكتابا ـ سيئة : شدة ـ يقنطون : ييأسون من الرحمة .

ثانيا : التفسير :

اشتملت الآيات على المعانى الآتية :

(١) الإخلاص للدين ، والإقبال على الإسلام بهمة

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَاسَ عَلَيْهَا * لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ * ذَلِكَ

الدِّينُ القَيِّمُ ۞ وَلَكِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ حَنِيفاً ﴾ اتجه إليه مستقيما ، فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لا تستند على حق ، إنما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . . أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ماعداه ، مستقيما على نهجه دون سواه .

﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ، وكلاهما من الله ، وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه . والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين ثابت ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ وإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة . .

فطرة البشر وفطرة الوجود ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيتبعون أهواءهم بغير علم ، ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم .

والتوجيه بإقامة الوجهة للدين القيم ولو أنه موجه إلى الرسول ﷺ إلا أن المقصود به جميع المؤمنين . لذلك يستمر التوجيه لهم .

(٢) الرجوع إلى الله ، والاستقامة على طريقه

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ۞ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ ﴾ .

فهى الإنابة إلى الله والعودة إليه فى كل أمر ، وهى التقوى وحساسية الضمير . ومراقبة الله فى السر والعلانية ، والشعور به عند كل حركة وكل سكنة وهى إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله ، وهى التوحيد الخالص الذى يميز المؤمنين من المشركين . ويصف المشركين بأنهم ﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ والشرك ألوان وأنماط كثيرة : منهم من يشركون الجن ، ومنهم من يشركون الملائكة ومنهم من يشركون الكهان والأحبار والأشجار والأحجار ، والليل والنهار ، ولا تنتهى أنماط الشرك وأشكاله .

و ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ بينما الدين القيم واحد لايتعدد ولا يتبدل ولا يتفرق ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد ، الذى تقوم السموات والأرض بأمره ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون .

(٣) تقلب النفس البشرية أمام سنن الله الثابتة

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ يرسم الله صورة لتقلب الأهواء البشرية

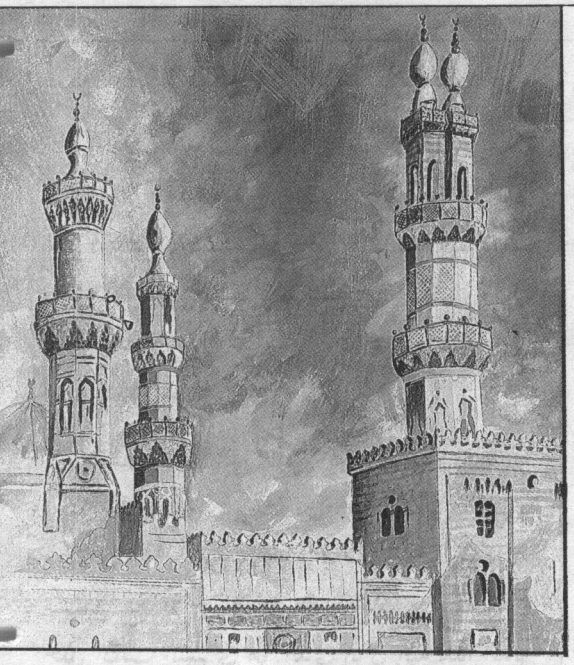

أمام ثبات السنن ، ووهن عقائد الشرك أمام قوة الدين القيم ويصور نفوس البشر فى السراء والضراء وهى تضطرب فى تقديراتها وتصوراتها ما لم تستند إلى ميزان الله الذى لا يضطرب أبداً . فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التى لا عاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها . حتى إذا انكشفت الغمة وانفرجت الشدة ، وأذاقهم الله رحمة منه ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِم يُشْرِكُون ﴾ وهو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم . ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الضرر الذى ألجأهم إلى الله ، وينسيهم الشدة التى ردتهم إليه ، فيقودهم هذا إلى الكفر بما أتاهم الله من الهدى ، وما أتاهم من الرحمة بدلا من الشكر والاستقامة على الإنابة .

وهنا يعاجل الله هذا الفريق بالتهديد فى أشخاص المشركين الذين كانوا يواجهون الرسالة المحمدية فيوجه إليهم الخطاب ، ويحدد أنهم من هذا الفريق الذى يعنيه ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُون ﴾ وبعد هذه المعاجلة بالتهديد يعود فيسأل فى استنكار عن سندهم فى هذا الشرك ، وهذا الكفر الذى ينتهون إليه .

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون ﴾ ؟

فإنه لا ينبغى لبشر أن يتلقى شيئاً فى أمر عقيدته إلا من الله . فهل أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد بهذا الشرك الذى يتخذونه .

ثم يعرض صفحة أخرى من صفحات النفس البشرية فى الفرح بالرحمة .. فرح الخفة والاغترار ، والقنوط من الشدة واليأس من رحمة الله ﴿ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُون ﴾ وهى كذلك سورة للنفس التى لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها فى جميع الأحوال ، وميزان دقيق لا يضطرب مع التقلبات .

والناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الخط ، ولا يزنون بهذا الميزان . فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذين ينسيهم مصدرها وحكمتها فيبطرون بها ، ويستغرقون فيها ، ولا يشكرون المنعم ، ولا يستيقظون إلى مافى النعمة من امتحان وابتلاء . حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة « سيئة »

عموا كذلك عن حكمة الله فى الابتلاء بالشدة ، وفقدوا كل رجاء فى أن يكشف الله عنهم الغمة ، ويئسوا من فرجه ، وقنطوا من رحمته . وذلك شأن القلوب المنقطعة عن الله ، التى لا تدرك سنة ، ولا تعرف حكمة .

ثالثا : من بلاغة الآيات :

١ ــ المقابلة بين قوله تعالى ﴿ وإذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم إِذَا هُمْ يَقْنَطُون ﴾

٢ ــ المجاز المرسل ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل . أى توجه إلى الله بقلبك .

٣ ــ جناس الاشتقاق ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ ﴾

٤ ــ الاستفهام الإنكارى التهكمى الذى يكشف عن تهافت عقيدة الشرك التى لا تستند إلى حجة فى قوله تعالى ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون ﴾ .

رابعا : التوجيه والإرشاد :

١ ــ التمسك بالدين الإسلامى لأنه الفطرة السليمة المستقيمة ، التى فطر الله الناس عليها .

٢ ــ الدعوة للرجوع إلى الله ، وإخلاص العبادة له ، ونبذ التفرق فى الدين .

٣ ــ التعرف إلى الله فى الرخاء والشدة .

٤ ــ عدم اليأس من رحمة الله .

وفد بني حنيفة ومسيلمة الكذاب

البخاري : عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قدم مُسَيْلِمَة الكذاب على عهد النبي ﷺ . فجعل يقول : إن جعل لي محمدٌ الأمر من بعده تبعته . وقدمها في بَشَرٍ كثير من قومه . فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس – رضي الله عنه – وفي يد الرسول قطعة جريد . حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال : « لو سألتني هذه القِطْعَة ما أعْطَيْتُكها . ولن تعدُوَ أمر الله فيك . ولئن أدبرت ليعْقِرنَّك الله . وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت . وهذا ثابت بن قيس يُجيبُك عنّي. ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: فسألتُ عن قول رسول الله ﷺ: « إنك الذي أُريتُ فيه ما أُريت ». فأخبرني أبو هريرة – رضي الله عنه –: أن رسول الله ﷺ قال : « بينما أنا نائمٌ رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمَّني شأنهما . فأوحي إليَّ في المنام . أن انفخهما فنفختُهما فطارا . فأوَّلتهما كذابين يخرجان بعدي ؛ أحدهما : العنسى . والآخر : مسيلمة » .

باب الأدب

لا تأخذه فى الله رهبة

فضيلة الشيخ
السيد عبد الحليم محمد حسين
ماجستير فى الأدب العربى

سيف الحجاج مصلتٌ يرعد ، وينذر ويتوعد ، ويحكم فى الرقاب فلا معقب ـ وقد جلس الحجاج فى مجلس بؤسه وأدار أفلاك نحسه ، وهو من تمرس بالشدائد حتى هانت عليه ، وشهد القتل حتى مايبالى به ، ساعة صرّح فيها الشر وكشرت المنية ، وحسبك ببطش الحجاج الذى يوحى إلى كل قلب رعبه ويقص على القريب والبعيد مضحق .

قُدّمت إليه أسارى «الجماجم»[1] وقد أمره الخليفة فيهم أن يقتل من لا يُقرُّ على نفسه أنه كفر إذ خرج على الخليفة مع ابن الأشعث . رأى كل أسير أن فى الإقرار فرجا ، وفى التعريض لمن يأبى التصريح مخرجاً . سئل الشعبى ، فقال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ، وأحزن بنا الجناب ، واستحلْنا الخوف ، واكتحلْنا السهر ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء . وسئل مطرِّف بن عبدالله ، فقال : أصلح الله الأمير إن من شق العصا وسفك الدماء ، ونكث البيعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف المسلمين ، لجدير بالكفر . . . وأنت ياسعيد بن جبير ! إن لك فى القوم أسوة ، ولك فى القرآن رخصة هذا سيف الحجاج وبطعه ، وذاك جبروته وبطشه . الحجاج من لا تأخذه هوادة ، ولا ينثني إذا اعتزم ، فأبق على نفسك بكلمة ، كلمة لا تضيرك في دين ولا دنيا : تقدَّمْ فصرحْ بالكفر مكرها ، أو فعرض فإن فى المعاريض متَّسعًا ، لا تتردد ، فإن سيف الحجاج لا يمهل . ولا تُبطىء فإن الحجاج لا يؤاير .

لا ! لا ! سعيد يأبى ، سعيد يصمم أن يقول ما يكنّه فؤاده . سعيد يربأ بنفسه أن تعرِّض فى الحق ، سعيد يحقر الحياة ، ولا يرهب الموت ، سعيد لا تأخذه فى الله رهبة . ويحك ياسعيد ! إنهم ينادونك . فالله الله فى نفسك وأولادك ، والعلم الذى فى صدرك . إن الأمر لأهون من أن تقتل فيه . فالآن فاختر : إما الحياة وإما الموت .يتقدم سعيد مزدريا بكل شىء إلا الحق . يمثُل سعيد بين يدى الحجاج . سئل أتقر على نفسك بالكفر ؟ فقالها كلمة أكبر

من الحجاج وأعوانه ، وعبد الملك وسلطانه وأكبر من كل جبروت فى الأرض . قالها ليشترى الحق ويبيع الحياة . أجاب سعيد ساخرًا بالجنود والأعوان ، والسيف والسلطان ، قد ملك عليه الحق عقله وقلبه ولسانه . . .

قال : « ماكفرت بالله مذ آمنت به » .

هوى رأس سعيد عن جسده .قذف سعيد برأسه فى وجه الجبروت ، وقدمه ثمنًا للعقيدة والإباء . . .

سعيد بن جبير لم يذله مطمع ، ولم يملكه خوف ، ولا أزرى به ملق ، ولاباع نفسه بثمن بخس ولا طأطأ نفسه لجبروت . ولكنه كره الحياة ، ورغب فى الموت ، ليقول ما يعتقد بين السيف والنطع ــ فاعتبروا يا أولى الأبصار .

من القوم قد اجتمعوا فيها على أمر جلل . وأمل بعيد ، قد اعتزموا اقتحام الصعاب، ومجالدة الأهوال ، وتحدَّثُوا بقلب العالم رأسا على عقب من هؤلاء التلاميذ الذين أنبتتهم الصحراء ، وأخلص ماؤها وهواؤها ، وشمسها وهجيرها ، وبردها وزمهريرها ، فكانوا كروضة الحزن سقاها الحيا ، وأنضرتها الشمس ، والريح فى قنّة لا عهد للأنيس بها ؟ من هؤلاء العرب قد جلسوا فى أسمالهم ، وأصغوْا إلى معلمهم يأخذون الحكمة فتتمكن من سرائرهم ، فإذا هى خلق وسجية ، وإذا هى الأمل والعمل ، وإذا هى سعادة الأولى والآخرة ؟ واعجباً لقوم ضعاف فقراء يتهيئون لما لا قبل لهم به ! يريدون أن يكونوا أساتذة العالم وسادته ؟ ولولا كرم فى نفوسهم ، وحكمة فى أفعالهم . لقلنا بهم الطيش والغرور .

إن الإنسان ليقف فى أمرهم بين الإعجاب والسخرية ! دعهم فى قريتهم ، وننظر الحوادث تأخذ مجاريها ، ثم انظر إليهم بعد أعوام تر التلاميذ الضعاف قد أخذوا كتابهم وسيوفهم ، واستووا على صهوات خيولهم . وتطاولوا إلى هداية العالم كله ، وحكم الناس أجمعين ! ! دعهم فى آمالهم البعيدة . وأمانيهم العظيمة ، ثم أبصرهم بعد سنوات قليلة ، وقد خفقت أعلامهم فى مشرق الشمس ومغربها ، ودان لهم كل طيّع وعصىّ . وإذا العالم ملؤه الإعجاب والخوف ، والمحبة والفزع . وإذا هم شرر قد انبعث فأصاب الفطر الصالحة فكان نورًا وأصاب النفوس العليلة والأخلاق السقيمة فكان فى هشيمها نارًا ! . ثم انظر إليهم فإذا بهم على العروش وقد ورثوا ملك الأرض ، وأحسنوا السياسة ، وقادوا الناس بالحسنى ، ثم دفعوهم إلى الخير ، وهدوهم إلى الإحسان ! وإذا صفحة من الإحسان ليس للناس بها عهد من قبل .وإذا كتاب فى تاريخ المدنية لم تقو على فصوله من قبلهم أمم الأرض قاطبة .

(١) وقعة دير الجماجم كانت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث الخارج على الخليفة عبدالملك بن مروان .

باب الأدب

فضيلة الشيخ

السيد عبد الحليم محمد حسين

ماجستير فى الأدب العربى

مِنْ دَلائِلِ آياتِ اللهِ

وضع الإسلام الحلول لقضايا الإنسان والمجتمع حتى تأخذ الفطرة طريقها سليما دون معاناة . فالمبدع أحرص على سلامة إبداعه من المبْدِعين ، وأعلم بمواطن إعجازه من المستطرقين ، فهو إذْ يضع تصميماً لابد وأن يكون هادفاً ، وإن خفيت أسراره على المبتدعين .

وهو ــ سبحانه ــ عندما أبدع الإنسان على أحسن تقويم . لم يكن .، عبثا هذا التكوين : ولا جهلاً بما يحفظ كيانه المكين ، ورغباته كل حين ، وإنما اختط له من آيات إبداعه ، فطرة تلبى متطلباته : بوحى الغريزة والسلامة فى النفس والجسم .

فحين فطره بأحناء وأوصال ، وغرائز وميول ، فطر له مايضمن سلامتها واستقامتها ، فأوكل لأعصابه المعوية مهمة المطالبة بملئها عند الجوع البطنى ، وسخر الهرمون الجنسى لمطالبة صاحبه بتفريغه عند تكاثره ، بطهارة فعل ، وسمونفس : غايته فى ذلك ، الإبقاء على النوع ، واستمرار الحياة فى مسالك الأبد . فالجوعان باعثان ساميان لاكتمال الصورة البديعة طبق التصميم الهادف . ففيهما اللذة . والمتعة ، والاستمرار ! وبطهارتهما تطهر حياة الإنسان ، وتسمو الأجيال ، ويرتبط بقاؤهُ بهما كما ترتبط حضارته بحسن تنظيم علاقتهما ، وأسلوب ممارستهما . فهو يهوي حين يمارسهما بهيميا إلى درجة الحيوانات الدنيا ، كما قد يرتفع ممارساً حضاريا إسلاميا إلى منزلة الملاك .

فالعفة والعفاف تصطرعان مع البطن والفرج « سموًّا ودنواً » فمن سمت نفسه ارتوى متعالياً منازل الصديقين ، ومن هوت به بطنته وسفادُه تساوى ورعاع الناس ، وسفلة المخلوقات فى الأذلين .

١ ــ **المرأة** :سر يدبُّ فى أوصال الرجل حنينا ، ويجرى فى عروقه دماءً . لايتمكن من مقاومته ولا يستطيع عنه ابتعادًا .. إنه عميق فى

أغوار النّفس ، يصدر إحساسات غامضة من عالم مجهول . تأخذ عليه تفكيره : وتشمل عمله .. يحاول أن يملأها بماعنده ، يأكل ، يشرب ، ويبتهج ، يزيدها ضغطاً وإلحاحاً ، ويزداد حنيناً وخواءً ... انطلق يبحث عما يعيد إليه ذاته ، كما كانت هادئة مطمئنة ذهب سعيه أدراج الرياح .. ليس له اختيار ، ولا يستطيع اصطبارًا .. يحس فراغاً كبيراً ، وخواءً دفيناً لايسده شيء إلاملء إحساساته العميقة .. وجد نفسه أسيره فهو الذى يضغط عليه ، ويطلَب تلبية حاجاته ... راح نحوه يدقق هويته ، فلم يجد سوى نفسه ، تملأ فراغه وتروى إحساساته ، وتخفف مابه من حنين .. لقد كانت معه مذ كان يعانى من ضغط الإحساس فكيف ترويه ؟ تيقن أن له نفسين ! لا ، بل نفسه نصفان . يعمل بإحداهما ، ويستريح بالأخرى يكدح ويناضل ويجاهد بالأولى ، ويستمتع دفئاً ومحبّةً بالثانية ، فهى تفيضُ عليه المودة والرحمة ، والجمال والشقة ، تُفْرِغُ رُوحها عطفاً وحنانا يحميه قوة البطش والشقة ، لأنها آية خلقت للسكن ولخزن الأجيال كيلا يكتئب الوجود ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [سورة الروم الآية : ٢١] . تعروها الحفيظة ، فتحتاج مواهبها لتنمية ، ومنابع الخير فيها لتحريك ، يحدوها داعى الله للتقرب إليه ، وحماية الأجيال ..لأنهن بذهين بعقول ذوى الألباب . وهن ناقصات عقل ودين ، وهن أكثر أهل النار لذلك أمْرنَ بالتقرب إلى الله بكثرة الصدقة .

٢ ـ **الرجل** ـ أعدت الفطرة الرجل لخلافة الأرض ، فطبعته بطابعها الصلب ، فغدا يكافح كفاحاً مريراً لا يلين .. تعلّم من الحياة الجدية والاستمرار ، فاتخذها دستوره .. أرهق جسده وفكره معاناة وعزماً دون تراجع ... أتعب أعصابه حتى ضاق صدره واحتاج راحه طويلة .. تفجَّرت عاطفته ، واستحكم سلطان عقله ، فراح يبحث عن سبيل للخلاص .. اشتدَّت مقاساته ، زاد عناؤه ، ولم يتنازل عن إكمال دوره فى الحياة ، ولم يتوان عن التفتيش عن شريك يخفف عنه عبئه ، ويُبدد تعاسته وشقاءه ، ويحفظ سرّه وأمانته .

فهو يريده كنفسه ، ويريده غيرها .. يريده كنفسه ليبثه دفائنها العميقة ، ويريده غيرها يمسح حزازة الألم التى تعتصرها ..

واستجابت الفطرة له حتى يُكمّل خلافته العتيدة ،فاتخذت له شريكا كما أراد ، يقاسمه الهموم والأحزان ويمده بطاقة جديدة من الأمل والاطمئنان .. إذْ يستحيل على الفطرة أن تتنكر لنفسها أو تنقلب على ذاتها . ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [سورة الشورى الآية : ١١] .

والتقت الفطرتان فى زوجية مثالية ثلبى نهم الروح والجسد ، ينبعث الرجل بعدها يمارس خلافته إعماراً وتنمية ، وتمارسُ المرأة مهامها رعاية وعطفاً وحناناً .

ويؤكد التلاقى نفسه كلما احتاج لإمداد ، فينال الرجل نصيبه مودّةً وسكينة ورحمة ، وتنعم الزوجة بالحماية والطمأنينة .

وتلتحم الزوجية بسرِّها الفطرىّ فى العطاء ، ودوام لقائها الأيدى ، ويستمر الوجود ويدوم . ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ [سورة الذاريات الآية : ٤٩] .

٣ ـ **الزوج** ـ الزوجية هى سر الوجود الممنوح ، فلولاها لما كان تعدد ولا وجود ، فهى تبرز واضحة فى جميع الكائنات ، ولا تنفك طالما بقى وجود ، تتسامى وتشرف ،كلما تسامى الكائن وشرف ، حتى تبلغ الغاية فى الكمال والحشمة ، فبينما تظهر حيوانية بهيمية في بعض الحيوانات الدنيا ، تترفع فى بعضها الآخر ، حتى تصبح غاية فى اللطف والسمو كما هى عند الإنسان ، وتزداد رهافة وتهذيباً كلما ازداد تطوراً وحضارةً وتديناً .

وكلما نمت ثقافته ، وتعرَّف أكثر على نفسه ، كلما ازداد السّر الزوجىّ تغلغلاً فى كيانه ، وتاثيراً فى نفسه ، وحضاريَّةً فى أسلوبه ، ورُوحيَّةً فى تعاطيه .

فالنفس الإنسانية واحدة بجميع خصائصها ، أُنشئت شطرين ليتكاملا ويتطورا ، طبقا لقانون فطرة الوجود ، فالمرأة تضارع الرجل إنسانيّةً خَلْقاً وخُلُقاً ، وإن اختلفت عنه وظائفيًّا ، اختلاف وظائف أعضاء الجسد الواحد ، فتكامله وتكاثره مرتبطٌ بها ، وهو عاجز عن أداء وظائفها ، بل لابد إن وظائفه تتعطل بدونها . فالعمل الكونى الكبير متوقف عليها ليبدأ الإنتاج .

﴿ **يَاأَيُّهَا** النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [سورة النساء الآية : ١٠] .

فالزوج يتوقف عليها امتداد الإنسان ودوامه ، ولولاها لانقرض عن ظهر الأرض ، فهى الشطر الذى لا يمكن الاستغناء عنه – ولعلها الشطر الأهم – تتمتع بكل مايتمتع به الشطر الآخر ، من الخصائص الإنسانية بدون فرق بينهما ، إلا فيما أعد له كل شطر لأداء دوره الطبيعى فى تكاثر الناس – رجالاً ونساء .

والحقيقة التى لاتحتاج لتأكيد هى أن الخطاب الإلهى « بالآية الكريمة » لعموم الناس ترمز إلى تحمل الزوجين من معان إنسانية لا تقتصر على المؤمنين .

فمعرفة الحقيقة لاتتوقف عليهم ، ولكنهم سبقوا للعمل بها ، حين استجابوا لنداء القلب عندما تجلت لهم الحقيقة بغير حجاب .

فسرّ الوجود ، ومعرفة ماهية المرأة أربكتا الإنسان منذ القدم ، راح يفتش عنهما منذ فجر التاريخ . فعثر فيما عثر عليه ، أن ماهية المرأة تختلف عن ماهية الرجل . فلا يحق لها أن تعبد الله ، وليس لها روح ، فهى من عداد البهائم ، وصنو الشياطين ، وحياتها لاتساوى شروى نقير .

– **بينما** الحقيقة التى أقروها وسبقوا إليها هى أنها مخلوقة من نفس الإنسان التى كانت بها إنسانيته ، قبل أن يختلف المختلفون في ماهيتها . وهي أصلهم وسرُّ وجودهم ، فمن وعى نفسه ، وعاد إلى قلبه ، عرف هذه الحقيقة كاملة غير منقوصة .

وأما من طغت عليه أهواؤه ، وتنكر لذاته ، وغلّف قلبه بالشكوك والأوهام ، فهو يعمه فى مسار الباطل ، وظلمات الجهل ..

فخطاب الناس كان لاسترعاء انتباههم ، وشدهم للتعرُّف على سرّ وجودهم ، الذى تتوق أنفسهم لمعرفته .

وقد ألهمهم السّر ، وأفهمهم أنه كامن فى شطر أنفسهم . فى المرأة التى يحتقرون ، فالزوج خلق قبل خلقهم ، من نفس الإنسان التى كان بها إنسانا بدون فرق أو تمييز بين شطريه . إنسانية ، وإحساساً ، ومشاعر ، إلا ما كان من اختلاف وظائفهما الفطرية فى تكملة أحدهما الآخر .

فالشطر الأول من الإنسانية هو الرجل ، والشطر الثانى هو المرأة ، وبذلك أصبحا زوجا ، ولولا تلاحم الشطرين لبقى كل منهما فردًا ، فالثانى أزال فردية الأول ، وأظهر سرزوجيته بتفاعله معه ، وبث الناس فى المجتمع الإنسانىّ الكبير رجالاً ونساءً .

فسّر الزوجية هو سّر الوجود ، ولولاها لكان الانقراض والعدم ، فهى ماثلة فى كل شىء ، ممانرى ، وما لانرى ، ومما نعلم ، ومالا نعلم .

فـ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها ، مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ، وَمِنْ أَنفُسِهِم ، ومِمَّا لَا يَعْلَمُون ﴾ [سورة يس الآية : ٣٦] .

وعند الحديث عن الزوجية ، تأخذ المرأة دور الزوج ، وذلك دليل إصالتها فى السّر ولايرد لها ذكر بغير هذه الصفة ، لأن غاية وجودها قيامها بهذا الدور ، ولهذا نراها تُذكر دائما بها فى القرآن الكريم عند ابتداء الخلق ، فلم يرد حواء أو امرأة آدم مطلقا ، وكلما احتيج لذكرها كان اسم آدم يقترن دائما بزوجه دون سائر الأسماء إبراز للاهتمام بخصوص ناحية الإيجاد والتكاثر المترتبة على الزوجية .

﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [سورة البقرةالآية : ٣٥] .

﴿ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [سورةطه الآية : ١١٧] .

فاحتياج آدم لزوجه حتى يدوم امتداده ، دليل على أهمية هذا الشطر فى امتداد البشرية عبر الأجيال ، وأنه لولاه لما كان بشر ولا امتداد .

فأهمية المرأة القصوى هى الترتيب الزوجى لاستخراج الأسرار الكائنة فيه ، وذلك من أبرز دلائل القدرة ، وأعظم الآيات .

[استدراك]

سقط سهواً عنوان « قرية النور » في باب الأدب حيث إنه يبدأ بعد اعتبروا يا أولى الأبصار من عنوان « لا تأخذه في الله رهبة » .

باب الأدب

فضيلة الشيخ
السيد عبد الحليم
ماجستير في الأدب العربي

المعتصم بن صمادح

الأندلس في أمر مريج - زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت ، وفقدت دواسيها من بني أمية فمادت . وأصبحت كرقعة الشطرنج يتغالب الملوك على كل بيت فيها ، كل قوي يحوز فيها ما وسع حوله وهمته . والعيش غلاب . « والبر أوسع الدنيا لمن غلبا » .

المعتصم بن صُمادح

في هذا المعترك تلك محمد بن أحمد بن صُمادح التجيبى مدينة وشقة ، وملك بنو عم مدينة سرقسطه . ثم غلبوه على مدنيته . ثم ملك ابنه معين بن محمد مدينة المرية غصبها من عبد العزيز بن أبى عامر ، وخلفه ابنه أبو يحى المعتصم بالله وهو فى سن الرابعة عشرة نشأ فى ملك ضيق الرقعة ، فاستعاض منه سعة الخُلق وبُعد الهمة ، وحلية العلم والأدب والسخاء الشامل ، والجود القمم حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه ، وحتى قال أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس : « هذان رجلا هذه الجزيرة » . قال ابن خلكان : « وكان رحب الغناء جزيل العطاء ، حليما عن الدماء ، طافت به الآمال ، و اتسع فى مدحه المقال ، وأُعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمه جماعة من فحول الشعراء » .

وقال الفتح بن خاقان : « تلك أقام سوق المعارف على ساقها ، وابدع فى انتظام مجالسها واتساقها ،وأوضح رسمها ، وأثبت فى جبين أيامه وسمها . لم تخل أيامه من مناظره ، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة .

وكانت دولته مشرعاً للكرم ، ومطلقاً للهمم ، فلاحت بها شموس ،وارتاحت فيها النفوس . ونفقت فيها أقلام الأعلام ، وتدفقت

بحار الكلام . كأجادة بن عمار وابداعه فى قوله معتذرا من وداعه

أمعتصما بالله والحرب ترتمى
بأبطالها والخيلُ باخيل تلتقى
دعتنى المطايا للرحيل وانني
لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وانى إذا غربت عنك وانما
جبينك شمس والمرية مشرقى

وكان المعتصم كالمعتمد بن عباد ، شاعرا مجيداً :كتب إلى الوزير الشاعر بن عمار :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم
وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب
فلم تُرنى الأيام خلا تسرنى
مباديه الإساءنى فى العواقب
ولاقلت أرجوه لدفع ملومه
من الدهر الا كان إحدى المصائب

طوى الأمير أربعين عاما فى إمارته ، شاع فيها ذكره ، ونبه اسمه ، وجلب الدهر أشطره وخبر أحداثه وعبره ثم حُم القضاء .

بعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تَثْلَ عروشهم ، وتعفى على آثارهم، ولقى « رجلا الجزيرة » الصدمات الأولى ، فدارت على المعتمد الدائرات ،فإذا هو أسير أغمات وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات .

وعلم ابن صُمادح بما أصاب صاحبه فملكه الغم ، وناديه الحزن ، وكان أسعد ابن صاحبه جداً ، نجاه الموت من الإسار ، وأنقذه الحمام من المذلة والعار . ورحمه الله أبا الطيب : رب عيش أخف منه الحمام .. يقول ابن بسام : وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام يدا مشكورة . فمات وليس بينه وبين حلول الغافرة به إلا أيام يسيره فى سلطانه ويلده وبين أهله وولده » .

دع ما نمق الكتاب ، وأنشد الشعراء : ودع أربعين عاما طواها الزمان كأنها أحلام، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائه ـ الليلة التى طلع عليه بالردى فجرها ـ ها هو ذا على فراش الموت فى قصره بالمريه ، ومعسكر بن تاشفين على مقربة من المدينة ، تُرى خيامه ، وتسمع ضوضاؤه . ويسمع المعتصم وحبه من الجيش اللجب والجند المصطخب ، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاماً : لا إله إلا الله نقص علينا كل شيء حتى الموت. قالت أروى إحدى جواريه : فدمعت عينى ، فلا أنسى طرفا إلىّ يرفعه وانشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه :

وترفق بدمعك لا تفنه
فبين يديك بكاءٌ طويل

السيد عبد الحليم محمد حسين

الأدب الإسلامي

السيد عبد الحليم محمد حسين
ماجستير في الأدب العربي

أحقاً درست آيات الإسلام؟

طوى التاريخ خمسة آلاف مرحلة منذ خرج محمد ﷺ - وأصحابه يحملون دعوة التوحيد والأخوة، وكلمة الحق والعدل والحرية. ركم الزمان على عام الهجرة خمسة قرون ومازال يخرق الحُجب نورُه، ويلوح من خلال الأجيال سناه، مضت خمسة قرون في جَزْرِ التاريخ ومدّه.

وغير الدهر وخطوبه، قامت دول وزالت دول وقويت أمم وضعفت أمم، وحيَّت مذاهب وماتت مذاهب، والأرض تَجِفُّ باعتراك البشر، واحتراب الأديان، وتدوّي بالآراء تتصادم، والأفكار تتقابل، ومن وراء هذا خُلقٌ يغلبُ خُلقًا، وسنّة تُميتُ سُنّة وآية تنسخ آية، وأثر يعفى على أثر.. فأين الإسلام من مُبتدئه؟ أين بلغ المسلمون بعد خمسة عشر قرنا ؟!.

قال كاتب أوربي: إن دعوة الإسلام قد انتهت، وإن الإسلام قد وهن، ولم تبق فيه قوة تحرك الأمم وتسيّر الأجيال.

أحقّ أن الإسلام قد انتهت دعواته، ودرست آياته، ولم تبق إلا أسماء وأوهام، ورسوم وأعلام؟ هل الإسلام اليوم لا تنبض به القلوب، ولا تمضى به العزائم، ولا يُقيم المثل العليا للعمل في هذه الحياة ؟! أصار الإسلام تاريخا دابرًا، وانقلب مجمدًا ماضياً؟ هل طَفِئت النار، وأقوت الديار ؟! ما هي دعوة الإسلام؟ دعوة ذات شعب، تتناول العقائد والأعمال، وتهيمن على العقل والقلب، وتحيط بالجماعة من أقطارها، وتشمل الأمم جميعها، ولكنها في أصولها ترجع إلى أمرين:

التوحيد - توحيد الله، وتوحيد النفس بتخليتها من الأوهام المتنازعة، والخرافات المتهافتة، وإقامتها على طريق بينة، لا حيرة فيها ولا ضلال.. ثم توحيد الأفراد في الجماعة، بالعدل الشامل، والتسوية التامة، وإعطاء كل ذي حق حقه، لا عبد ولا حر، ولا سائد ولا مسود، ولا رفيع ولا وضيع، ثم توحيد الجماعات، فلا شرقيّ ولا غربيّ، ولا عربيّ ولا عجميّ.

والأمر الثاني - العمل الصالح: أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير، أن يُجاهدوا لإقامة الحق، وهدم الباطل، ونشر العدل، ومحو الجور... أن تمتلىء القلوب نارًا تحفزها للعمل، ونورًا يهديها السبيل، وأن تسمو النفوسُ عن الصغائر والدنايا، وتطهر من الأحقاد والضغائن، وتحرر حتى تأبى على القيود، وتتسع على الحدود، وتنطلق في الكمال إلى أبعد غاية.

فهل انتهت هذه الدعوة الإسلامية ؟

هل أظلم قلب المسلم؟ هل ذلّت نفسه؟ هل ذهب الخشوع بآماله؟ هل ردّه الدهر إلى الصّغار؟ وأنزله اليأس إلى القرار؟ هل يئس المسلم من السيادة، ورضي أن يُسلم قياده ؟! كلا كلاء إن في الإسلام من المُثل والأخلاق والفضائل، والعزّة والإباء، والسمّو والتاريخ الوضاء، ما

يملأ المسلمين حياة ، وآمالاً وطموحًا واعتزامًا ، لم ولن تنته دعوة الإسلام ، ولكنها اليوم تقوى وتعظم ، وقد تهيأ الزمان لها ، ومهّدت الحادثاتُ سُبُلها ، بدأ الإسلام دعوته منذ خمسة عشر قرنًا ، ولكنها لم تبلغ غايتها ، وأجدر بها اليوم أن تبلغها .

ما تزال النفوس الإنسانية طماحة إلى السّموّ ، نزّاعة إلى الخير ، مفعمة بحبّ الحق والعدل ، توّاقة إلى الأخوّة والحرية ، فلن تقف دعوة الإسلام .

ما يزال المسلم الحق يرى نفسه مستخلفا عن الله في الأرض ، مكلّفًا أن يُقيم العدل بين الناس ، موكّلاً بنصرة الخير ، ومحاربة الشر ، أنّى كان ، ومتى استطاع ، كل الأرض داره وكل الزمان وقته ، فلن تقف دعوة الإسلام .

إن دعوة الإسلام لا تقف حتى يموت الخُلقُ العلي ، والقلب الأبيُّ ، في نفوس البشر . وقل للذين يزعمون أنهم حماة الإسلام : ما أذل الإسلام إن ابتغى في غير أولاده حماة !

وما أذلّ المسلمين إن رضُوا بغير حماية الله ، يا حسرة على الحق إن التمس من الباطل حامياً ، ويا خسران العدل إن ابتغى من الظلم ناصرًا ، وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله .

إن في دين الإسلام ، وإن في قلب المسلم ، وإن في خلق المسلم ، ما يربأ به عن كل دَنِيَّة ، ويصمد به إلى كل هول ، ويثبّته في كل كارثة ، ويسمو به إلى كل مقصد جَلَل .

أيها الحماة الأبرار : لقد أدرتموها على المسلمين حربًا طاحنة في المشرق والمغرب ، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية ، والكيد والدسائس ، وكدتم لهم في السر والعلانية ، واستبحتم فيهم كل منكر حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلُّوا ، ويئسُوا وملُّوا ، قلتم أيها الضعفاء ، فنحن الحماة الأقوياء ! شدَّ ما قسوتم على المسلمين ، ثم شدَّ ما رفقتم بهم !

أيها الحماة : لقد تعلمون أن بضعة ألوف من بني الإسلام ثبتوا لكم ، وسخروا بقواكم وفنونكم وأساطيلكم ، وجيوشكم وطياراتكم سنين وأعواما ، ولم يكن سلاحهم إلا عزة الإسلام ومجد الإسلام[1] .

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبُوا الأعادي
يصابرون الأكيد الصوادي
ويأكلون الجوع في البوادي
قد يئسوا يأسًا من الإمداد
إلا ثبات القلب في الجلاد
ونصرة الرحمن للعباد

* * * *

أبت لهم كرامة الإسلام
أبى إباء الشم الكرام
أن يسلموا الأوطان دون الهمام
منيتُهم مشارع الحمام

فلما تكسّر في أيديهم كل سلاح ، وأعوزهم كل قوت ، وضاق على عزائمهم كل مجال ، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصغار في الديار ، وإباء أن تجمعهُم والمذلّةُ أرض ، وهم اليوم مشردون في الأقطار ، قد نالت الخطوب من أموالهم ونعيمهم ، ودِعتِهم وجسومهم ، ولم تنل من أنفسهم ؛ فكل منهم علمُ جهاد ، وصحيفة فخار ، وسجلّ مآثر وشهادة ناطقة ، بما يتجاهلون من العزة الإسلامية ، والقدوة المحمدية ألا أن الإسلام لم تنته دعوته ، ولم تضعف كلمته ، وستبقى كلمة الله في الأرض ، ودَعْوته إلى الحق ، وحجته على الخلق ، في أمره بالأخوة والحرية ، والعمل في الحياة على أقوم السنن ، إلى أكرم الغايات .

ألا إن الإسلام ، دعوة إلى السلام والإخاء ، وإلى

الأدب الإسلامي

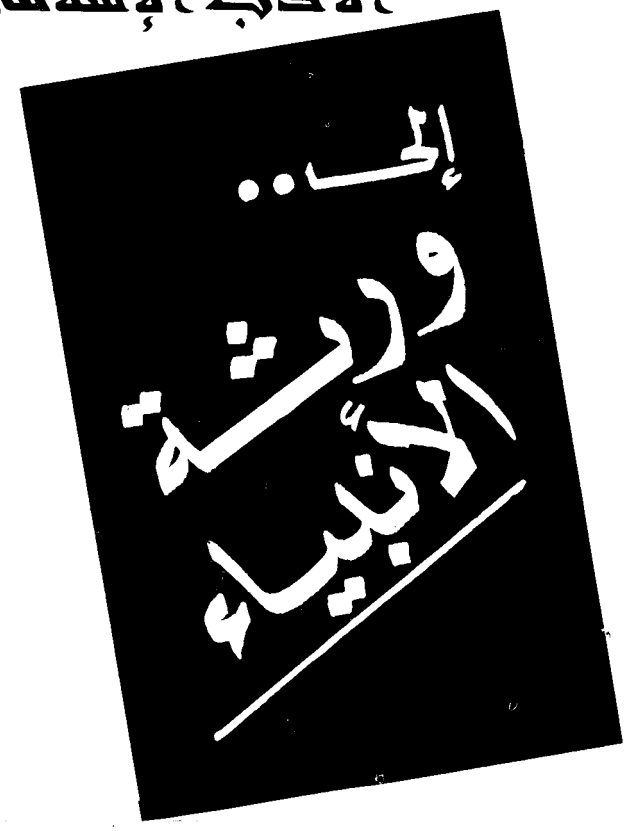

السيد عبد الحليم محمد حسين
ماجستير في الأدب العربي

لم يقم هذا الدين العظيم -

الذي أنقذ الإنسانية مما كانت تتورط فيه من

كرب وبلاء وجهل وشقاء - إلا على دعاية

صالحة تمثلت في معان نبيلة سامية.

أولها : مكانة الداعي ومنزلته في القلوب، لما كان يتحلى به من صفات جعلته نسيج وحده، وموضع التكريم حتى في نفوس عدوه، فكان قوله فصلًا، ومنطقه حكمًا.

وثانيها : مكانة ما جاء به من الحق، ومنزلته بين منازل الكتب والخطب والتشريعات وسائر الهدايات. حتى لقد حيّر الألباب، وقلب الأوضاع، وأوغل تأثيره في نفوس الناس حتى خلعوا عقائدهم، وارتموا بأنفسهم بين أحضانه، واستماتوا فيه، وضحوا بكل رخيص وغال في سبيله. حتى صاروا مثلًا عليا، ومصابيح هدى، واستطاعوا بصفاتهم التي تتجلى فيها السماحة، والكرم، والوفاء والصدق، والإحسان، والقيام بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. استطاعوا بذلك كله أن يُحوّلوا اتجاه الناس إليهم، وأن يؤثروهم على الأهلين والعشائر، وأن يرضوهم حكامًا عليهم متصرفين في أمورهم.

وهكذا يصنع الإسلام في نفس من خالطت بشاشته قلبه.

بل هو الذي أقال عثار الأمم العاثرة؛ لمجرد أنها اقتبست منه وسائل التنظيم والعمران في حياتها. فما من أمة أخذت بما فيه

من آداب المجتمعات ، وروابط الأفراد والجماعات ، لما ظفرت بالنصر ، وفازت بالسبق ، وكانت لها الغلبة حتى [illegible] يبشرون إلى الإسلام بالقول ، ولا يبشرون [illegible] توجيهاته ونظمه ، حتى إلى [illegible] دهر طويل [illegible] وصاروا وصمة عار عليه . وأصبح المنتسب إلى الإسلام عند كثير ممن جهلوا حقائق الإسلام - أو تجاهلوها - هو المتخلف عن ركب الحياة ، مع أن هذا الدين ما جاء إلا ليدفع ركب الحياة ، وما نزل القرآن إلا ليريهم آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .

إن [illegible] على الإسلام هي إلا [illegible] يتحلى أهله [illegible] البشير [illegible] التعريف بأسراره وعرض محتوياته القيمة النفيسة على كل الأمم والجماعات والأفراد ، فما أحوجه إلى أن يعرضوا على الناس بدلا من أن تطرق معالمه ، وما أحلاه إذا عرض عقيدة وشريعة ، فهو دين الفطرة ، وصديق كل فرد وأمة ، وحسب كل امرىء أن يعرف به ويقف على الحق من أمره . تالله لو استطاع هذا الدين لمشى إلى كل نفس ، فصح لها بما هو الأجدى عليها في حياتها ، والأنفع لها في كل أمرها وشأنها ، ولو استطاع لسار إلى كل طائفة يحمل لها ما هو الكفيل لسعادتها ورفاهيتها ، ولو استطاع لطار إلى كل شعب وأمة فنشر لها أنوار الهداية وهداها الصراط المستقيم [illegible] فهو تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين .

يا معشر العلماء :

إن [illegible] حملة العلم كما تفهمون [illegible] ، فقد وصف النبي ﷺ حملة العلم فيما رواه البيهقي من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن عن النبي ﷺ قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » . فالعالم المسلم الحق هو الرجل الفاضل العدل الذي يدافع عن الإسلام بحسن الدعاية له بالحق ، وينفي عنه تحريف المغالي المبتدع ، الذي يجاوز المراد في كتاب الله وسنة رسوله ، ويحرف الكلم عن مواضعه ، فيلصق بالإسلام وعقائده وشرائعه ما هو منه براء ، دعاية لبدعته أو نشرا للضلالة باسم الدين .

والداعية المسلم الحق : هو الذي ينفي عن الدين انتحال المبطل ، والمنتحل : هو الدعي الذي ينسب القول إلى غير قائله ، فيكذب على الله ورسوله ، ليروج باطله الذي لا يجد مصدقا له في حقائق الإسلام وصحاحه .

والداعية المسلم الحق : هو الذي ينفي عن الدين تأويل الجاهلين الذين قصروا عن فهم حقائق الإسلام ، فأخطأوا طريقه ، ولم يرجعوا إلى علماء الإسلام المتخصصين ، فقالوا في الدين بغير علم فضلوا وأضلوا .

هذا هو العالم المسلم والداعية المسلم الذي بشر به النبي ﷺ فمن لم يكن كذلك ، فليس به . إما لأنه قصر عن فهم الحقائق ، ولم تتضح في ذهنه تلك المعالم ، فلم يستطع أن يحملها على الناس تحملة تحفظ كرامتها ، فهو لم يبلغ بعد تلك المنزلة . فليس بعالم الدين حتى يبلغها . أو هو قد تشاغل عن الحقائق بالقشور ، وانصرف عن الجواهر إلى ما حولها من الأحجار والأتربة ، فلم يكن إذا جديرا بهذه التسمية .

إنما العالم المسلم من يحمل سلاح الحق لكل جاحد أو معارض ، ويعد نفسه لكل مكابر أو خارج ، ثم يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، ولا غرو ، فإن العلماء ورثة الأنبياء . وهذه الدعوة للحق ، والدعاية الصالحة له هي مناط تلك الوراثة ومستمدها لا غير .

لا غالب إلا الله

السيد عبد العليم محمد حسين
ماجستير في الأدب العربي

شعار بني الأحمـــر الذى حلوا به قصورهم ومساجدهم .. إنها عنوان لكتاب من العبر تفتح العين على الماضي ، لتصيخ الآذان إلى حديث الزمان ، بجولان الفكر ، طاويا الأعصار ، منظما البوادى والأمصار ، واثبا من غيب التاريخ إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى غيب التاريخ .

شهدت في ساعة جيوش طارق غازية من الزقاق إلى البرتات ، وشهدت مصرع عبد الرحمان الغافقي في بلاد الشهداء وشهدت جلاد الأجيال من المسلمين والأسبان ، ورأيت عبد الرحمن الناصر في حربه وسلمه ملء العين جلالا ورهبة ، وملء القلب عدلا ورحمة . ورأيت البطل ابن أبي عامر يحالف الظفر في خمسين غزوة ، وبعد المغار حيث نكصت الهمم والعزائم من قلبه ، ورأيت دولة الأمويين تزلزل فتتصدع فتنهار ، فأبصرت ملوك الطوائف يتنازعون البوار والعار ، ويؤدون الجزية إلى ألفونس السادس صاغرين ثم سمعت جلبة جيوش المرابطين يقدمها يوسف بن تاشفين ، وشهدت موقعة الزلاقة القاهرة ، ثم رأيت راية المرابطين تلى رايات ملوك الطوائف ، وهذه دولة الموحدين وهذا المنصور يعقوب بن يوسف في موقعة الأرك يحطم جيوش الأسبان بعد الزلاقة بمائة عام. ورأيت موقعة العقاب وقد دارت على المسلمين دوائرها ، والناصر بن يعقوب يفر بنفسه بعد أن اقتحمت عليه المنايا دائرة الحراس .

ورأيت غرناطة وحيدة في الجزيرة يتيمة، قد ذهبت أترابها ، وصارت كما قال طارق يوم الفتح . أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، ولكنها على العلات ، ورثت

مجد المسلمين وكبرياءهم فجالدت الدهر عن نفسها مائتين وخمسين عاما ، وحمت حصارها المسلمين على رغم النوائب وكلب الأعداء . ثم رأيت أشراط الساعة :

رأيت أبا الحسن وأخاه محمداً يقتتلان ويتنازعان على السلطان على مرأى من العدو ومسمع ورأيت أبا عبد الله ينازع أباه الحسن ذلك الملك المائل ، والظل الزائل ، ورأيت العراك المديد بين أبى عبد الله وعمه الزغل كما تتناطح الخراف فى حظيرة القصّاب ، وتلك جيوش فرديناند وإيزابيللا تُنيخ على مدينة بعد أخرى ، وتدك معقلا بعد آخر ، معالقة تجاهد الكوارث جهاد المستميت ، والزغل يشق الأهوال إليها لينقذها . فيقطع أبو عبد الله طريقه ويرد جنده . مالقة فى قبضة العدو ، وأهلها أسارى يباعون فى الأسواق ، ويتهاداهم الملوك والكبراء . وها هو الزغل يسلم ورياش إلى العدو على منحه من الأرض والمال ، ثم يعيا بأعباء المذلة والهوان فيهاجر إلى المغرب ثم شهدت يوم القيامة:

الجيوش محيطة بغرناطة وأهلها يغيرون على العدو وجهد البطولة والاستبسال والصبر ، ثم يغلق عليهم الضعف أبواب المدينة ، وهذا شهر ربيع سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، وأبو عبد الله يسير إلى فرديناند فى كوكبة من الفرسان لا محارباً ولا معاهداً ، ولكن ليسلم إليه مفاتيح الحمراء ، نظرت الصليب الفضى الكبير يتلألأ على أبراج القلعة ، ويكتب مع أبى عبد الله وهو يودع معاهد المجد وملاعب الصبا من الجمراء وحنة العريف وسمعت أمه عائشة تصرخ فى وجهه : « إبك اليوم كالنساء على ملك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال » فينهل دمعه ، وتتصاعد زفراته على الأكمه التى يسميها الأسبان اليوم « آخر زفرات العربى » وهذا أبو عبد الله وهو الذى باء بأوقار من الذل والعار تأبى فيه بقية من الشمم العربى أن يقيم القيم فيهاجر إلى المغرب ويرسل إلى سلطان فارس من وطاس رسالته الذليلة المسهبة يدفع عن نفسه ما قرف بين عرضه ودينه ويشكو إلى السلطان حزنه وبثه فيقول:

فولى الملوك ملوك العرب والعجم
رعيا لما مثله يرعى من الذمم

عىَ رأسى وقلبى بهذه الأحداث الكاربة، والخطوب المتلاحقة ، وهالتنى هذه المشاهد المفظعة ، فخرجت من هذه الغمرة مرتاعاً كما يستيقظ النائم عن حلم هائل أردد : «لا غالب إلا الله » .

تهذيب الطبائع بالعبادة

فضيلة الشيخ / السيد عبد الحليم

إن الله جلت حكمته ، ميَّز الإنسان باستعداده لقبول عبادة خالقه ، بما منحه من العقل والنطق ، وخصه بهما دون سائر الحيوان والجماد ، فكلفه العبادة وحده ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ... وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣] .

وظاهر أن المراد بالأمانة – والله أعلم – احتمال عهد التكليف ، وما ينجم عنه من الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية ، فالإنسان بطبيعته واستعداده وقابليته تلقى هذا التكليف ... والسموات والأرض والجبال لعدم استعدادهن وقابليتهنَّ بفطرتهنَّ ، لم يستطعن تحمله . وما أجمل قوله في حق الإنسان : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، فإن الظلوم من لا يكون عادلًا ، ومن شأنه أن يعدل والجهول من لا يكون عالمًا ومن شأنه أن يعلم ، وتلك حال الإنسان .. أما غيره فصنفان : صنف عالم عادل لا يعتوره الظلم والجهل أبدًا . وهؤلاء هم الملائكة . وصنف غير متصف بالعدل والعلم . وليس من شأنه ذلك كله : كالبهائم والجمادات .

وإذا خص الله - سبحانه وتعالى - الإنسان دون غيره بنعمة التفكير ، أطلق له النظر في السموات والأرض ، وما فيهما من الأفلاك والكواكب ، والحيوان ، والنبات ، والمعادن وغيرها ، ليستخدمها في إصلاح معيشته . تأمل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٤] .

ثم أوجب عليه الشكر باستدامة ذكره ، والخضوع لأوامره ، والوقوف عند أحكامه وحدوده ، وعلَّمه أن العبادة له وحده دون سواه ، فلا واسطة فيها بين العبد وربه ، لا ملك مقرَّب ، ولا نبي مرسل ، ولا ولي من دونه ، تأمل ما جاء في قوله ﷺ لمعاذ : « يا معاذ : هل تدري ما حق الله على عباده ، وما حق العباد على الله ؟ »، قال معاذ : الله ورسولُه أعلم قال : « فإن حق الله على عباده ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحقُّ العباد على الله . ألا يُعذِّبَ من لا يُشرك به شيئًا » .

جلَّت حكمة الله في هذا الدين الحكيم ، فقد طلب إلى الناس أن يعبدوه ، وجعل عبادته وسيلة لتجميل ظواهرهم ، وتهذيب طبائعهم ، وتكوين عادتهم ، وإصلاح سرائرهم . وإليك البيان :

أمر الإنسان بالوضوء قبل الصلاة لتجميل مواطن نظر الخلق ، بإزالة ما أصاب أعضاء الوضوء من ملامسة الأشياء ، ومما يحمله الهواء من التراب ، وتُخرجه المسامُّ من العرق ، وتقذفه المنافذ من الأقذار ، وبهذا يستجمله المصلون ، ويألفه المؤمنون . على أن في غسل أعضاء الوضوء محافظة على الصحة ، بدفع عوامل الأمراض ، والوقاية منها ، فقد ثبت طِبيًّا أنها تدخُل في الجسم من المنافذ التي يعمها الوضوء ، فإذا أزيل عنها ما عليها ، مما يمنع بروز العرق ، وتصاعد الأبخرة كان ذلك أحفظ للصحة ، وأدعى للسلامة .

هذا إلى أنه ليس في البدن ما يتحرك للمخالفة أسرع من أعضاء الوضوء ، فكان في غسلها التنبيه على الاعتناء بطهارتها ، وكانت طهارته الظاهرة كالرمز والإشارة إلى الطهارة الباطنة ، وهي التوبة من ذنوبها الكثيرة الوقوع ، يشهد بذلك ترتيبها في التطهير على حسب إسراعها للمخالفات ، وكثرة وقوعها في الآثام .

ألا ترى أنه يقدِّم الوجه الذي لا يُوجد أكثر منه في الأعضاء مخالفة ؛ لاشتماله على الفم الذي آفته أكثر من أن تحصى ، والأنف والعينين اللذين تقرب ذنوبهما من ذنوبه ؟ ثم تطهَّر بعده اليدان اللتان يكون البطش بهما بعد التكلم باللسان : والنظر بالعينين غالبًا ، ثم الرأس المجاور للوجه الذي هو كثير الذنوب ، واكتفى فيه بالمسح ؛ لأن مجاورة المذنب أخف من ارتكاب الذنب ، فضلًا عما في غسله من الحرج : تأمل قول ابن عباس - رضي الله عنهما - : (شرع غسل الكفين للأكل من موائد الجنة ، والمضمضة لكلام رب العالمين ، والاستنشاق لروائح الجنة ، وغسل الوجه للنظر إلى وجه الله الكريم ، وغسل اليدين إلى المرفقين للسوار ، ومسح الرأس للتاج والإكليل ، ومسح الأذنين لسماع رب العالمين ، وغسل الرجلين للمشي في الجنة) ، وهذا التأويل في غاية الحُسْن كما ترى .

وأمره بالطهارة العامة لإزالة الروائح الكريهة التي تضر صاحبها والمصلين ، وتستوجب سخطهم عليه ، واستقذارهم إياه ، وميلهم إلى التباعد عنه ، والنفور عن التقرُّب منه ، مع أنَّه منهي عن تجنُّبهم والإضرار بهم ،

مأمور بالإحسان إليهم ، والاختلاط بهم ، ولا سيما في مجالس الخير ، كصلاة الجماعة التي أكدها الشارع ، وحث عليها العقل ، ومجامع الوعظ والإرشاد للتكمل . وغير ذلك .

ومن أسرارها : انشراح النفس ونشاطها ؛ لأن لها بالبدن ارتباطًا قويًا لا يجحده ، فكل تأثير في الجسم يظهر أثره في النفس ، فإذا نُظف الجسم انشرحت النفس ، وذهب كسلها وفترتها ، وجاء نشاطها وقوتها ، وسهل عليها إحسان العبادة ، والإتيان بها على أكمل وجه ، ومن ظفر بذلك خفَّتْ عليه عبادة ربِّه ، وكان على القيام بها وبأعماله الدنيوية أقدر .

ومن أسرارها : أن في تنظيف الظاهر بالماء ، إشارة إلى تنظيف الباطن من الأخلاق الرديئة ، والعقائد الفاسدة ، فقد جاء في الخبر : « الطهور شطر الإيمان » ، ولا يكون كذلك وهو مقصور على نظافة الظاهر . لهذا قصد الشارع الحكيم أن يغرس في الناس خُلق نظافة الظاهر ، ليُطهِّر بواطنهم ، فيتخلَّوْا عن الأخلاق الذميمة ، ويتحلَّوا بالسجايا الكريمة ، ويتنزَّهوا عن العقائد الزائغة ، ويتمسَّكوا بالمشروع منها ، فإنه إذا استحكمت الموافقة ، تعذَّرت المفارقة ..

وأمره بالصلاة لما يأتي :

١ - **أن** الصلاة إذا أُديت على الوجه المطلوب من الخشوع والتعظيم والحياء ؛ غيرت ما جُبلت عليه نفس الإنسان ، من الهلع الناجم عن الركون إلى حظوظ الدنيا ، وإيثار العاجل على الآجل ؛ لأن وقوف المصلي بين يدي ربه ، يتضرَّع إليه ، ويستحضر خشيته في قلبه ، ويتذكر عظمته ، ويخاف عقابه - يُهوِّن عليه حرصه على العاجل ، ويقوِّي رغبته في الآجل .

٢ - **خلق** الإنسان بفطرته غير ثابت في أحواله ؛ إن رزقه الله خيرًا بطر وطغى . ومنع حقه فيه ، وإن رزق الشر جزع وسخط ، فإذا أدَّى الصلاة كل يوم خمس مرات في أوقاتها الراتبة ، توطنت نفسه على الثبات وقوة الجأش ، وخضوعها لجميع ما يجري عليها من خير وشر ، لعلمها أن الخير والشرَّ من عند الله الذي تقف بين يديه خمس مرات ، مقترنة بربوبيته ، معترفة بواحدنيته .

فالصلاة وسيلة فعلية ثابتة إلى تغيير قبيح الأخلاق ، وأدناها - وهو شدة الحرص الذي أصل المفاسد والأخلاق الذميمة - من التحاسد ، والتباغض ، إلى أجمل الأخلاق وأعلاها من إطراح الحرص وما ينجم عنه ، وأنها تكسب صاحبها الثبات والمثابرة ، وقوة العزيمة وتوطن النفس على النظام والتؤدة ، والتروِّي في الأمور ، وإلى فضل الصلاة في هذا المعنى يُشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : ١٩ - ٢٢] .

٣ - **الصلاة** تحول بين صاحبها وارتكاب المناكير عامة ؛ لأنها بما اشتملت عليه من الذكر والقراءة والركوع والسجود ، ومظاهر الخضوع لله سبحانه ، تجعل المصلي خالي الفكر من الشواغل الدنيوية، مستحضرًا خشية الله بقلبه ، متضرِّعًا إليه ، ممتثلًا لإرادته ومشيئته ، وبذلك ترتدع نفسه عن الشهوات ، وتعدل عما كانت تصر عليه من الآثام والمنكرات ؛ لأن الإقرار بعظمة الله قولًا وفعلًا يدل دلالة واضحة على أن المصلي لا ينابز صاحب العظمة والكبرياء بالعصيان ، أو يجاهره بالمنكر : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

٤ - **إن** توْقِيتَ الصلاة بأوقات راتبة ، وأزمان مترادفة ، سبب لاستدامة الخضوع لله تعالى ، والابتهال إليه ، فلا تنقطع الرهبة منه ، ولا الرغبة فيه ، وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام الخلق صلاحهم .

٥ - **إن** أهل كل بلد محتاج بعضهم إلى بعض ، فمنهم الغني والفقير ، والعالم والجاهل ، والقوي والضعيف ، فيجتمعون في الصلاة لتتحد كلمتهم ، وتتوثق فيما بينهم مودتهم ، وتتمَّ في الله أُخوتهم ، ويتعاونوا على ما يجلب

لهم الخير ، ويدفع عنهم الضَّير ؛ لأن الجيران إذا اجتمعوا في المسجد خمس مرات في اليوم والليلة لعبادة ربِّهم ، وإصلاح دينهم ، تيسَّر لهم إصلاح أمر دنياهم ، إذا حصل التعارف والتعاون بينهم ، يستدعي الرحمة والشفقة وحبَّ بعضهم بعضًا : فلا يجدون بينهم محتاجًا ، إلا نفضوا عنه غُبار الحاجة ، ولا مضطرًّا لإعانة إلا مدُّوا إليه يد المساعدة ، ولا غائبًا إلا بحثُوا عن أسباب غيبته ، فإن علموه مريضًا عادوه ، أو مشرفًا على خطر أنقذوه ، أو متقاعدًا لكسل عاتبوه ، وهذا ما كان يفعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ويأمر به ، فقد رُوي أنه قال : تفقَّدُوا إخوانكم في الصلاة ، فإن فقدتموهم ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم .

٦ – **تعويد** المؤمنين الحرَّيةَ ، وإشراب قلوبهم المساواة والإخاء ، لأن الإنسان إذا اعتاد الوقوف في صف يكون فيه السيد بجانب المسود ، والمخدوم قريبًا من الخادم – والكل ذليل بين يدي مولى عزيز – لم يجد له في هذا الموقف فضلًا على غيره ، فإذا انصرف من مكان الصلاة ، استحيى أن يرى لنفسه حقًّا ، في ادعاء السيادة ، أو التفرد بالحرَّية .

٧ – **إن** في صلاة الجماعة واتباع المصلين لإمامهم في جميع أعمال الصلاة ، تعويد النفوس الطاعة ، والانقياد للرؤساء ، وقد فطن لهذا السرِّ (رستم) قائد جيش الفرس ، حين رأى الصحابة خلف إمامهم ، يتحركون لحركته ، ويسكنون لسكونه .

وأَمَرهُ بالصَّوْمِ لما يأتي :

١ – **ليس** القصد من الصوم مجرد الإمساك عن الأكل والشرب وعن كل مفطر ، من الفجر إلى الغروب ، بل المقصود أثر ذلك ، وهو كفُّ النفس عن المضيِّ في ميولها ، التي أمرنا بمجاهدتها ، بسلاح الصبر والتقوى ، ولا يتحقق ذلك الأثر ، إلا بكفِّ اللسان عن الهذيان والفحش ، والغيبة والنميمة والكذب والمراء ، وكفِّ السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ومنع البصر عن النظر إلى جميع ما ينافي خشية الله تعالى ، « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله ! فمن تركها خوفًا من الله آتاه الله – عز وجَلَّ – إيمانًا يجد حلاوته في قلبه » ، وإلى هذه الحكمة البالغة من الصوم يشير الحق سبحانه فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] . أي : تتخذون من الصوم وقاية تحولُ بينكم وبين الميول المرذولة ، والمنكرات وسائر الموبقات : « إنَّما الصوم جُنَّة ، فإذا كان أحدِكم صائمًا فلا يرْفُثْ ، ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل : إني صائم » ، فالصوم وقاية يتحصن بها الصائم عن عَدُوَّيْه : النَّفْسُ . والشيطان .. فالنفس يكبحها عن مطاوعتها في ميولها ، ومتابعتها في غُلَوائها .. والشيطان يقهره بموافقة تلك الميول بالأكل والشرب : « إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق ، فضيقوا مجاريه بالجوع » .

٢ – **إن** سبب الأمراض في الغالب الأكل والشرب ، وحصول فضلة الأخلاط في المعدة . وحسبك ما ينشأ عن الأمراض من تنغيص العيش ، ومقاساة الآلام الشديدة أو عدم القدرة على أداء الواجبات الدينية والدنيوية ، فـ (البطنة رأس الداء ، والحمية رأس الدواء) ، فصوم شهر في السنة تطهير للمعدة مما تخلَّف فيها من فضلات الطعام طول العام .

وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بُنَيَّ إذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرِسَتِ الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقد وصف الحسن البصريُّ في قصصه ، نقص الإنسان بالطعام وغيره فقال : مسكين ابن آدم : محتوم الأجل ، مكتوم الأمل ، مستور العلل ، يتكلم بلحم ، وينظر بشحم ، ويسمع بعظم ، أسير جَوْعة ، صريع شبعة ، تؤذيه البَقَّة ، وتنتنه العرْقة ، وتقتله الشَّرْقَة ، لا

يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياةً ، ولا نشورًا .

٣ - **إن** من اعتاد قلة الأكل والشرب ، كفاه من المال قدر يسير ، ومن تعوَّد الشبع جعل بطنه غريمًا ملازمًا له ، آخذًا بِمخْنَقه كل يوم ، يُطالبه بمطالبه المنوَّعة ، التي قد تدفعه إلى السرقة ، أو القمار ، أو إراقة الدماء أو إراقة ماء وجهه ، أو ارتكاب ضروب الذلة ، والدناءة ، وخسَّةَ النَّفْس .

٤ - **إن** من منع النفس عن مشتهياتها ، وكفها عن بعض رغباتها ، وسيلة إلى أن تسكن لربها ، وتخشع له ، ويتبيَّن لها عجزها إذا ضاقت حيلها وأظلمت عليها الدنيا ، لشعورها بالحاجة الشديدة إلى يسير الطعام وقليل الشراب ، والمحتاج إلى الشيء ذليل به ، وفي هذا حث له على أن يخلع عن عاتقه رداء الكبر ، ويخضع لخالقه ورازقه ، ويُعامل خلق الله بحسن الخلق ، ولين الجانب ، فتتمَّ الرأفة ، والمودَّة ، والمساعدة ، والمعاونة .

٥ - **الصوم** سبيل تعوَّد الصبر ، والثبات على المكاره ، فإن الصائم يكلف نفسه البعد عن مشتهياتها : من الأكل والشرب وما إليهما . ويذودها عن ذلك بعزم قوي وصبر جميل ، فلو رغبته بأعظم الرغائب ، على أن يتناول من الطعام ذرَّة ، أو من الشراب قطرة ، ما وسعه ذلك ، ووجد في نفسه ما يكدر خاطره ، ويُنغِّص عيشه ، ومن اعتاد مقاومة نفسه عند نزوعها إلى ميولها ، أصبح لعقله السلطان على بقية قواه . ومن السعادة أن يملك الإنسان نفسه ، لا أن تملكه نفسه .

٦ - **إن** من يرعى الأمانة في هذه العبادة في سرِّه وعلانيته ، جدير بأن يؤتمن على أنْفَسِ شيء وأعظمه ، وفي ذلك من حسن السيرة ، ما به يكون صاحبه من أجل الناس قدرًا ، وأشرفهم ذكرًا ، وأعظمهم أجرًا .

هذا إلى أن المحافظة على تأدية هذه العبادة في أشد الأمكنة خفْيَة ، وأبعدها عن أعين الرائين - دليل على كمال المروءة ، وعلو الهمة ووفرة الحياء ... وما المروءة إلا المحافظة على الأحوال التي تكون بها النفس على أفضل حال وأكملها : « إن مروءة الرجل مَمْشَاهُ ومدْخلُهُ ، ومخْرجُهُ ، ومجلِسُهُ وإلْفُه ، وجَليسُهُ » .. وما الحياء إلا ثلاثة أمور :

أحدها : امتثال أوامر الله - عز وجل - ، والكفُّ عن زواجره ، وحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وترك زينة الحياة الدنيا ، وذكر الموت والبلى .

وثانيها : كفُّ الأذى عن الناس ، وإطراح مجاهرتهم بالقبيح ، واتقاؤهم ، فلا خير فيمن لا يستحي من الناس ، وإلى ذلك يُشير بشار بن برد ، فيقول :

ولقد أصرف الفؤادَ عن الشي ءِ حياءً وحبُّه في السواد
أُمسِكُ النفس بالعفاف وأُمْسي ذاكِرًا في غيرِ حديث الأعادِي

وهذا النوع من الحياء كمال المروءة ، وحبُّ الثناء ؛ فمن ألقى جِلْبَابَ الحياء فلا غيبةَ له ، وذلك لقلة مروءته ، وضعفه أمام ميوله .

وثالثها : حياء الإنسان من نفسه ، بعفَّتها وصيانتها في الخلوات ، كما قال بعض الحكماء : ليكُن استحياؤُك من نفسك ، أكثر من استحيائك من غيرك .

كما قال بعض الشعراء :

فَسِرِّي كَإِعْلَانِي وتلك خليقتي وظُلمةُ ليلي مثلُ ضوءِ نهاريَا

وجَلِّي أن من استكمل هذه الأمور الثلاثة من الحياء ، كملت فيه أسباب الخير ، وانتفت عنه أسباب الشرِّ ، وصار بالفضل مشهورًا ، وبالجميل مذكورًا .

٧ - **إن** كفَّ النفس عن مشتهياتها ، ومنعها من مبْتَغاياتها ، مجاهدة عظيمة لها ، دالة على توفُّر الشجاعة الأدبية ، وهي أساس الفضائل ، وعنوان محاسن الشمائل .

٨ - **إن** الصائم يُعاني خلال صومه من حرارة الجوع ولظى الظمأ ، ما يدفعه إلى إعانة من رآه محتاجًا إلى طعام أو شراب ، لينقذه من مثل ما ذاق ألمه ، بخلاف من لم يصم ، فإن من لم يقاسي بلاءً ، لم يُدرك عناءً .

باب الأدب

فضيلة الشيخ / السيد عبد الحليم

المصلح الأكبر

ألق نظرة عجلى ، في لمحة خاطفة ، متفحصًا في ومضة بارقة ، على أحوال البشرية في هذا العصر ، تجد عالمًا مضطربًا ، بشرية متعثرة في دَياجِيرَ مُدْلَهِمَّة ، لا تدري كيف تسلك السبيل إلى المثل العالي ؟! فتراها متباينة في أخلاقها ، متصدِّعة في ألفتها ، قد انقصمت على أُخوَّتها ، وبترت أسباب شملها ، فافترقت بها السبل ، وتشاكست النفوس ، واستمرت العداوة والبغضاء بينها ، فمن قويٍّ يجنف على ضعيف بقسْوَة لم تهتِد إلى الرحمة سبيلًا ، إلى حاكم يُسيِّر رعيَّته لخيره وحده .

لم تتواضع هذه البشريَّة المصطخبة الجياشة ، على شِرْعَةٍ موحدة ، أو منهاج يوضح السبل ، بل ترى كل فرد قد ركب رأسه ، وَوَلَج مُهْيَعَهُ متعرِّجًا في نزعة ثائرة صاخبة ، لم تلج باب الحكمة والأناة والتبصُّر والتدبُّر .. هنا أمة تتأهب لغزو أخرى ، وهناك شعب يئن من ظلم فادح ، وقَسْرٍ مرهقٍ ، قد استحكمت رِبْقَة العُبُودية في عنقه ، فطفق يتلمَّسُ سُبُل الخلاص ، فلا يجد لمعة من أمل ، أو ظهيرًا يعينه على إدراك طلبته ونوال حريته .

نرى هذا قد كشَّر عن أنياب دامية محدودة ، يتوثَّبُ لينقضَّ على أخيه ، وذاك يُقلِّبُ وجوه الرأي متربِّصًا دائرة السوء بمناجزه .

هذه هي الإنسانية تسير على أبواب مُرْدَاة بعيدة الغور ، تتقاذفها مؤثرات نفسيَّة ، وتقاليد مقوضة ، ونظم وعادات فاسدة ، ووراثات جائحة جارفة ... فلو التفتَّ مقلبًا بصرك فيما حواليك ، لما وقع على نفوس تدرَّعت بالحلم ، واستنارت بنور العلم ، نفوس وشجت فيها الرحمة ، أو نَبَتَ غَرْسُ العطف .. لهذا حار علماء الاجتماع في تعرُّف سرِّ هذا الداء الذي استطار شرره ، وتعاظم ضرره ، فمن قائل : إن « الرأسمالية » هي الداء الذي نغل في جرحها وتمكن من تقويض هيكلها ، ذاهبًا إلى أن خير مبضع لشطره ، ودواء لاستئصال شأفته « الاشتراكية » ولو أنهم اتَّأَدُوا ، وتريثوا ، ونظروا بعين خالصة من كل هوى ، لعلموا أن علاجهم بين أيديهم ، ودواءهم أمام ناظريهم ، فهو مركوز في وحي ربهم ، ومذخور في هديِ نبيِّهم ﷺ .

فمـن العجائـب والعجائـب جمـةٌ
فـرُبَّ الـدواء ومـا إليـه وُصـول
كالعيـس فـي البيـداء يقتلهـا الظمـأ
والمـاء فـوق ظهورهـا محمـول

إن انتماء البشرية لآدم ليربط الكون بما فيه برابطة وثيقة من أصل الوجود ، ينادي على ذلك قول الله

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] .

وقد ثبت في أحدث النظريات العلمية التي تسير مع القرآن جنبًا إلى جنب أن أصل الإنسان واحد ، وإن ترامت به الأقطار ، واختلفت الألوان ، وتباينت اللغات ، وافترقت النظم والعادات ، فَلِمَ إذًا هذا التدابر ، وذاك التناحر والتنافر ؟ ولم هذه الغواية المتأثلة في النفوس ، وتلك الضلالة المتمكنة في الأفئدة والقلوب . ودواء هذا الداء دَانٍ منا قريب ؟!

وإذا كان لا بد لبني الإنسانية من الاجتماع على خير ، فاعلم - قيض الله لك الرشد - أن هناك شرعة بينة محكمة ، ومنهاجًا مشرقًا مضيئًا ، معبّدًا منقادًا ، يوحّد صفوفها ، ويؤلف بين قلوبها ، كما كان في عصر أقرب مثلًا ، وأدنى مشابة من عصرنا هذا ، حينما كانت دولتا الفرس والرومان تسومان العالم ظلمًا ، وترهقانه حيفًا .

فمن شرائع فاسدة استغلها الأشراف لمصالحهم ، وتكميل دواعي سرفهم ، وتفنكهم ، إلى تدهور خلقي شامل ، وفساد عادات مستحكم ، وانتثار ألفة مُحْصد ، وتصدُّع وحدة ترجُف جوانبها ، ووهى شُعَبَهَا .

لولا أن أشرقت تلك البعثة في بطن غير ذي زرع ، فأضاءت لها أرجاء العالم ، واقتطفت من ثمار هداية تلك الروح الملهمة رشدًا وعزة وسعادة ، فتوحدت جهودها ، وتضافرت على المجد أسس عزتها .

ولئن كان يقول بعض علماء النفس : إذا أردت أن تصبغ العالم بصبغة دينية ، أو علمية ، أو سياسية ، وتجعله يدين لفكرة واحدة ، ويسعى لهدف موحّد ، فما عليك إلا أن تغرس تلك الفكرة في نفوس النشئ الحديث ، فلن تمضي حقبة إلا وقد نما ذلك الزرع واستحصد ، وآتى أكله ضعفين ، كل حين بإذن ربه .

وما هي تلك الفكرة النبيلة الغاية ، الشريفة المقصد ، التي تنتشر بها ألوية المحبة خفاقة ؟ وما هو ذلك الهدف السامي ، الذي إذا ولينا وجوهنا شطره ، وعملنا على تحقيقه ، بدّل الضعف قوة ، والذلة عزّة ، والفقر غنى ، والتفرقة وحدة وألفة ، والجبن شجاعة ، والخمول ذكاء ونباهة ، والكذب صدقًا ، والاستكانة إباء ، والانحطاط رفعة ، والبغض محبة ، ونكث العهد وفاء ، والأثرة تضحية لصالح المجموع ؟

تلك هي فكرة العودة إلى الينابيع الصافية ، والموارد الشافية ، والأصول السامقة ، والصروح الشامخة ، وذلك الهدف هو المثل الأعلى ، الذي يجب أن نوغل في الإسراع إليه ، سيرًا في تلك السنة ، وتخلقًا بأخلاق تلك الشخصية الكاملة ، المملوءة حياتها بمكارم الفعال ، وجلائل الأعمال ، والمترعة بالمثل العملية العليا ، فسجلّ تاريخه : حياة جديرة ، بأن تكون شرعة البشر قاطبة ، وحقيقة بأن تصبح مثلها الأعلى ، إذ اصطفى الله محمدًا من سائر خلقه ، فهو أعلى رسله درجًا ، وأكملهم شريعة ، وأشرفهم عنصرًا ، جمله الله بحميد الشمائل ، وحلاه بأكمل الفضائل ، فرفع للفضيلة منارًا ، وشَبَّ لها في أعلى يفاعٍ نارًا ؛ إذْ جَاء بالسمحة البيضاء ، التي لَيْليها كنهارها ، فامحى بها الليل ، وأشرق بها الضياء ، ولئن أرعد المبطلون في ذلك وأبرقُوا .

فما كان إلا كما قال الله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٣] سمحة بيضاء ، فيها توحيد للثقافة ، وتقريب للفكر البشري ، ورفع للمستوى الثقافي والاجتماعي .

فإذا كان لا بد لنا من لَمِّ شَعْثٍ ، وَرَأْبِ صَدْعٍ ، وتوحيد جبهةٍ ، وجمع كلمةٍ ، وخلْق ألْفةٍ ، وسيْر حثيث ، حتى نتبوَّأ صهْوَة المجد ، ونَقْتَعِدَ غاربَ السُّؤْدُد ، ونعيد مجدًا دثر ، وعزًّا عفَى وانطمسَ فيه الأثر ، ونلحق بالأمم التي أدْلجت وَنمْنا ، وتقدمت وتقهقرنا - فلا نِدْحة عن

ترسُّم سيرة هذا المصلح الأكبر ، والسير على سننه ، والتمسك بشريعته التي تتفق وكل جيل ، وتصلح لكل عصر ، فإذا فعلنا ذلك أصبحنا أمة قوية عتيدة منظمة مرهوبة ، واثقة من حياة ماجدة ، ممكَّنًا لنا في الأرض كما مكَّن الله لآبائنا من قبلنا . فنشر هذه الفضائل أمانة في عنق حاملها ، وجب أداؤها ، إن تلك الفضائل ، وهذه الشمائل ، هي الدستور العام لجميع مناحي العمل في الحياة ، وهناك يُتم الله نوره ، ولو كره الكافرون والعلمانيون .

إننا أم رشفة من وابل مدرار ، وقطرة من زواخر البحار ؛ إذ كل إفراط في تصوير فضائله تقصير ، وكل إكثار في الكشف عن بدائعه ﷺ - اختصار ، فهو خير البشرية طفلًا ، وأنجبها كهلًا ، أطهر المطهرين شيمة ، وأمطر المستمطرين ديمة ، وهو خير أسوة للفرد في قبيلته ، والزوج مع زوجه ، والأب مع ولده ، والمربي مع تلميذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجندي في حومة الوغى ، والقائد في تدبيره ، والمتشرع في أحكام شريعته ، والقاضي في قضائه ، والسياسي في حكومته ، والملك في رعيته ، والمسالم لأوليائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد في محرابه ، والزاهد في قناعته ، كل أولئك يجدون من حياته العملية مُثلًا يحتذونها ، وروحًا يقوون بها على مزاولة أعمالهم ، وإمامًا يسيرون عليه في تحقيق مآربهم ، ومردًّا يرجعون إليه عند حيرتهم ، وإن اختلفت مشاربهم ، وتباينت ألوانهم .

اختص الله نبيه محمدًا ﷺ - بالمحامد الكثيرة ، والمآثر الأثيرة ، وأظهر على يديه الآيات ، وأقام له الألوية والرايات ، وفضله على خاصته وأحبابه ، وأثنى عليه في غير موضع من كتابه ، ونصره بالرعب مسيرة شهر ، وأبقى معجزته ما بقي الدهر ، وكلأه بعنايته ، وشمله برعايته ، وأيده بالبراعة واللَّسَنْ ، وركَّب فيه كل خلق حسن ، وآتاه جوامع الكلم ، وحضَّ على الاقتداء بهديه ، وأمره بامتثال أمره ونهيه ، وأجرى جواري الخير على يديه ، وأوحى إليه وناجاه ، وأراه آياته الكبرى ، وكرَّمه في الدنيا والأخرى ، وأسبغ عليه من القبول أحسن المطارف ، وأولاه كثيرًا من الخصائص ، وسوَّاه فعدَّله ، وأدَّبه فأحسن تأديبه ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم ، وأرشده إلى حل كل مشكل ومبهم ، وجبله على الصيانة والعفاف ، وأقام به ميزان العدل والإنصاف ، وأفرده بإبداع سره المصون ، وعضَّده بوحي كريم في كتاب مكنون ، ومنح جانبه العزيز لينًا ، وذاته الكريمة لطفًا ، وفتح به أبصارًا عميًا ، وآذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا ، ولم يبعث نبيًّا إلا ذكر له نعته ومسلكه ، وأخذ عليه الميثاق في الإيمان به ونصره إن أدركه ، ولم يعط أحدًا من الأنبياء فضيلة إلا أعطاه مثلها وزيادة ، نزَّه لسانه عن النطق بهواه ، وفؤاده عن الكذب فيما رآه ، وجنبه الزيغ وزكاه ، وعصمه من الأغراض ؛ وأناله من نيل الكرامة غاية السول ، وقرن طاعته بطاعته في قوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وسماه في كتابه نورًا ، بقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] . وشرح له بالرسالة صدرًا ، ورفع له بذكره معه في الشهادتين ذكرًا ، وأيده بأظهر البراهين، وأبهر المعجزات ، ودرأ العذاب عن أهل مكة لكونه بواديهم ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٤] . وطهره من الأقذار والأدناس ودلَّ على عصمته في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وأحسن مخاطبته في سورة ن ووعده فيها بأجر غير ممنون ، وأثنى عليه الثناء المستطاب العظيم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ونحن إذا تصفحنا سيرة العظماء الذين شاد بذكرهم التاريخ ، وجدنا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام أرفعهم ذكرًا وأبقاهم أثرًا ، فما عهد التاريخ رجلًا من عظمائه قد أهاب بأمة كالعرب ذات بأس وصراحة ، وحميَّة وإباء ، وذات خيال وتصور ، يدعوها أن تخلع

نفسها مما هي فيه ، وأن تضع أعناقها للحق الذي لم تألفه حقًّا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها ، وهم لا يرون من أمره ذلك إلا قلة وهوانًا واستخفافًا ، وإن كانوا يعرفونه من قبل بحسن الخلق ، وصفاء الذمة ، وطهارة الضمير . ويعرفون أنه لا يريد ملكًا ، ولا يبغي شيئًا من عرض الدنيا ، بل قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] .

ثم مع هذا كله لا يُداخلهم بالنفاق ، ولا يتألفهم على باطلهم ، ولا ينزل في العقيدة على حكمهم دهاء ومخاتلة ، كما يصنع دهاة السياسة ، وقادة الأمم ، وكما صنع نابليون في مصر إذْ تظاهر بحب الإسلام . وكما قال : (لو كنت أحكم شعبًا يهوديًّا لأعدت هيكل سليمان عليه السلام) .

أما صاحب الشريعة الإسلامية – ﷺ – فلم يفعل شيئًا من ذلك : قد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو في قلة وحاجة إلى رجل واحد ، يزيد في عدد من معه ؛ فأبى وقال : « لا أنتصر بمشرك » ومع هذا فقد اجتمع له ما أراد ، وأتته الأمة العربية عن يد وهي صاغرة للحق ، وبذلت له نصرها بعد التخاذل عنه ، وتعطفت عليه بقلوبها الجامحة ، وهو الراغب عن سنتهم ، والمسفِّه لأحلامهم ، والطاعن على شرائعهم .

إن نظرة بإمعان في التاريخ تدلنا على أن العظماء يظهرون بين أقوامهم مماشاة لتدرجهم ورقيّهم : فإن كان رقيهم في باب الحقائق الفكرية ، ظهر من بينهم حكيم يضيء لهم السَّبيل بثاقب فكره ، وسديد رأيه ؛ وإن كان رقيهم في باب الفتح وبسط الملك ، ظهر من بينهم فاتح عظيم ، يقودُهم إلى الأقطار المتاخمة والنائية .

وكذلك القول في العلماء والشعراء والخطباء وغيرهم من عظماء الرجال الذين يترجمون عن وجهة أقوامهم ، فكل عظيم من هؤلاء هو روحُ عصره ، وجمهوره جار على سنة الله في النشوء والارتقاء – بَيْدَ أن محمدًا ﷺ كما لم يكن جاريًا على هذه السنة ، بل جاء والعرب قد نزلوا إلى الهاوية في الانحلال الاجتماعي ، بما لم يعهد له مثيل في تاريخ الأمم : فكانوا في جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة ، والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فنٌّ يذكر ، أو صناعة تنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئًا من العلاقات الدولية . وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها ، تتحفَّز لشن الغارة على جارتها ، فلم يكن من المألوف أو المعقول أن بيئة كهذه البيئة تتمخض عن هذا العظيم الذي اجتمع له ما لم يجتمع لمصلح من قبله ؛ لأنه كَوَّن أمة ، وأسس دولة ، وأقام دينًا . أمور ثلاثة لم تجتمع لأحد من قبله ولا من بعده ، ولا يُعدُّ ظهور بعض الأفراد والنابهين ، أمثال أكثم ابن صيفي دليلًا على صحة البيئة العربية لإخراج أكبر المصلحين . الحق أن العناية الإلهية القادرة التي تخلق الحُيَّات في ظلمات البحار ، هي التي أبرزت هذا الإنسان العظيم ، وأمدته بعنايتها ، وجعلته نورًا ينسخ الظلمات جميعها ، فيضيء أطراف الأرضين .

العظمة ليست وقفًا على ما يتم على يد صاحبها من المعجزات أو العجائب ، وليست وقفًا على ما هو عليه من الفصاحة والقدرة على استنباط النظريات ، فكل هذه مظاهر لا تلبث أن تزول ؛ إنما العظمة الحقيقية هي الشخصية القوية الثابتة ، وهي التي تأتي بالعجائب ، وتأخذ بألباب المحتفين بصاحبها ، وتملك مشاعر الذين يجيئون من بعده ، وينظرون في سيرته .

الشخصية الكاملة هي التي تلقي في قلوب أهل جيلها احترامًا وهيبة لصاحبها ، ورغبة فيه . وتحملهم على محاكاته ، وتحبب إليهم طاعته ، ثم تصبغهم بصبغته ، وتخلق في نفوسهم أساسًا جديدًا لتقبل عقيدته وآراءه ويتصل تأثيرها هذا بقلوب الأجيال القادمة ، فتظل عظمته خالدة .

فضيلة الشيخ
السيد عبد الحليم حسين

باب التفسير

قصة.. الإفك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ [النور: ١١]، وهو أبلغ الكذب والافتراء على عائشة - رضي الله عنها - هم جماعة من المؤمنين، أو ممن يدعي الإيمان فلا تحسبوه - يا من يمسكم - شرًا لكم، بل هو خيرٌ لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم على صبركم، وتظهور كرامتكم عند الله بدفاعه عنكم في القرآن الكريم، ولتهويل الوعيد لمن اجترأه، فلكل منهم جزاؤه الأليم.

والذي تولى معظم إذاعته وهو - عبد الله بن أبي ابن سلول - رأس المنافقين له المصير المخزي والعذاب الأليم.

هلا حين سمع المؤمنون والمؤمنات هذا الإفك أن يزنوا الأمور بميزان سليم، فهو بعيد الحصول على المؤمنين العامرة قلوبهم بالتقوى والخوف من الله، أفلا يكون مستحيلًا من عائشة زوج الرسول أم المؤمنين، فكان عليهم أن يثبتوا، ويحسنوا الظن، ويردوا الطاعنين عن إخوانهم، ويقولوا: هذا بهتان عظيم لا يليق بالمؤمنين، فكيف بعائشة أم المؤمنين !!

هلا جاء الأفاكون الكذابون المفسدون على بهتانهم بأربعة شهداء يشهدون على صحة اتهامهم بمعاينة ما قذفوا به على حسب ما يوجبه الشرع، فإن لم يأتوا بالشهداء فأولئك في حكم الله هم الكاذبون.

ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا بالنعم، وفي الآخرة بالعفو لمسكم أيتها العصبة عاجلًا عذاب عظيم بسبب ما خضتم فيه، فأنتم تتلقونه بألسنتكم، ويرويه بعضكم عن بعض، وتقولون قولًا بالأفواه ليس له دليل، وتظنون الخوض في أمر عائشة سهلًا، ولكنه عند الله - عز وجل - عظيم يستحق أشد العقاب.

فهلا قلتم حين سمعتم هذا البهتان: ما يصح وما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا، وننزه الله عن ذلك.

فالله ينصحكم ويعظكم ألا تعودوا لمثل هذا الكذب أبدًا مادمتم أحياء إن كنتم مؤمنين، ويبين لكم آياته كي تتعظوا وتتأدبوا، فالذين يحبون أن ينتشر القول السيئ والفعل القبيح في المؤمنين لهم عذاب أليم في الدنيا بحد القذف، وفي الآخرة بعذاب النار.

ولولا فضل الله عليكم أيتها العصبة ورحمته بكم، وأنه رءوف بعباده لعاجلكم بأشد العقوبات.

يا أيها المؤمنون لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ومن يسلك طريق الشيطان كان عاصيًا

مثله ، يرتكب أقبح القبائح ، وما ينكره الشرع كقذف عائشة - رضي الله عنها - ولولا رحمة الله بكم أيها القاذفون ما وفقكم إلى التوبة ، وما شرع لكم الحدود المكفرة لذنوبكم ، ولكن الله لطيف بعباده يطهر من يشاء ، وهو السميع العليم .

ولا يحلف ذو الفضل منكم وهو أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ألا يعطوا أصحاب القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ما تعودوه من النفقة عليهم لخيانة ارتكبوها ، وليعفوا عنهم ، والله يغفر لهم وهو الغفور الرحيم .

والذين يرمون العفيفات الغافلات عن قذفهن اللاتي لا يخطر ببالهن أن ينال أحد منهن - كاللعين ابن أبي وأشياعه - لعنوا وطردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة ، ولهم المصير المؤلم ، والعذاب الشديد . وينطق الله ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، فتنطق كل جارحة بما صدر منها من أفعال صاحبها ، ويومئذ يجازيهم الله الجزاء العادل ، يوم لا تظلم نفس شيئًا ، ويعلمون أن الله هو القاهر فوق عباده ، لا تخفى عليه خافية .

والكلمات الرديئة من القول لا تصدر إلا من خبثاء النفوس ، والخبيثون من الناس لا تصدر منهم إلا الكلمات الخبيثات ، أما الطاهرون فلا تصدر منهم إلا الكلمات الطيبات .

وأولئك الطاهرون مبرءون مما يقوله القاذفون في حق عائشة وصفوان .

فالذين جاءوا بأبلغ الكذب على الطاهرة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أضروا بأنفسهم دون غيرهم .

قالت عائشة - رضي الله عنها - : فقدت عقدًا في غزوة بني المصطلق فتخلفت ، ولم يعرف خلو الهودج لخفتي ، فلما ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطل بعيره ، وساقه حتى أتاهم بعد ما نزلوا ، فهلك فيَّ من هلك واعتللت شهرًا ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يسأل : « كيف أنت ؟» ، ولا أرى منه لطفًا كنت أراه ، حتى عثرت خالة أبي أم مسطح ، فقالت : تعس مسطح ، فأنكرت عليها ، فأخبرتني بالإفك ، فلما سمعت ازددت مرضًا ، وبت عند أبوي لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وهما يظنان أن الدمع فالق كبدي ، حتى قال - عليه الصلاة والسلام - : « أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » ، فقلت : بحمد الله لا بحمدك .

فقصة الإفك درس للبشرية كلها في التثبت ، وعدم حرج الآخرين ، والعمل على صيانة وحدة المجتمع ، وزجر للمتقولين بالباطل المجترئين على العرض والشرف .

المناقشة

١ - نزل القرآن الكريم نورًا وهداية وتذكيرًا وبيانًا للناس وإرشادًا لهم - ما المبادئ التي أرساها القرآن الكريم لتحقيق هذه الأهداف الكريمة ؟

٢ - الإسلام يربي الفرد ، ويهيئه للحياة الكريمة ، وينقره من الرذائل وضح ذلك ؟

٣ - العقوبة ليست هدفًا من أهداف التربية الإسلامية ، وإنما هي حماية للمجتمع وصيانة لأفراده - وضح ذلك ؟

٤ - جريمة الزنا من أشنع الجرائم التي تهدد المجتمع بالفناء والدمار - دلل على ذلك ؟

٥ - « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، ولذلك شرع حد القذف منعًا للسان من الاذى - وضح ذلك ؟

٦ - الإسلام يحرص على كرامة المسلم وكرامة بيته وأسرته . من أين تفهم هذا من الآيات ؟

٧ - تعرض البيت النبوي لإيذاء المنافقين ، وتولى الله الرد عليهم مبرئًا بيت رسوله الكريم - وضح ذلك ؟

٨- ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا... ﴾ [النور : ١] ماذا توحي كلمة : ﴿ أَنزَلْنَاهَا ﴾ ، وكلمة : ﴿ فَرَضْنَاهَا ﴾ ؟ وما علة ذلك ؟

٩ - لم قدمت كلمة : ﴿ الزَّانِيَةُ ﴾ [النور : ٢] على ﴿ الزَّانِي ﴾ [النور : ٣] ؟

١٠ - ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ [النور : ٨] ماذا توحي كلمة ﴿ وَيَدْرَؤُا ﴾ ؟

د . السيد عبد الحليم
ماجستير في الأدب العربي

لقد رضينا بالله جل جلاله ربًّا ، وبالإسلام الحنيف القويم دينًا ، وبمحمد نبيِّ الرحمة ، ورسول النعمة قائدًا وهاديًا ، وبالقرآن الكريم المجيد نورًا وإمامًا ..

لم يحملنا على ذلك إرغام أو إكراه ، ولم يخامرنا في ذلك ريب أو اشتباه ، بل آمنا - عن اعتقاد ويقين بأن هذا هو الدين القيم الذي يجب أن نحيا له ، وأن نعمل به ، وأن نلقى الله عليه . ولذلك كان من حقنا - بل من واجبنا - أن نغار على هذا الدين ، وأن نذود عنه سهام المفترين ، وأن نحذر فيه تضليل المخادعين ، ولكن يظهر أن كثيرًا من المنتسبين إلى الإسلام يفرطون في حقوقهم ، كما ينسون واجباتهم ، ويغالطون أنفسهم كما يغالطون سواهم ، فهم يرون المكايد السافرة ، المنظمة المتلاحقة ، المنصبة على هذا الدين وهم في غمرة ساهون ، أو عن حق دينهم في رقابهم يتغافلون ...

إن أعداء الدين الكبار والصغار يعملون بجد ومكر على تحوير هذا الدين ، وتسخيره للأهواء والرغبات ، وتطويعه للملذات والشهوات ، وإخضاعه - وهو هدى الله العلي الأعلى - للحياة الدنيا بمتاعها ولهوها ، وباطلها وزينتها بدل إخضاع هذه الحياة لتعاليم هذا الدين السمح الكريم ، وكلما راجت عندهم بدعة ، أو بلوى ، وراقت لشهواتهم ولذاتهم ، ذهبوا يغتصبون لها الفتوى من الدين في شطط وتكلُّف ، ويتأولون في الرخص تأويلًا فاحشًا ، ويتوسعون فيها توسعًا مسرفًا ، ويأخذون بالآراء الشاذة ، والأقوال الباطلة ، والفتاوى الكاذبة ، أو المتهالكة ضعفًا ، لا لضرورة مُلِحَّة ، ولا لمصلحة عامة ، لازمة ،

بل لأن الهوى يريد ، ولأن الشهوة تتحكم ، ولأن الإجلال لحق الله تبارك وتعالى - وهو خالق الخلق ، وواهب الرزق ، وصاحب الأمر - ينكمش فيهم ويتضاءل ، أو يمحى ويزول ..

ولقد يضحك أهل الأرض على هؤلاء سخرية وهزءًا حينما يستغل هؤلاء نصوص الدين بعد تحريفها عن مواضعها ، استغلالًا وقحًا دنيئًا في تبرير سيئاتهم ، وتسويغ منكراتهم ، وحينما يحاولون باقتدارهم المختلف الألوان ، تسخير بعض المنتسبين إلى الدين ، لكي يأتوهم بالفتوى المصطنعة ، أو التسويغ الديني المراد ، ومعنى هذا أنهم يريدون أن يجعلوا الدين تبعًا للهوى ، لا أن يجعلوا الهوى خاضعًا للدين ، مع أن اتباع الهوى بهذه الصورة يكون بابًا للكفران بالله .

والحق عز وجل هو الذي يقول : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] ؛ ويقول : ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٦] .

وهذا الرسول نفسه - هو المصنوع على عين ربه ، المختار لأمانته ورسالته ، المعصوم من الزلل في دينه ودعوته - لم يرضَ الله له أن يكون متبعًا للهوى ، أو خاضعًا لهواتفه ، فقال عنه ربه : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ١ - ٤] .

ترون أعداء الدين يقولون مثلًا : (ليس في الإسلام رجال دين) ، وهذه كلمة حق في ظاهرها ، يراد بها باطل خطير في باطنها ، ومرماها ، فهم يريدون من وراء ذلك أن يصلوا يومًا من الأيام - وما هم ببالغيه - يقولون فيه : (ليس هناك دين) .

نعم إن الإسلام لا يعرف طائفة خاصة ، لها سلطة روحية خاصة ، أو سيطرة دينية خاصة تعرف باسم (رجال الدين) على النحو المعروف في بعض الديانات ، ولكن الدين - بنصوصه وأحكامه ، ومبادئه وتعاليمه ، وأصوله وفروعه - محتاج دائمًا إلى علماء من أهله ، يدرسون مسائله ، ويفقهون تعاليمه ، ويبيِّنون للناس أحكامه ، ويبلغون للعالمين دعوته .

وللإسلام علوم تحتاج إلى جهد وتفرغ ودراسة وتبيان ، فالتفسير والحديث والفقه والتوحيد والأصول والأخلاق والسيرة وآراء الدين في مشكلات الحياة الفردية والجماعية ، كل هذه أمور دقيقة عميقة واسعة ، تحتاج إلى صبر وعكوف ، وتحتاج إلى إعداد واستعداد ، والله سبحانه يوصينا أن نسأل في الدين من له خبرة به : ﴿ فَسْئَلُوا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، ويقول : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، ويقول : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ونحن نعيش في عصر (التخصص) ،

والناس ينادون به ، في نواحي الحياة المختلفة ، ويحاربون اعتداء أي طائفة على اختصاص طائفة أخرى .. فالأطباء مثلًا : جماعة لا يزاول عملها من لم يتخصص في الطب ، ولو باشر أحد الناس عملًا من أعمال الطبيب لتعرض للمحاكمة وناله العقاب ، وكذلك لا يجوز لغير المحامين أن يترافع في القضايا ، ولا لغير القضاة أن يفصل فيها ، ولا لغير الصيدليين أن يجهز الدواء ، ولا لغير الضباط أن يلبس ملابس الضباط ، فضلًا عن أن يباشر اختصاصهم .

فلماذا إذن لا يكون هناك متخصصون في الفتيا والدراسات الدينية ، وتبيان الأحكام الدقيقة والخطيرة للناس ؟.. وإذا لم يكن في الإسلام (رجال دين) بالمعْنى الذي ذكرنا ، فلماذا لا يكون هناك في الإسلام (علماء دين) يرجع إليهم المستفتون في أمور الدين .

هنا سيقول لك المخادعون من أعداء الله وأعداء ملته : لا لا .. إن الدين ليس احتكارًا لأحد ! .. وهنا يبيحون لكل من هب ودبَّ – من هب هبوب الذباب ، أو دب دبيب الخنفساء – ن يقول في الدين بما يشاء ، وأن يكتب وينشر ويذيع أفكارًا وفتاوى دينية ما أنزل الله بها من سلطان .

وكلما حاول غيور أن يقف في وجه هذا البلاء ثاروا ثورة الحمر الوحشية ، وتباكوا على حرية الرأي والفكر ، وهم في الواقع يريدون ألا يكون هناك من يغار على حرمات الدين أو يدافع عنها ، أو من يذكِّر الناس بكلمة الدين في شئونهم ، وأمور حياتهم الخاصة ، حتى إذا لم توجد هذه الطائفة المناهضة لباطلهم وإثمهم ، المحاربة لفسقهم وفجورهم ، المنددة بتحللهم وانحلالهم ، المذكِّرة بحقوق ربهم ، ضاع الدين بين الجميع ، كما يحلمون ويتوقعون وينتظرون ، وتقدرون فتضحك الأقدار ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَو كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢ ، ٣٣] ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨] ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَو كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٨ ، ٩] ، من أجل هذا الغرض الخطير الخبيث ترونهم يهاجمون الأزهر الشريف في كل مناسبة ، ويهونون من شأنه وشأن رسالته ، ويحملون على علمائه وأهله حملة شعواء بلا رفق أو استثناء ، ويهضمون حقوقهم ، ويتناسون جهودهم وجهادهم ، ويفترون عليهم بالباطل ، ويعوقونهم عن أداء رسالتهم بشتى الوسائل ، يريدون بذلك أن يهدموا الحصن الأخير للإسلام ، وهو الذي طاول القرون ، وعاش أكثر من ألف عام باسم الإسلام ، وحفظ لنا ميراثًا دينيًا علميًا لغويًا أدبيًا أخلاقيًا ضخمًا جليلًا .. ولو لم يكن له إلا هذا الحفظ لكفاه مفخرة .. ومع ذلك يحاربه فينا محاربون ، ويحمل عليه حاملون ، ويزيد في

بلاياه ، وأسباب عجزه وتأخره عن أداء رسالته كثيرون ...

وكذلك يصبون نار حقدهم ، وحمم ضغائنهم على الجماعات الدينية ، كأنصار السنة المحمدية التي أخذت على عاتقها تبصير المسلمين ، وإرشاد المؤمنين إلى التوحيد الخالص ، المطهر من أرجاس الشرك ، وأوضار الوثنية ، والعودة بهم إلى الينابيع الصافية ، ترشف من نميرها الفياض ، وبحارها التي لا تغيض ، رابطةً حاضر الأمة المسلمة ، بسلفها الصالح الميمون ، عملًا بمقولة إمام دار الهجرة . الإمام مالك : (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) . محذرةً شباب الأمة من التطرف المقيت ، والانحراف الساقط ، ومن البدعة المحدثة ، والخرافة المنكرة ، والعودة بالمؤمنين إلى شرع الله الحكيم .. وهي تعمل تحت سمع وبصر الدولة ، تذب عن دين الله بدع المبتدعين ، وترهات المبطلين . وغلو الغالين .

وكأن هؤلاء المفسدين الملحدين لم يكفهم أن الطوفان المدني الاجتماعي قد اكتسح في طريقه كتاتيب القرى التي كانت مبثوثة في كل ناحية لتحفيظ القرآن الكريم ، فتضاءلت وانكمشت ، وقاربت أن تودع ، وقد كان الطفل في البيت المسلم يفتح أذنيه أول ما يفتحهما على القرآن الكريم ، ويُحرِّك شفتيه أول ما يحركهما بحفظ سوره ، فالبيت المسلم حينئذٍ تتردد فيه الآيات كل صباح و (كُتَّاب الحي) يتلقف الصبيان من أول الطريق .. فجاء أعداء الدين فلفتونا عن قرآن ربنا بقصصهم الداعرة ، وكتبهم الماجنة ، وصحفهم المتحللة ، ودعواتهم الإلحادية السافرة ، وثقافتهم الرقيعة المرقعة : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

واستغل هؤلاء موضوع المرأة ، لعلمهم أن المرأة هي ذات الأثر والخطر ، وأن المثل يُقال عند كل حدث ذي بال : فتش عن المرأة .. وتعللوا أولًا : بأنها مهضومة الحقوق ، مظلومة ، فقلنا : الإسلام يُطالب بإنصافها ، وتعللوا بأن الرجل يهينها ، ويحتقرها . فقلنا : نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يكرمها ، ويرفع قدرها ، فيقول : « النساء شقائق الرجال » .

وتعللوا بأنها جاهلة يجب أن تتعلم ، فقلنا : الإسلام يوجب عليها العلم بما يجب العلم به من أمور الدين وشئون الدنيا . لقد أخذ هؤلاء الشياطين الماكرون يستغلون موضوع المرأة في خبث عميق واسع ، فغرروا بالمرأة المسكينة ودفعوا بها إلى المعاطب والمهالك ، فلم تتعلم المرأة حقًّا ، ولم تتهذب صدقًا ، عن طريقهم وبأسلوبهم إلا في القليل النادر ، ولكنها في الأعم الأغلب ، أطلقت ساقيها للريح - إلا من عصم الله - فتعرَّت المرأة باسم دعوة الحرية وتجردت ، ورقصت ودخَّنت ، وسكرت وعربدت ، وتناولت المخدرات ، وخادنت ، وتاجرت بجسمها وخانت ، وأسرفت في تحررها وتبجحت ، وشاركها في أغلب ذلك أمثالها من

المتحللين من الرجال .. فلم يثق بها الرجل ، ولم يسعد بها البيت ، ولم يصلح بها المجتمع ، ولم تسعِد المرأة بذلك نفسها ، بل شقيت جزاء ما أسرفت ، ولم يكن هذا الاستغلال للمرأة من أعداء الدين إلا نوعًا خبيثًا من الهدم لتعاليم ذلك الدين ونظمه ، لأن المرأة المتهدمة الأخلاق والفضيلة ، هي ألعوبة الشيطان الخطيرة .

لقد أراد الإسلام المرأة أُمًّا ، فجعلها هؤلاء لاهية لاعبة ، وأرادها زوجة حليلة ، فجعلوها عشيقة خديمة ، وأرادها ذات عفة وفضيلة ، فحرضوها على الإثم ، ودفعوها إلى المنكر والرذيلة ، وأرادها عليمة ، فجعلوها نصف متعلمة أو نصف جاهلة ، وأرادها شقيقة للرجل ، وشريكة له ، فجعلوها مزاحمة منافسة ، وأرادها لعرشها في البيت والأسرة ، فأخرجوها من مملكتها إلى زحمة الأسواق ، ومباءات الفساد ، وأرادها مصلية ، فجعلوها راقصة ، وأرادها ذاكرة تالية ، فجعلوها عربيدة منطلقة ، وأرادها محتشمة متوقرة ، فجعلوها متجردة عارية ؟!..

ماذا يُراد بالإسلام من وراء هذه المكائد المتلاحقة ، التي تصب عليه صبًّا كقطع الليل المظلم ؟!..

وكيف تتفق هذه المحاربة السافرة للإسلام مع أن المجتمع مسلم ، يؤمن أبناؤه بدينهم ، ويقرون أن عقيدتهم أغلى شيء عندهم ، وأن من يحاربها يكون خارجًا على هذا المجتمع ، ومتمردًا في وجه نظمه الأساسية ؟

فهلا يعتبر هؤلاء المفسدون الملحدون الذين يريدون بتحللهم ، ودعواتهم الفاجرة أن يهدموا الدين ؟!

وهل آن لأهل الغيرة ، وأهل القدرة ، أن يوائموا بين هدى الله ، وبين تصرفاتنا في هذه الحياة ؟!

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

(والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل) .

السيد عبد الحليم محمد حسين

تهنئة

تزف جماعة أنصار السنة المحمدية وأسرة تحرير مجلة التوحيد أحر تهانيها وأعظم أمانيها لابنها البار الدكتور / محمد محمد أحمد علي ملاقي من الملايقة والذي يعمل بمعهد الأبحاث البيطرية بالزقازيق لحصوله على درجة الدكتوراة في علم الأدوية (الفارماكولوجيا) .

والله نسأل أن يوفقه في حياته العلمية والعملية .

قواعد الإصلاح الاجتماعي

باب الأدب

فضيلة الشيخ/ السيد عبد الحليم
ماجستير في الادب العربي

قرر الإسلام أن المجتمع الإنساني لا يصلح إلا إذا اجتمعت فيه أمور ستة :

الأول : دين متبع :

لأن الدين هو الذي يصون النفس عن ميولها ، ويصرفها عن إرادتها السيئة ، ويحتجزها عن نزعاتها الخبيثة ، ويقهر السرائر ، ويزجر الضمائر ، وهو الرقيب على النفوس في خلواتها ، والناصح لها ، في ملماتها .

قال بعض الحكماء : الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسية ، فأدب الشريعة : ما أدى الفرض ، وأدب السياسة : ما عمَّر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ؛ لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض فقد ظلم نفسه وغيره .

قال سعيد بن حميد : (ما صحة أبداننا نافعة حتى يصح الدين والخلق) .

الثاني : حكومة راشدة :

ذلك بأن الحكومة برهبتها تتألف الأهواء المختلفة ، وبهيبتها تجتمع القلوب المتفرقة ، ومن خوفها تنقمع النفوسُ المتعادية ؛ لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه ، والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي ، ورادع تنفيذي ..، وأنواع الرادع : العقل الزاجر ، والدين الحاجز ، والحكم الرادع ، والعجز الصاد ..، ورهبة الحاكم أبلغ هذه الروادع ، وأشدها زجرًا ، وأقواها ردْعًا ، (إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن) ، وقد قيل : (الحاكم في نفسه إمام متبوع ، وفي سيرته دين مشروع ، فإن ظلم لم يعدل أحد في الحكم ، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم) .

الحاكم : هو الذي يحرس الدين ، ويحث على العمل به من غير إهمال له ، ويدفع الأهواء عنه ، ويحفظه من التبديل فيه ، والتأويل له ، ويزجر من شذ عنه بارتداد ، أو بغى عليه بعناد ، أو سعى فيه بفساد ، وهو الذي يذب عن الأمة عدُوًّا في دينها ، أو معتديًا على أموالها ، وأرضها ونفسها ، وهو الذي يعمر البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سبلها

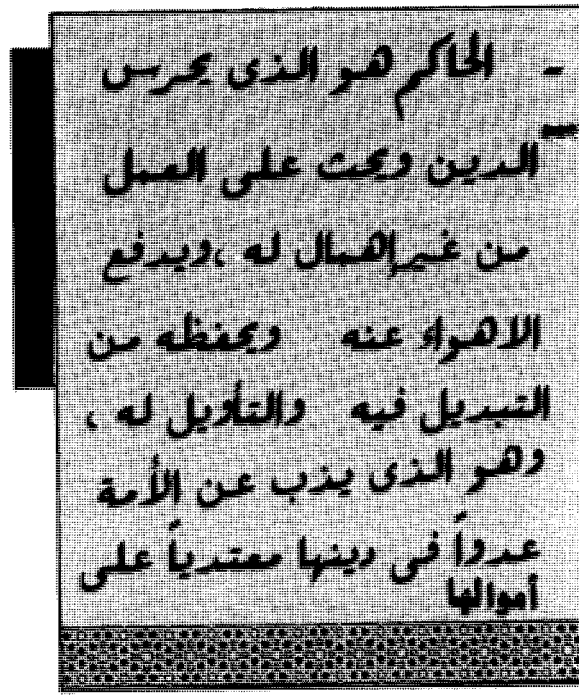

> - الحاكم هو الذي يحرس الدين ويحث على العمل من غير إهمال له ، ويدفع الأهواء عنه ويحفظه من التبديل فيه والتأويل له ، وهو الذي يذب عن الأمة عدواً في دينها معتدياً على أموالها

ومسالكها ، وهو الذي يجري في أموالها جباية وإنفاقًا على سنن الشريعة العادلة ، وهو الذي ينظر في مظالم أهلها ، ويسوي في الحكومة بينهم ويعتمد النَّصَفَة في فصل أحكامهم . وهو الذي يقيم الحدود على مستحقيها ، من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير عنها ، وهو الذي يختار أعوانه من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها .. فمن قام بهذه الشئون فهو مستوجب لطاعة رعيته ومناصحتهم ، مستحق لصدق ميلهم ومحبتهم ، ومن قصَّر عنها ، ولم يقم بحقها ، كان بها مؤاخذًا ، وعليها معاقبًا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفرص لإظهارها ويتوقعون الدوائر لإعلانها .. ، فالحاكم إذا كان ذا خير أحبَّ رعيته وأحبوه ، وإذا كان ذا شر أبغض رعيته وأبغضوه . كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص يقول : (إن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا حببه إلى خلقه ، فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس) .

الثالث : عدل شامل :

لأنه أسُّ الملك وقوامه ، وعدته ونظامه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ [النحل : ٩٠] ، ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : ٨] ، فالعدل : يدعو إلى الطاعة ، ويبعث على الألفة ، ويستوجب المودة ، وتعمر به البلاد ، وتُنمى به الأموال ، وليس شيء أسرع في خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ؛ لأنه لا يقف عند حد ، ولا ينتهي إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل .

قال بعض الحكماء : إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، فلا تخالفه في ميزانه ، ولا تعارضه في سلطانه ، واستعن على العدل بخلتين : قلة الطمع ، وكثرة الورع .

ضروب العدل

للعدل ضروب شتى منها :

١- عدل الإنسان في نفسه ، وذلك بحملها على المصالح ، وكفها عن الفضائح ، ثم الوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين : من تجاوز ، أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم ، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أبلغ جورًا .

قال بعض الحكماء : من توانى في نفسه ضاع .

٢- عدل الإنسان فيمن دونه ؛ كالحاكم في رعيته ، والرئيس مع مرءوسيه ، وعدله فيهم يتحقق بأمور أربعة : اتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك

التسلط بالقوّة . وابتغاء الحق في السيرة ، لأن اتباع الميسور أدوم . وحذف المعسور أسلم . وترك التسلط أوجب للمحبة . وابتغاء الحق أبعث على النصرة . ومن لم تجتمع له هذه الأمور من الحكام أو الرءوساء ، كان الفساد بنظره أكثر . والاختلاف بتدبيره أظهر . ولنعلم أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه ، فجار في حكمه . وقد قيل : أقربُ الأشياء صَرْعةُ الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم . وإذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته ولقد عُوتب (أنوشيروان) على ترك عقاب المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا لم نداوهم بالعفو عنهم ، فمن لهم ؟!

٣- عدل الإنسان مع من فوقه . كعدل المحكومين مع الحكام ، والمرءوسين مع الرءوساء : وقوام ذلك : إخلاص الطاعة ، وبذلك النصرة ، وصدق الولاء ؛ فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل ، وبذل النُصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن ؟ ومن لم تتم له هذه الأمور من المرءوسين ، تسلط عليه من كان يدافع عنه ، واضطُرَّ إلى اتقاء من كان يقيه . وفي هذا يقول البحتري :

متى أحرجت ذا كرم ، تخطى
إليك ببعض أخلاق اللئام

وقيل : إن الله لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه ، وحقه شكر النعمة ، ونصح الأمة ، وحسن الصنيعة ، ولزوم الشريعة .

٤- عدل الإنسان مع إخوانه ونظرائه : وآية ذلك : ترك الاستطالة[1] ، واجتناب الإدلال[2] ، وكف الأذى .

فترك الاستطالة أدعى إلى الألفة ، ومجانبة الإدلال أبقى للعطف والرحمة ، وترك الأذى مروءة ونصَفة .

جاء في الأثر : « ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « منْ نَزَل وحده ، ومنع رِفدَهُ[3] ، وجلد عبده » . ثم قال : « أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « من لا يُرجى خيره ولا يُؤمن شرُّه » ، ثم قال : « أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « من يُبْغِضِ الناس ويُبْغِضُونه » .

وقد أبان بعض الحكماء قُبح الظلم في صوره المختلفة ، ومعانيه المتغايرة . فقال : (الحاكم السوء يُخيف البريء ، ويصنع الدنيء ، والبلد السوء يجمع السَّفل ، ويُورث العلل ، والولد السوء يُشين السلف ، ويهدم الشرف ، والجار السوء يُفشي السرَّ ، ويهتك الستر ، فما انفع العدل ! وما أضر الجور !

الرابع : الأمن العام :

في ظل الأمن العام تطمئن النفوس ، وإليه تهش السرائر ، وتطمئن الخواطر ، وتنبعث الهمم ، ويسكن البريء ، ويأنس الضعيف ، فلا راحة للخائف ، ولا طمأنينة للوجل ، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجزهم عن تصرفهم ، ويحول بينهم وبين المواد التي بها قوام أودهم ، وانتظام حالهم ..

والخوف ضروب ، فمنه : الخوف على النفس ، والخوف على الأهل ، والخوف على المال ، وقد يستوعب جميع الأحوال ، ولكل من ضروبه حظ من الوهن ، ونصيب من الحزن .

الخامس : توفير أسباب اليسر :

فيه تتَّسع النفوس في مختلف أحوالها ، ويشترك ذو الإكثار والإقلال ، فيقل في الناس التغابن ، وينتفي عنهم تباغض الفقر ، وتجنح النفوس إلى التوسع ، وتكثر المؤاساة والتواصل ، ويطَّردُ نموُّ التعامُل فتفشُو الأمانة ، ويكثر

السخاء ، ويستفيض الخير في الناس ..

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : (لا تستقضينَّ إلا ذا حسب أو مال ، فإن ذا الحسب يخاف العواقب ، وذا المال لا يرغب في مال غيره) . فلا يتسنى لمصلح أن يتم إصلاحه في أمة ، إلا إذا وفَّر لها أسباب الثراء ، ودرأ عنها دواعي الضيق والحرج والفقر ؛ لأن صلاح الأمة من قواعد صلاحها ودواعي استقامتها وفلاحها ، وفوزها فيما تحاول ، واطراد نجاحها فيما تقصد .

السادس : غرس الآمال في نفوس الناس :

إن الأمل الفسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ، ويدعو إلى اقتناء ما ليس يؤمَّل في دركه بحياة أربابه ، ولولا أن الخلف ينتفع بما أنشأ السلف ، حتى يصير به مستغنيًا ، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه ؛ من منازل السكنى ، وأرض الحرث ، ومرافق الحياة ....، الأمل الفسيح هو الذي حدا الخلق إلى عمارة الدنيا ، وإتمام إصلاحها ، فأصبحت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن ، فيتم الثاني ما بدأه الأول من عمارتها ، ويرم الثالث ما تركه الثاني من شعثها . لتكون أحوالها على كسر العصور ملتئمة ، وأمورها على مرِّ الدهور منتظمة . ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ، ولا تعدَّى ضرورة وقته ، ولكانت تنتقل إلى مَنْ بعد خرابًا لا يُدرك منها حاجَة ، ثم تنتقل إلى مَنْ بعدَ بأسوأ من ذلك حالًا ، حتى لا يُنَمَّى بها نبت ، ولا يمكن فيها لبث .

وللنفوس – وإن كانت على وجل
من المنية – آمال تقويها
فالصبرُ يبسُطُها ، والدهرُ يقبضُها
والنَّفْسُ تَنْشُرُها ، والموت يطويها

هذه هي القواعد التي تصلح بها أحوال الأمم ، وتنتظم جملة أمورها ، وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها .

الشريعة المحمدية

ولا غرو : فقد جاء محمد ﷺ بشريعة أحاطت بجميع ما يكفل خير البشر .. لهذا ظلت شريعته وستظل محفوظة الموارد ، مطردة القواعد : لا تختل منها قاعدة ، ولا يطل منها حكم ، ولو كانت من وضع البشر لاختلت ، وفسد نظامها ، كما تختل نظم البشر على اختلاف العصور ، وتعاقُب الأجيال .

فلقد اشتمل الدين الإسلامي على ما يلي :

١- أحاط بكل حكمة باهرة

واحتوى كل خصلة حميدة ، وكفل انتظام حال البشر ، وصلاح أحوالهم ، وطهارة نفوسهم ، وعمارة ديارهم ، وكف أشرارهم ، وجاءهم بعقائد – فضلًا عن سلامتها عن كل خرافة وَدَنيَّة – تحث الآخذين بها على التكمل .

٢-يأمر باتقاء كل مضر للإنسان

في دينه ودنياه ، والإخلاص في العمل لله ، والبر بالناس ، والإحسان في العمل ، والنصيحة لخلق الله ، والصبر على الشدائد ، ومقاومة الأهوال ، والآلام ، والرضا بما يرضي الله ، وكظم الغيظ عند الغضب ، وترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها ، ما لم تكن حدًّا من حدود الله ، ويأمر بالاغتباط بعمل الخير ، وبالسخاء ، والكرم ، والشجاعة ، والمحافظة على الحرم والدين ، والثبات عند المخاوف ، وبالرغبة الصادقة في الأناة بقدر ما يمكن ، وبالتؤدة في التوجه نحو المطالب ، وبالتأني في الخصومات والحروب ، ويُحسن الانقياد بما يؤدي إلى الجميل ، وبمحبة ما يكمل النفس ، وبالحكمة والشكر ، والخوف من الله ، والرجاء فيه ،

وباتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش ، وبالوفاء ، والرحمة بخلق الله ، وبالإصلاح بين عباده ، وبالأمانة ، وإنجاز الوعد في أمر الدين ، وبالأنس في الله ، والشوق إليه ، وبملازمة الأعمال الجميلة ، والحرص على ما يوجب الذكر الجميل ، وبالتحرج عن أي أذى يلحق الغير ، وباكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم ، وإنفاقه في المصارف الحميدة ، وتحرير النفس من ربقة الشهوات ، ومحاسبتها ، ومعاتبتها على ما تقع فيه من الموبقات .. إلى ما شئت من المكارم والمراحم .

٣- نهى عن الشرك بالله ، والإضرار بالناس ، والفسق ، وعصيانه في أوامره ونواهيه ، وعن اتباع الهوى والرياء ، وعن الكبر ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، والشماتة ، والتَّهور ، وعن الطِّيَرة ، والتشاؤم الذي لا سند له من الشرع ، وعن البخل ، والشح ، والإسراف ، وعن الكسل ، والبطالة ، والعجلة في الأمور ، وعن الفظاظة وغلظة القلب ، والوقاحة ، وقلة الحياء ، وعن الجزع ، وكفران النعم ، وعن السَّخط والغضب ، وعن الضعف في أمور الدين ، وعن الطيش والخفة ، وعن العناد والمكابرة في الحق ، وعن الشره والطمع ، وعن الحمية لغير دين الله تعالى ، وعن القنوط من رحمة الله ، وعن محبة الظلمة والفسقة ، وعن النميمة ، وإفشاء السر ، والسخرية والاستهزاء بالناس ، واستصغارهم ، وعن اللعن والسبِّ ، والتنابز[٤] ، واللمز[٥] ، والتعيير ، والمراء ، وعن الخوض في الباطل ، والمسألة لغير مضطر ، وعن الشفاعة السيئة ، والأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف ، وعن البحث في عيوب الناس ، والدعاء للظالم بالبقاء ، وعن كتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، وتعمد الكذب على الله وعلى رسوله ، وعن المنِّ بالصدقة ، وكفران نعمة الخلق المؤدي إلى كفران نعمة الخالق ، والاستطالة في الأعراض ، وذكر الناس بما يكرهون في أنفسهم أو فيمن ينتسب إليهم ، وعن نقض العهد ، وخلف الوعد ، والخيانة ، والمكر ، والخديعة ، والفتنة ، وعن شرب المسكرات المذهبة للعقل ، وعن إنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وبجس الكيل ، أو الوزن ، وعن النجش[٦] ، وإنفاق المال في المحرمات ، وإيذاء الجار ، وعن عقوق الوالدين ، وعن السرقة والغصب والرياء ، وعن التدابر والتشاحن ، وعن أخذ الرشوة من مُحِقٍّ أو مبطل ، ولو كانت في صورة هدية ، وعن خذلان المظلوم مع القدرة على نصرته .. إلى غير ذلك مما يضر بالمجتمع ، أو النفس ، أو المال ، أو العقل ، أو الدين ، أو العرض .

٤- سنَّ أحكام الزوجية على أكمل نظام : وأحفظه لحقوق كل من الزوجين عند الاجتماع ، وعند إرادة الافتراق ، وأباح لهما الفرقة ، تفاديًا مما عساه لواحد منهما أو لهما إن منعا منه ، وجعل سلطة الفراق بيد الرجل ، لأنه هو المكلف بالإنفاق عليها ، فلا يرضى بفرقتها وضياع ما أنفق إلا إذا اضطرَّ غاية الاضطرار . وفرض على الرجل النفقة ، لأنه أقدر بطبيعته على الكسب ، وعلى احتمال المشاقّ ، وركوب متن الأهوال ، واستحسن للمرأة القيام بمصالح البيت الداخلية ، وتربية الأولاد ، ولذلك أمرها بالحجاب صونًا لها ، ومحافظة عليها ؛ كما يُحافَظ على الشيء النفيس الذي يُضَنُّ به على الأنظار ، ومتى ألفت المرأة الحجاب ، وجدته محبوبًا ، لا حبس فيه ولا تضييق ، ولا يمنعها من زيارة أهلها ، وأرحامها ، وغشيان أماكن العلم لتتعلم ما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها .

هذا هو الدين الذي كان صاحبه - عليه الصلاة والسلام - واحدًا وحدة الحق الذي يدعو إليه ، فريدًا لا عون له من الناس

ولم يكن صاحب سلطان ، ولا متمكنًا بعصبية عشيرة قادرة ، بل إنه عند قيامه بتلك الدعوة بين جماهير الأمم ، كان من عشيرته أول من كذبه في دعواه ، وعاداه أشد المعاداة ، وسلط عليه أشرارها بالأذى وتسفيه الرأي .. ومع ذلك ظل صابرًا على أذى من آذاه : يدعو الخلق إلى الحق ، ويقيم لهم الأدلة ، ويوضح لهم محاسن هذا الدين ، ويوضح لهم معايب ما هم عليه . حتى وضح الحق لمن أراد الله هدايته ، فأخذت العقول السليمة تقبل دينه ، وتستحسن شريعته ، وهو حينئذٍ لم يَسُلَّ سيفًا ، ولم يأمر بإراقة قطرة من دم أحد .

بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، فلم يقم بالسيف كما يرجُف المرجفون .

ولا أدل على إنسانية هذا الدين وصلاحيته لقيادة البشر ، من سماحته حين جاء ووجد الرق منتشرًا بين الأمم ، والرقيق يعاني أنواع الظلم والقسوة ، فصرخ في وجه الأحرار محذرًا وناهيًا أشد النهي عن إيذاء العبيد الأرقاء ، وتوعد من يؤذيهم بالعقاب الأخروي ، ورغب في تحريرهم بحصول الثواب الجزيل ، وشرع وسائل كثيرة تكفل تحريرهم ، وتقصير مدة الاسترقاق ، وكفل مساواة معيشتهم بمعيشة أسيادهم .

وقصارى القول : إن الباحثين مهما يطل استقصاؤهم محاسن هذا الدين وفضله على بني الإنسان في معاشهم ، وأنه أرسى قواعد الإصلاح الشامل للفرد والمجتمع ، لا يجدون إلى ذلك سبيلًا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

---

(١) الاستطالة : التطول والامتنان .
(٢) الإدلال : مجاوزة الحد في التدني .
(٣) رفده : معونته .
(٤) التنابز : التعاير بالألقاب .
(٥) اللمز : عيب الناس في وجوههم .
(٦) النجش : أن تزيد في الثمن لتوقع غيرك .

وعَنْ عائشةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقولَ فِي رُكوعِهِ وَسُجُودِهِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي » متفقٌ عليهِ .

وعَنها أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجودِهِ : « سُبُوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكَةِ وَالرُّوحِ » رواه مسلم .

وَعَن ابنِ عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهما أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ : « فَأَمَّا الرُّكوعُ فَعَظِّموا فيه الرَّبَّ ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا في الدعاء ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُم » رواه مسلم .

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « أَقربُ مَا يَكونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ؛ فَأَكثِرُوا الدُّعَاءَ » رواهُ مسلم .

أمُ سُلَيم الرُمَيصاء

فضيلة الشيخ
السيد عبد الحليم محمد حسين

١- **بيتها .. ونسبها :** أنصارية خزرجية ، نجارية ، اختلفوا في اسمها ولكنها اشتهرت بالرميصاء وعرفت بكنيتها : أم سُليم بنت سلمان النجاري ، لها برسول الله - بعد صلة الإسلام - صلة القرابة ، فقد كان بنو النجار أخوال أبيه ..

وهي غصن ناضر من شجرة طيبة المنبت ، نامية الفروع ، مباركة الثمار ، فأخوها : حرام بن سلمان أحد القراء السبعين الذين غدر بهم المشركون في بئر معونة ، وهو الذي وقف يُناديهم : إني رسول رسول الله إليكم ، فأتاه آت من خلفه ، وطعنه طعنة فاجرة ، فلما أحسَّ حرارة السنان في جسده قال قولته المؤمنة : فزت وربِّ الكعبة ، وأختها : أم حرام بنت سلمان ، زوج عبادة بن الصامت ، التي أخبرها الرسول عليه السلام أن من أمته أناسًا يركبون البحر مجاهدين في سبيل الله كالملوك على الأسرَّة ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : « أنت منهم » .. وحقق الله نبوءة رسوله ، واستشهدت في غزوة بحرية إلى بلاد الروم ، زمن معاوية ، وكانت في صحبة زوجها !

فهم أهل بيت ، تشابهت في الخير قلوبهم ، ذرية بعضها من بعض ..

٢- **الزوجة :** تزوجت أم سُليم في الجاهلية مالك بن النضر النجاري ، فولدت منه أنسًا ، فلما جاء الله بالإسلام أسلمت مع السابقين إليه من الأنصار . ثم قامت بواجبها كمؤمنة تبتغي نشر دعوتها ، وكزوجة تحب الخير لزوجها ، فعرضت عليه الإسلام ، فأخذته حمية الجاهلية ، وغضب عليها ، وما لبث أن تركها ، وفرَّ إلى الشام ، فهلك هناك .

وكانت أم سُليم تقول : لا أتزوج حتى يبلغ أنس ، ويجلس في المجالس .. وهذا ما جعل أنسًا يقول بعد : جزى الله أمي عني خيرًا ، لقد أحسنت ولايتي .

ثم تقدم لها أبو طلحة يخطبها ، وهو يومئذ مشرك ، وقال لها : لقد جلس أنس وتكلم ، فقالت له : يا أبا طلحة : أما إني فيك لراغبة ، وما مثلك يُردُّ ، ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، لا يجوز لي أن أتزوجك ، قال في استغراب : ماذا دهاك يا رميصاء ؟ أين أنت من الصفراء والبيضاء ؟! يريد الذهب والفضة .

قالت في ثقة ويقين : لا أريد صفراء ولا بيضاء ، فأنت امرؤ تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يغني عنك شيئًا ، أما تستحي – يا أبا طلحة – تعبد خشبة من الأرض نجَرَها لك حبش بني فلان ؟! إن أسلمت فذلك مهري ، لا أريد من الصداق غيره .

بهذه الكلمات النابضة بالقوة والإيمان ، اهتزت موازين أبي طلحة القديمة ، وتغيرت وجهته ، فلم يجد سبيلًا إلا أن يقول : من لي بالإسلام يا رميصاء ؟! قالت : لك بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاذهب إليه ... فانطلق أبو طلحة يريد الرسول ، وكان جالسًا بين أصحابه ، فلما رآه قال : « جاءكم أبو طلحة غُرَّة الإسلام بين عينيه » .. وأسلم أبو طلحة أمام النبي ، وأخبره بما قالت الرميصاء ، فزوجه إياها على ما شرطت .

إن الشأن في المرأة أن تباهي بعظم مهرها ، وما بُذل لها من درهم ودينار ، لكن أم سُليم وضعت تقليدًا جديدًا ، فأصبحت القرون من بعدها تُباهي بها ، وبعظمة موقفها ، قال ثابت البناني ؛ بعد أن روى حديث زواجها : فما بلغنا أن مهرًا كان أعظم منه ، إنها رضيت بالإسلام مهرًا ..

عاشت أم سُليم مع أبي طلحة زوجة وفية ، ودودًا ، تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، وتحفظه إذا غاب ، وزاد سعادتها أن رزقها الله بغلام صبيح ، أحبه أبو طلحة حبًا شديدًا . وكنوه : « أبا عمير » وكان النبي عليه السلام يمازحه إذا زار أم سُليم . وقد دخل عندها يومًا فوجده حزينًا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما لأبي عمير حزينًا ؟ » فقالت يا رسول الله : مات نغيره الذي كان يلعب به . « النغير طائر كالعصفور أحمر المنقار » فجعل النبي عليه السلام يقول له مازحًا : « يا أبا عمير .. ما فعل النغير » . وشاء الله . أن يمتحن الزوجين السعيدين في زينة عشهما ، وثمرة حبهما ، وفلذة كبديهما ، لتترك أم سليم للتاريخ مأثرة أخرى للمرأة المسلمة في سجل الخلود . فقد مرض الغلام ، وألحَّ عليه المرض ، وشغل به أبوه . وحزن عليه اشد الحزن ، وكان يغدو ويروح على رسول الله . فإذا عاد سأل عن الغلام . وفي إحدى روحاته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختطفت المنون الغلام الصبيح المليح . فماذا صنعت الأم ، وقد فقدت ولدها ، وقرة عينها ؟ إننا نرى بعض النساء يكدرن الأزواج والبيوت بدون مكدر ، وبعضهن يجزعن من المصيبة ، ويعشْنَ فيها قبل أن تقع ، وبعضهن يجعلن من الحادث الصغير مصيبة كبرى ، تشق عليها الجيوب ، وتلطم الخدود ، بيْد أن أم سُليم كانت طرازًا ممتازًا من بنات حواء .

لقد هيأت أمر الصبي ، فغسَّلته وكفَّنته وحنَّطته ، وسجَّت عليه ثوبًا ، ثم أرسلت أنسًا يدعو أبا طلحة ، وسأل : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ..! وظنَّ الزوج الأب أن الابن قد عُوفي . وكان صائمًا ، فقدَّمت له إفطاره ، فأفطر ، وأقبل الليل ، فتزيَّنت وتطيَّبت ، ثم تعرضت فأصاب منها ، وقضى وطره ، فلما أصبح اغتسل ، وأراد أن يخرج . فقالت : يا أبا طلحة : أرأيت لو أن قومًا أعارُوا أهل بيت عارية ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أنْ يمنعوهم ؟ قال : ليس لهم ذلك ، إن العارية مؤداة إلى أهلها ، فلما انتزعت منه هذا الجواب . قالت : إن الله أعارنا ابننا فلانًا ، ثم أخذه منَّا ، فاحتسبْه عند الله .

قال : إنا لله وإنَّا إليه راجعون . تركتني تلطخت ثم أخبَرتني بابني ؟! وذهب إلى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – فصلى معه وأخبره بما كان منهما ، فقال النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –: « بارك الله لكما في ليلتكما » ، وصعد الدعاء المحمدي ، فتفتحت له أبواب السماء ، فولد لهما من تلك الليلة عبد الله بن أبي طلحة والد إسحاق بن عبد الله الفقيه التابعي الجليل وإخوته ، وقد كانوا تسعة ، كلهم حمل عنه العلم ، وختم القرآن .

٣- **الأم** رأينا في القصة السالفة نموذجًا للأم حين تفقد ولدها ويبقى زوجها ، ونعرض الآن صورة للأم حين تفقد زوجها ويبقى ولدها .

لقد فارقها مالك بن النضر ، وترك لها أنسًا غلامًا ، فأبت أم سليم أن تتزوج حتى يشبَّ عن الطوق ، ويجلس ويتكلم ، وقد رووا أنها قالت لأنس :- حين رضيت بأبي طلحة زوجًا - قم يا أنس فزوِّج أبا طلحة فكان وليها في عقدها ..!

إننا إذا ذكرنا فضل أنس بن مالك الذي صحب رسول الله ، وخدمه عشر سنين ، وسجَّل لنا من حياته وأقواله وأعماله وأخلاقه الكثير - وعاش قرابة قرن من الزمان يروي ويُفتي ، ويعلِّم ويربِّي ، فلنذكر صاحبة الفضل على أنس ، وهي أمه التي عرفت أين تضعه . وكيف تختار له المدرسة والمعلم ؟ فكانت المدرسة بيت النبوَّة ، وكان المعلم محمَّدًا رسول الله !!

قال أنس : قدم النبي المدينة وأنا ابن عشر سنين ، فأخذت أمي بيدي ، فانطلقت بي إلى رسول الله ، فقالت : يا رسول الله : إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا قد أتحفك بتحفة ، وإني لا أقدر على ما أتحفك به ، إلا ابني هذا ، فخذه فليخدمك ما بدا لك . فخدمت النبي عشر سنين ، فما ضربني ضربة ، ولا سبني سبة ، ولا انتهرني ، ولا عبس في وجهي ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ .

وكانت تمدُّه بتوجيهها السديد في مصاحبة رسول الله ، رأته مرة في الطريق ، فقالت : إلى أين يا أنس ؟ فقال : في سر رسول الله ، فأوصته هذه الوصية الجليلة : احفظ على رسول الله سرَّه .

وأحبت أن تغمر ابنها بكل ما تستطيع من بركة الرسول الكريم . قالت مرة : يا رسول الله : خادمك أنس ، ادع الله له ، فقال : « اللهم أكثر ماله ، وولده ، وبارك له فيما أعطيته » ، فكان أنس أكثر الأنصار في البصرة مالًا ، وعاش حتى رأى من ذرِّيته أكثر من مائة نسمة ..!

٤- **المسلمة** : أسلمت أم سليم عن بصيرة نيِّرة ، وعرفت مهمتها من أول يوم ، فعرضت الإسلام على زوجها الأول فأبى وفارقها ، ودعت أبا طلحة - حين خطبها - إلى الإسلام ، فأسلم وتزوجها ، وكانت أثيرة عند رسول الله ، لعمق إيمانها ، وجلال مواقفها ، وقوة شخصيتها ، فكان يزورها ويكرمها ، ويقيل عندها ، وعند أختها أم حرام ، إذْ كانتا في دار واحدة ، وكأنه بذلك يعزيهما عن موت شقيقهما - حرام - في بئر معونة شهيدًا في سبيل الله .

وكانت شديدة الحب لرسول الله . حدَّث أنس قال : أتانا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال عندنا (نام القيلولة) فعرق ، فجاءت أم سليم بقارورة ، فسلت فيها العرق ، فاستيقظ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : « يا أم سليم : ما الذي تصنعين ؟ » قالت : هذا عرقك ، نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الريح .

وكانت تغزو مع النبيِّ في فريق من النساء المؤمنات ، يقمن ببعض الخدمات للجيش ، فيسقين القوم ، ويُسعفْن الجرحى ، وينقلْن القتلى ، ويقمْن على الزمنَى ، فإذا دعا الموقف في موقعة من المواقع إلى حمل السلاح ، تحوَّل الغزال أسدًا ، ووقفت المرأة إلى جنب الرجل ، تصدُّ بسلاحها أعداء الله !..

تلك هي أم سليم .. نموذج كريم للزوجة المثالية الصالحة ، والأم الفاضلة .. ومثل رفيع للمرأة المسلمة .. في عقلها الناضج .. وعاطفتها المتزنة .. وإرادتها القوية .. وإيمانها العميق .. وتضحياتها النبيلة ، وخلقها الجم ، وسمتها الحميد ، وهدوئها الفريد .

السيد عبد الحليم محمد حسين

النجاح الخلقي والاجتماعي لرسول الإنسانية

د. السيد عبد الحليم

١- أشرق نور المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حين استحكمت الضلالة في النفوس، وتغلغلت الغواية في الرءوس، وتناهت الفتنة، وتفاقمت المحنة، وكذلك الرسل يولدون عند عموم الجهالة، ويبعثون عند طموس الضلالة - فبعثه الله للناس جميعًا، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم صراطًا مستقيمًا، فجاهد في الله حق جهاده، مقتحمًا الشدائد، محتملًا الصعاب، سائرًا سير الحكيم، آخذًا قومه بالموعظة الحسنة، والمجادلة الرشيدة، حتى اجتاح الضلالة، وأظهر الحق بأقوى دليل، وأرشد الخلق إلى أقوم سبيل، وتم له ما أراد من نجاح اجتماعي وخلقي، ونفوذ سياسي، وفوز حربي.

فلا جرم أن تغير حال أمة كالأمة العربية، وإحياءها، وإحياء أمم الأرض بها، وقلب نظمها، وإصلاح جميع أمورها، وأحوالها، وإخراجها من الفساد، والاختلال والفوضى، برجل كمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حاله ونشأته، وفقره ويتمه وأميته، وبتلك السرعة العجيبة في ذلك الزمن القصير - لم يعهد له في تاريخ الإنسانية مثيل: فهو من أعجب العجائب، وأغرب الغرائب، بل هو معجزة التاريخ التي عقم بعدها، وبقيت وحدها ... رجل فقير يتيم أميٌّ، بعيد عن العلم والعلماء، في ناحية من الأرض، بعيدة عن كل نظام ومدنية، ناشئ من الهمجية، وبين أهل وأقارب عريقين في الجهل والكفر والوثنية، فأبدل وحده من الجهل علمًا، ومن الفساد نظامًا، ومن الكفر إيمانًا، ومن الشرك توحيدًا، ومن التشبيه تنزيهًا، ومن التفرق اتحادًا، ومن التخاذل ائتلافًا، ومن الضعف قوة، ومن الهمجية مدنية، وهو في كل ذلك الليث الهصور، والقائد المحنك، والخطيب المصقع، والبليغ المعجز، والسياسي الحاذق، والمبيء الصادق، والشارع الحكيم، والمعلم الماهر، المخبر قومه بما لم يعلموه، وما لم يلتفتوا إليه، والتقي الورع، والزاهد الناسك العابد، والمتمتع بالحلال، والمتلذذ بالطيبات، والرءوف الرحيم، والقاسي على الظالمين، ومثال الأدب والتهذيب، والرقة والجمال، والأعمال الصالحة، والإيمان الصادق الصحيح؛ والإخلاص الأكبر لأمته، ولسائر العالم كل

ذلك أنصع دليل، على أنه الإنسان الكامل، الجامع لما تجد فيه الأمم ما يضيء لها السبيل، والقدوة الحسنة في كل شيء. والمثال الصالح الوحيد في كل صفة وخلق وعمل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فلا عجب أن أحيا أمة حملت لواء العلم والعز والمجد والمدنية الصحيحة، والحرية والإخاء والمساواة إلى أمم الأرض قاطبة، مع شدة الحاجة إلى بعثته في ذلك الزمن الذي ساد فيه الاختلال والفساد، واستشرى فيه الكفر والظلم والاستبداد، وسوء الحال والجهل: فغيَّرت رسالته وجه الأرض، وقلبت نظم الأمم، في سنين قليلة، وبسرعة خارقة للعادة، مع أن دول ذلك العصر على عظمتها وقوتها، وأموالها واقتدارها، عجزت عن صبغ محكوميها بصبغتها، في الدين واللغة والجنس والأخلاق، مع بذل كل مجهودها وعلمها، وأموالها واقتدارها، في ذلك. فلم يزد الناس منها إلا نفورًا وسخطًا وبغضًا، مع مضي المدد الطويلة عليها، وتسلطها على مصادر حياة تلك الأمم، ولم تنل منها مع قوتها في السنين الكثيرة ما ناله العرب مع ضعفهم في السنين القليلة ورسول الله، لم يتم له هذا النجاح بدون عون إلهي، ومدد ربَّانيٍّ. ولم يرو التاريخ أن مصلحًا غيره قام بين البشر، وكان له مثل أثره العالمي، وبسرعة عجيبة كهذه، أو دام عمله في الأرض إلى اليوم.. فلقد خاب كل مُدَّعٍ للنبوة من بعد بعثته. وظلَّ فذًّا في جميع أعماله دون سائر البشر.. كما آتاه الله من القدرة العجيبة، والسلطان السريع، والتأثير المدهش في أمم الأرض قاطبة إلى قيام الساعة.

فكان عمله في قلب الأمة العربية، وبعثها من الموت إلى الحياة، أبلغ من قلب العصا حية، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، لأن إخراج الأمم من الظلمات إلى النور، وإماتة الجهل وإحياء العرفان، ومخاطبة العقل السليم: كل ذلك أليق بمقام النبوة، وأقوى في إثبات الدعوة: قال (سير وليم موير) في كتابه «سيرة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم»: «امتاز محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب: فلم يشهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير - كما فعل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم».

لبثت مكة خاصة، والبلاد العربية عامة، دهورًا وأحقابًا، غارقة في الجهالة، ممعنة في الضلالة، فلم يكن لليهودية والمسيحية من أثر في العرب وأحوالهم الاجتماعية والخلقية، إلا بمقدار ما يؤثر حجر، يُلقى في ماء كدر، لا يعدو أثره وجه الماء، ولا يبلغ أعماقه.

كان العرب سابحين في ديجور من الرذيلة، وضروب من القسوة: إذ كان الولد الأكبر يرث أباه في زوجته: وبلغت الأنفة والغيرة عندهم حدًّا جعلتهم يئدون البنات، وعكفوا على الأصنام، وعبدوا الأوثان، ولم يفقهوا معنى للحياة الأخرى، وما فيها من ثواب وعقاب، فلما جاء النبي، أمكنه في خلال ثلاث وعشرين سنة، أن يطهر مكة وغيرها من البلاد العربية، مما كان فيها من الأرجاس والقبائح، ثم اتبعته طائفة قد هجروا عبادة الأصنام. ودانوا لله بالطاعة وصدَّقوا الرسول، وآمنوا بما أنزل إليه، فاستقرت في قلوبهم خشية الله وتطلعوا إلى عفوه وفضله، وتسابقوا في عمل البر، وتنافسوا في نصر الفضيلة، ونشر لواء العدل. وبان لهم أن الله على كل شيء قدير، وأن العناية الصمدانية تحوطهم وترعاهم، ماداموا على ثباتهم، وأن الله مطلع على أحوالهم وشئونهم، وسرهم وعلانيتهم، وأن ما في الكون من نعمة، أو آية مصدرها الخلاق الوهاب، وأن الأمور صغيرها وكبيرها بيده يصرفها كيف يشاء، وأن ما جاءهم من الدين

الجديد، فضل أفاض الله به عليهم، وقد وجب عليهم أن يدافعوا عن بيضته، ويحرسوا حماه، وظهر لهم أن محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم - هو بشير السعادة، وأنه معقد آمالهم، ومنقذهم من أحوالهم، وأوحالهم، فلذلك انقادوا له بالطاعة.

لا جرم أن مكة في زمن قصير قد انشطرت شطرين: الكفار. والمؤمنون.. فأما الكفار: فقد ظل معظمهم على عناده، حتى تم للنبي الكريم النصر والفتح المبين. وأما المؤمنون على قلتهم - فقد احتملوا صنوف الأذى، وعانوا آلام التعذيب، ولم يزدهم ذلك إلا حبًا لمحمد ودينه، وقد بلغ من أمر حبهم إياه. أنهم جحدوا معتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم، وكان ذلك أنفس الأشياء لديهم - ثم هجروا أوطانهم إلى بلاد الحبشة - ثم إلى المدينة، ومنهم من هاجر من مكة إلى المدينة لما اشتد عليهم أذى قريش، تاركين مدينتهم المحبوبة، وفيها البيت المحرم، وهي أحب أرض الله إليهم، وتم الإخاء بين المهاجرين والأنصار، واستعدت نفوس الجميع للدفاع عن العقيدة، ووهبوا دماءهم لإعلاء كلمة الله.

كان من أثر محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن العرب الذين كانوا بالأمس عاكفين على شن الغارات، وسفك الدماء لأوهى الأسباب، أصبحوا وقد توثقت بينهم أواصر الأخوة، وأشربوا في قلوبهم أن يعمل كل لخير أخيه، ولا يستأثر بشيء دونه، بل طلب الأنصارُ من المهاجرين أن يشركوهم في أموالهم، والمال أحب شيء إلى الإنسان بعد النفس والولد. هذَّب الأمة العربية التي ضرب بها المثل في الجهل قبل الإسلام، حتى أصبحت منار العلم والعرفان للعالم، وفي ذلك يقول (كارليل): «قوم يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدَّة قرون، فلما جاءهم النبي العربي، أصبحوا قبلة الأنظار، في العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزُّوا بعد الذِّلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم، وعلومهم».

هؤلاء العرب الذين غمطوا المرأة جميع حقوقها، وأنزلوها عن مرتبتها الطبيعية - أصبحوا بعد الإسلام، هداة الأمم في تقدير حقها، وصاروا مثلًا صالحًا للاستقامة والتقوى، محافظين على حدود الله، وأحكامه، مؤتمرين بأوامره، مجتنبين نواهيه، قوم كانت بواعثهم للعمل صغيرة مرذولة، فلما أتاهم الإسلام عظمت بواعثهم، وشرفت مقاصدهم، وحبب إليهم عمل البر، ومناصرة العدل، ونشر لواء المحبة. حقًا إنه لعجيب أن يتم هذا التحول في سنين قليلة كأن ملائكة السماء هبطوا إلى الأرض، فنفثوا في نفوس العرب روح الصفاء والوئام، وأماتوا فيهم دواعي الانتقام، واستأصلوا عبادة الأصنام، والشغف بالقُمار والخمار، وما إلى ذلك من القبائح والمناكير... دع عنك أن تعدد الزوجات قد نظم، والربى أخذ يختفي، وحل العمل محل البطالة، وكان رسول الله مثل الرعد القاصف، قضى على الشرور التي رسخت في العصور السابقة، فأيقظ الناس من سباتهم العميق، ثم رفعهم إلى ذروة الحضارة.. ألم تر أن الأمة التي كانت تعبد الأحجار والحيوان والنبات أصبحت أمة موحدة لها يقين ثابت، وعقل راجح، فأنجبت مثل عمر ابن الخطاب الذي عبد الوثن والصنم في جاهليته، والذي قال بعد إسلامه عند استلامه الحجر الأسود: «إنك لحجر، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقبلك ما قبلتك».

حقًا إن الأمم كالأطفال: ولذلك جاءهم الأنبياء بما يناسب عقولهم، ودرجة سذاجتهم، وكان البشر على الجملة في عهد البعثة المحمدية، قد خرجوا من طور الطفولة إلى سنِّ الرشد، فأصبحوا لا يناسبهم من الدلائل والبراهين، ما كان يناسبهم في القرون الأولى. وقلَّ فيهم تأثير المحتالين، والدجالين والسحرة

والمشعوذين، وصاروا يرجون الهداية من طريقها، فساعدهم الإسلام على ذلك، ونهج بهم منهجًا لم يسبقهُ دين، فجعل الحجج العلمية، والدلائل العقلية، رائده في جميع دعاويه، وعليها معتمده في كل مبانيه، وقلل من شأن المعجزات الحسية بقدر الإمكان، حتى لا تكون عقبة في سبيل رقي عقل الإنسان، في مستقبل الزمان، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨، ٣٩].

فإن البشر في عهد النبوة المحمدية، أخذوا يدركون قيمة المعجزات الحسية، وأنها لا علاقة بينها وبين دعوة النبوة، وأنها لا يسهل تمييزها من غيرها من أعمال السحرة والمشعوذين والصناع الماهرين، وعجائب أهل الرياضات والمجاهدات من المتصوفين وغيرهم، وأنها وإن أقنعت تلك العقول القديمة، وأرهبت تلك النفوس وهي صغيرة، وحملتها على الإيمان فإنها أصبحت لا تغني العقل فتيلًا، ولا تزيد الأمور إلا تعقيدًا، وإن الدليل إن لم يكن له من العقل أكبر نصيب فهو أضعف ضعيف... وأما من كان يطلب من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم تلك المعجزات، فما كان يريد إلا الإعنات، والتعجيز والسخرية، والاستهزاء والعناد، وإلا قلد به من البراهين والآيات ما يشفي علة النفوس، ويروي علة العقول ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وأما ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات الحسية فلم يكن يُرادُ به إلا إفحام المعاندين المستهزئين، والزيادة في تثبيت ضعفاء المهتدين.. فبعثته انقضى عصر العجائب والغرائب. لذلك كان من أجلِّ معجزاته وأكبرها هو القرآن. الذي به ختم عصر المعجزات، وتمت النبوَّات. ومنح به الشريعة العامة، والقواعد الثابتة فلم يبق بعد ذلك لمحتال، أو لمشعوذ، ولا لدجال أدنى وسيلة إلى التأثير في العقل، وخلُص العقل البشري من الأوهام والخرافات والترهات، وأصبح طريق العلم أمامه واضحًا، ومُهَيَّع الحياة صالحًا، فالغيب لله وحده لا يعلمه إلا هو، والأمور بيده سبحانه يصرفها كما يشاء، لا يُراعي فيها مجاملة أحد من عباده. فقال مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

– وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

– البقية في العدد القادم إن شاء الله

تهنئة

تزف أسرة تحرير مجلة التوحيد أحرَّ تهانيها وأعظم أمانيها إلى الأخ الدكتور/ أحمد محمود حمودة، والذي يعمل بمعهد صحة الحيوان بالزقازيق لحصوله على درجة الدكتوراه في الميكروبيولوجيا والمناعة.

والله نسأل أن يوفقه في حياته العلمية والعملية.

النجاح الخلقي والاجتماعي لرسول الإنسانية

د. السيد عبد الحليم

٢- إن نظرة فيما كانت عليه طوائف المسيحيين في القرون الأولى، تدل بأجلى بيان، وأنصع دليل على مقدار نجاح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجتماعيًا وأخلاقيًا: ذلك بأن الناس وقتئذ تضاربت عقائدهم وأفكارهم، في أصول الدين الأساسية كافة، وكثرت مذاهبهم فيها، ولم يرُقْ للناس في تلك الأزمان، لقصر عقولهم إلا الشرك والتجسيم، وعبادة الصور والتماثيل، وكلما قام فيهم موحِّد أو مصلح، حكموا بكفره ومروقه، حتى أريقت دماء، بسبب ذلك ظلمًا وعدوانًا، وانقلب دين المحبة والوفاق، إلى بغض وشقاق، وانصدع بنيان الكنيسة المسيحية من قديم الأزمان، انصداعًا نفذت منه المحن والفتن ضروبًا وأشكالاً.

١- **قام** أريوس بالتوحيد، وأقره على ذلك بعض الأساقفة والإمبراطور قسطنطين نفسه، ثم وجد له من أمم الجرمانيين أتباعًا كثيرين ولكن ميل جمهور الناس إلى الشرك والوثنية حمل أكثر أعضاء مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥م على الحكم عليه بالزندقة والمروق، وتأصلت العداوة بين أتباعه وسائر المسيحيين منذ ذلك الحين.

٢- **ولما** فشت في الناس عبادة الصور والتماثيل واشتدَّت حتى صارت جزءًا من الدين قام بعض الناس- ومنهم القياصرة كـ«ليون الثالث» فحققها، وسُمُّوا! إذْ ذاك «كاسري التماثيل» وكان ذلك في القرن الثامن والتاسع، فحكم البابا «جريجوري» الثاني ثم الثالث بحرمانهم ومروقهم، ولما اجتمع مجمع القسطنطينية سنة ٨٤٢ م كان أيضًا مضادًا لهم، وفاز فيه العابدون لها، مع نهي كتبهم عن عمل الصور، ونحت التماثيل، وعبادتها، والإشراك بالله تعالى، نهيًا صريحًا لا يقبل التأويل، فكان ذلك سببًا آخر من أسباب الشقاق بين طوائف المسيحيين.

٣- **ولما** قام لوثر بالإصلاح البروتستنتي في القرن السادس عشر، اشتعلت نار الحروب بين المسيحيين، وخُضِّبت الأرض بدماء الألوف من الأبرياء المصلحين، في مثل مذبحة اليهود بفرنسا سنة ١٥٧٢م. ومن فرقهم القديمة من عبد مريم العذراء، وكان فريق من نصارى العرب يسجدون لها من دون الله ويطلبون منها ما يشتهون، ويفزعون إليها فيما يتقون، ويرجونها لما يخافون، فنهى القرآن الشريف عن اتخاذها إلهًا مع الله: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

من ذلك نتبين حكمة تشديد الشريعة الإسلامية في النهي عن التصوير واتخاذ التماثيل، ونتبين حاجة العالم في ذلك الوقت إلى الإصلاح العظيم الذي جاء به الإسلام، والذي هو سابق لكل إصلاح عملي ناجح، فأنى لمحمد ذلك، لولا وحي الله؟ ولماذا انفرد عن العالم كله، في ذلك الوقت الذي كانت فيه الأمم غارقة في عبادة الصور والتماثيل؟ ولماذا لم يتأثر عقله بما يراه عند قومه وأهله، وأهل الكتاب، ولا سيما الذين يزعم المبشرون أنهم مصلحوه، مع أنه هو الذي جاءهم بالإصلاح قبل أن يعرفوه، ونهاهم عن عبادة الأشخاص والصور، ونعى عليهم تلك العبادة؟ فكيف اقتنع بصحة عقيدته في التوحيد، والتنزيه؟ وكيف عرف أن الحق مع هؤلاء دون أهله والأكثرين من قومه، وذلك منذ طفولته، قبل أن يكون للعقل مجال في البحث والتفكير؟ ولماذا كان محمد هو السابق

للعالم في إصلاح كل فساد في أمور الناس الاجتماعية، دينية كانت أو دنيوية، إصلاحًا عمليًا ناجحًا، فممَّن تعلم هذه الطرق العملية، الناجعة في سياسة الناس، والتأثير فيهم والاستيلاء على قلوبهم، وعقولهم، حتى صاروا في كل شيء درج مشيته، ورهن إشارته، ملك نواصي العالمين، وفاز في ذلك فوزًا مبينًا لم يسبقه إلى بعضه أحد من المصلحين والنبيين، فإذا كان «لوثر» أو غيره، يُعدُّ الآن من كبار المصلحين، فأولى ثم أولى، أن يُعدَّ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي ظهر قبله في وسط الوثنية المحضة، محاطًا بها من جميع الجهات، وأصلح جميع أمور الناس وأحوالهم، وأتى بدين الحق والتوحيد الخالص، أكبر نبي مصلح ظهر على وجه الأرض لذلك قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢، ٣]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ما كان لحكومة أن تستطيع الهيمنة على بلاد ما، دون الاستعانة بالشُّرَط - بيد أن الحكومة التي أنشأها محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد الهجرة إلى المدينة، لم تستعن في المحافظة على الأمن وحمل الناس على إطاعة الأوامر، بشيء مما تستعين به حكومات الأمم الأخرى، ومع ذلك فالجرائم كانت تختفي، ومن ارتكب إثمًا في سره أو علانيته، سارع إلى الاعتراف للمصطفى بما اقترفت يداه؛ لأن الإسلام قد جعل على كل نفس منها رقيبًا... وسرُّ ذلك أن خشية الله تمكَّنت من قلوب المسلمين، أصبح سرهم كعلانيتهم، وأصبح الجاني شرطيّ نفسه، ومن أجل ذلك صار واجب الحاكم سهلًا لينًا، فلا المتهم في حاجة إلى مدْرَه، ولا القاضي في حاجة إلى طول البحث والفحص.

قرر علماء الاجتماع أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم، أو لشعب من الشعوب، إلا إذا أفعمت القلوب حبًا للمصلح، وطاعة لأوامره، وبدهي أن المال أو القوَّة بل المعجزات - كل أولئك لا يكفي لحمل القلوب على ما يجب للمصلح من المحبة والاحترام والطاعة - وهي أمور ثلاثة، تأتي تبعًا لما تناله الأمم من التقدم الخلقي والروحي - غير أن محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لم يستعن بالمال ولا بالقوه ولا بغيرهما، بل كان ينحّي عن نفسه جميع ما من شأنه الإغراء والاستمالة. ألم تر أنه يقول بلسان القرآن: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]. ومع هذا كان أمره مطاعًا، وهو محبب إلى أصحابه، إلى حد التفدية له بأنفسهم وأموالهم وأولادهم.

كان شعار أصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم قولهم: لن نقول كما قال قوم موسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولم يكن قولهم مجاملة أو مصانعة، بل كانوا يفعلون ما يقولون، انظر إلى ما حصل في موقعة أُحد: إذْ رُميَ المصطفى فكُسِرتْ سفلى رَبَاعيته اليمنى، وجرحت شفته السفلى، وشُجَّتْ جبهتهُ، وجرحت وجنته، ولشدة غوصهما، لم يقدر أبو عبيدة على نزعهما إلّا مع نزع سنَّيه اللتين كانتا ينزع بهما، ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة، فهجم عليه العدوّ، فهرع إليه أصحابه الأوفياء، وجعلوا من جسومهم حصونًا حوله، فأحاطوا بالحفرة، ثم نصبوا صدورهم لنبال العدوّ، فأخذت تخترق أجسامهم وهم لا يبالون، وأخذوا يُصرعُون واحدًا بعد واحد، وكلمه خلا مكان واحد منهم سارع غيره إلى احتلاله، ولم ينفرد الرجال بهذه الروح الفدائية، بل أخذت النساء منها أوفر نصيب، فقد تقدمت عائشة وأم سلمة وغيرهما بالسيوف، وهجمن على العدو، وبذلك نجا النبي الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم

في أشد الأوقات محنة وحرجًا، وكان أصحاب محمد صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ممن يفخرون بأنهم عاهدوه على أن يموتوا في سبيل دينه، وبذلك تم لهم النصر المبين.

إن الروح التي نفثها محمد صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم في قومه، لم يقتصر ظهورها على مواقع القتال، بل مكنتهم من محاربة ألد الأعداء وأقواها وهي وطبائعهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة، وعقائدهم السخيفة. وسرُّ ذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم مع كثرة واجباته التي أداها على أكمل وجه - لم يُشغل عن عبادة ربّه، فقد كان يقضي نهاره في عمل متواصل، وليله في تهجد طويل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ١-٧] عكف على العبادة حتى في أيام المدينة التي كثر فيها العمل وتنوّع، وظلت حاله كذلك حتى لحق بالرفيق الأعلى، ولم تمعن السنة العاشرة من الهجرة حتى أنهالت القبائل العربية من جميع الأطراف على المصطفى صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم - للدخول في دينه، وجاءت الوفود تلو الوفود إلى مكة ثم المدينة، للإبانة عن معاضدتهم للإسلام، فنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣] وقد كان نزولها إيذانًا بكمال الوحي، وقد نزلت عليه وهو في مكة عند زيارته البيت الحرام، ومعه ألوف من أصحابه.

وقد رأى ابن عباس أن نزول هذه السورة يُشعِرُ بقرب انتقال المصطفى صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم إلى الرفيق الأعلى، وقد صدق حدسه، فلم يعش بعدها سوى ثمانين يومًا وفي اليوم التاسع من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة الموافق ٨من مارس ٦٢٢م. كان المصطفى في منًى، وحوله جمع عظيم لا يقلُّون عن مائة وأربعين ألفًا من الرجال والأطفال والنساء. وفي ذلك اليوم نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد اغتنم صلوات اللّه عليه هذه الفرصة، فخطب خطبته المشهورة - وحوله ممثلو جميع القبائل - وهي: «إن الحمد للّه، نحمده ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللّه، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله: أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير... أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوعة، وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا

وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]. وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حُرُم؛ ثلاثٌ متواليات، وواحدٌ فردٌ: ذو القَعْدَة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجَب الذي بين جُمَادَى وشعبان، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق، ألا يوطئن فرشكُم غيركم، ولا يُدْخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة: فإن فعلن. فإن الله قد أذن لكم تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئًا: أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة: فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفارًا. يضربُ بعضكم أعناق بعض: فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا: كتاب الله وأهل بيتي. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ - قالوا: نعم. قال -: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسّم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

حقًّا قد ظهر بين أمم الغرب الآن كثيرون ممن اهتدى إلى الصواب في جميع ما أتى به عليه السلام، ومنهم من أسلم ظاهرًا وباطنًا، بعد أن كانوا يعدُّونه من أكبر الكذّابين والدجّالين، لكثرة ما افتراه عليه قسيسوهم في تلك العصور المظلمة، حتى إنهم ادعوا أن لمحمد صنمًا من ذهب، يعبده المسلمون، الذين لا يعبدون إلا الله وحده، ويصلون له خمس مرات في كل يوم، ويصيحون باسمه في كل واد، وفي كل مرتفع، ويصومون له شهر رمضان في كل سنة...

لا ريب أن أدعياء النبوة الكذبة يُعرفون بأعمالهم - كما قال المسيح عليه السلام: (متا ٧: ١٦-٢٠) ولا يأتي الشرير، بالخير والإصلاح للناس أجمعين، والله تعالى لا يؤيّد الكذابين، والدجالين المضلين للناس: (راجع مزمور ١: ٦-٥ : ٦، ١٦) وقد أيّد الله محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حتى نجح في عمله هذا النجاح الباهر العجيب السريع الذي لم يعهد له مثيل في التاريخ... رجل قام باسم الله، ودعا الناس باسم الله، وقال وعمل كل شيء باسم الله، ونسب إليه تعالى كل عمل من أعماله، ولم يكذبه الله تعالى، ولم يخذله، أو يقتله، كما فعل بالكذّابين- بل ثبته وأيّده، وقوّاه ونصره، وكتب له النجاح في جميع مساعيه ومقاصده، وصدقه في كل ما أخبر به عنه، ورفع ذكره، ووضع وزره، وأعلى شأنه، حتى صار اسمه يذكر بجانب اسم الله على ألسنة الكم الهائل من البشر، في كل بقعة من الأرض، فلا يعقل أن يكون هذا من الكذّابين.

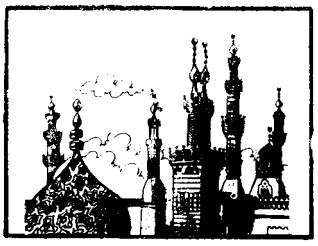

دعوة الإسلام إلى التوحيد

فضيلة الشيخ / **السيد محمد عبدالحليم**

لا ريب أن الدين الإسلامي قد جاء لبيان ما يرشد الخلق إلى معرفة اللَّه تعالى باعتداد وجوده ، واتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقصان ، فجميع الرسل الكرام من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى خاتم النبين محمد - صلوات اللَّه وسلامه عليه - قد اتفقوا على مقصد واحد وهو توحيد اللَّه تعالى ، واعتقاد اتصافه بجميع صفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقصان ، وانفراده بأن يُعبد وحده لا شريك له ، ومدار القرآن الكريم كله في العقائد إنما هو على هذا القطب : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١، ٤]، ﴿ وَمَا أُمروا إلاَّ ليعبدوا إلَهًا واحدًا﴾ ، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

حقًا لقد كان التوحيد شائعًا في بلاد العرب قبل الإسلام من عهد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - غير أنه على تمادي الدهور ، دخلت عليهم الأحداث ، وعبادة الأصنام ، فكانوا كما وصفهم اللَّه في كتابه : ﴿ وما يؤمن أكثرهم باللَّه إلا وهم مشركون ﴾ ، فجاء الإسلام ماحيًا لما كانوا عليه ، مجددًا للتوحيد على أكمل الوجوه ، وأشرف المقاصد ، ناسخًا ما كان قبله من الأحداث والتغيرات التي شابت الدين الخالص بعد الرسل .

فالإسلام هو دين الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها : ﴿ إن الدين عند اللَّه الإسلام ﴾ ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ﴾ .

فتوحيد اللَّه هو روح الدين ، وأعظم أركانه ، وأساس بنيانه ؛ لأنه سبيل الإخبات لربّ العالمين ، وهو أجلّ الصفات المكسبة للسعادة ، وقد نبه الكتاب العزيز والنبي الكريم على عظم أمره ، وكونه من أنواع البر والخير بمنزلة القلب ، إذا صلح صلح كل شيء ، وإذا فسد فسد كل شيء ، ﴿ إن اللَّه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

يشاء﴾ ، وقال – صلى الله عليه وعلى آله وسلم:– « من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة » .

ومظاهر هذا التوحيد خمسة :

● الأول : قصر وجوب الوجود عليه تعالى : فلا يكون غيره واجبًا .

● الثاني : اختصاصه بخلق السماوات والأرض وما بينهما .

● الثالث : إثبات صفاته وأسمائه تعالى وأن ذاته واحدة لا تعدد فيها مطلقًا .

● الرابع : أنه منفرد بتدبير الملك والملكوت والتصرف فيها .

● الخامس : اختصاصه بالعبادة ، فلا يتجه بها لأحد سواه .

وسائل تكوين العقيدة الصحيحة :

دعا الله في كتابه إلى التفكّر في خلق السماوات والأرض ، وتعرُّف الحكمة في خلق الموجودات ليعرفوا ما له من صفات الوجود والوحدانية وصفات الكمال ونعوت الجلال من عموم قدرته وعلمه ، وتمام حكمته ورحمته ، وإحسانه وبّره ولطفه وحلمه ، ورضاه وغضبه ، وثوابه وعقابه ، فيزدادون لوحدانيته إدراكًا ويتجهون بالعبودية له طواعية واختيارا .

فمن ذلك خلق الإنسان ، وتأمل سنن الكائنات ومقتضى الله فيهم تجد ذلك في غير موضع من الذكر الحكيم ، قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خُلق﴾ ، ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ* وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٠– ٢٥].

اشتمل القرآن الكريم على كثير من أشباه هذه الآيات التي وجّه فيها نظر الإنسان إلى التفكر في مبدأ خلقه ، ووسطه وآخره ، فهذا الخلق من أعظم الدلائل على قدرة خالقه وفاطره ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما ينقضي الأعمار في الوقوف على بعضه.

ألم تر ما اشتمل عليه جسم الإنسان من الأعصاب ، والعظام والعروق والأوتار ؟ وكيف ربطت القدرة الإلهية بعضها ببعض أقوى رباط

وأشدّه ، وأبعده عن الانحلال ؟ وكيف كُسيت العظام لحمًا، جعل وعاء لها ، وغشاء وحافظًا؟!

ثم انظر إلى الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن ، وعمادًا له، وكيف قدَّرها ربُّها وخالقها بمقادير مختلفة ، وأشكال متنوعة ؟ فمنها الدقيق ، والصغير ، والكبير ، والطويل ، والوسط ، والقصير ، والمنحنى والمستدير ، والعريض ، والمسمط والمجوف .

ثم تأمل خلق الرأس وما فيه من العظام الكثيرة ، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن ، وجعله عالية الراكب على ما يركب ، وكيف جعل فيه حواس السمع والبصر ، والشمّ والذوق واللمس ؟ وجعل حاسة البصر في مقدمه ، ليكون كالطليقة والحرس والكاشف للبدن ، وركّب كل عين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص ، ومقدار مخصوص ، ونفع مخصوص ، ولو زالت طبقة من تلك الطبقات السبع ، أو أختلت هيأتها ، لتعطلت العين عن الإبصار ، وركز البديع – جل وعلا – داخل تلك الطبقات السبع إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب ، والأرض والسماء ، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء ، فهو مالكها ، وتلك الطبقات والأعضاء ، والأهداب خدام له ، وحُجَّاب وحراس، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم تأمل صنع الله في ملكوت السماوات وعلُوّها وسَعتها واستدارتها ، وعظم خلقها ، وحسن بنائها ، وعجائب شمسها وقمرها ، وكواكبها ومقاديرها ، وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها ، فلا ذرّة فيها تخلو من حكمة وعبرة .

والقرآن المجيد مفعم بذكر السماوات والأرض وما بينهما ، ومن تتبع حكمة ترداد ذكرها وجدها : إمَّا إخبارًا عن عظمتها وسعتها ، وإمَّا إتْسامًا بها إعظامًا لها ، وإمَّا دعاءً إلى النظر فيها ، وإمَّا إرشادًا إلى العباد أن يستدلُّوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، وإمَّااستدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته ، وأنه الله الذي لا إله إلا هو ، وإمَّا استدلالاً منه بحسنها واستوائها ، وإلتئام أجزائها ، وعدم الفطور فيها، على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر ، والعجائب الفلكية ، التي تتقاصر عقول البشر عن فليلها، فكم من قَسَمٍ في القرآن بها، ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ [البروج: ١]، ﴿ والسماء والطارق﴾ [الطارق : ١]، ﴿ والسماء وما بناها ﴾، ﴿ والسماء ذات الرجع﴾، ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : ١] ، ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : ١] .

وهو سبحانه يُقْسم بمخلوقاته الدالة على ربوبيته ووحدانيته ليتعرف بها إلى عباده ، وليدركوا قدرة من أمسك السماوات مع عظمها وعظم ما

فيها ، وتجنسها من علاقة من فوقها ، ولا عمد من تحتها: ﴿ اللّه الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة هذا خلق اللّه فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ ، وكذلك : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة وإن اللّه لسميع عليم﴾؛ لقد دعا القرآن المجيد إلى الاعتبار بخلق هذا العالم ، وتناسق أوضاعه ، وتآلف أجزاؤه ، وربطها بعضها ببعض ، ونظمها على أحسن نظام ، وأدلة على كمال قدرة خالقها ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، وجعله كالبيت المبني المعدّ فيه جميع مرافقه ومصالحه ، وكل شيء يحتاج إليه ، فالسماء سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد ، وبساط وفراش ، ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يَزْهران فيه ، والنجوم مصابيح له تزينه ، وأدلّة للمتنقّل في طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه ، كالذخائر والحواصل المهيأة ، كل شيء فيه لشأنه الذي يصلح له ، ولوقته الذي يحتاج فيه إليه ، وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ، فمنها الركّوب ، ومنها الحلوب ، ومنها الغذاء ، ومنها الأمتعة والكساء ، وجعل الإنسان كالملك المخول ذلك المحكّم فيه والمتصرّف بفصله وأمره .. كل أولئك أدلة قاطعة على أن العالم مخلوق ، خلق الخالق الحكيم ، القدير العليم ، وقدّره أحسن تقدير ، ونظمه أدق نظام .

جلت حكمة اللّه في صنعه ، ألبَس الإنسانَ خُلَع الكرامة كلّها من العقل ، والعلم ، والبيان ، والنطق ، والشكل ، والصورة الحسنة ، والهيئة الشريفة ، والقَدّ المعتدل ، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر ، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة ، من البر والطاعة ، الانقياد ، وجعل العالم قرية له ، وهو رئيسها ، كل منها مشغول به ، ساعٍ في مصالحه ، وكل منها قد أتيم في خدمته وحاجاته ، والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالح ، والشمس والقمر والنجوم مسّخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته ، وإصلاح رواتب أقواته ، والعالم الجوي مسخر له ، برياحه وهوائه ، وسحابه وطيره ، والعالم الأرضي كله مسخّر له ، مخلوق لمصالحه أرضه وجباله ، وبحاره وأنهاره ، وأشجاره وثماره ، ونباته وحيوانه : ﴿ وترى الفلك مؤاخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

بهذه الآيات وأشباهها بين القرآن المجيد أن السائر في معرفة آلاء اللّه ، المتأمل لحكمته وبديع صفاته ، أطول باعًا ، وأعلا صواغًا من اللّصيق بمكانه ، المقيم في بلده ، راضيًا بعيش بني جنسه ،

لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم يقول : لي أسرة وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضَر ؟ وجهل أن نفائس البضائع ليست إلا لمن امتطى غارب الاغتراب ، وطوّف في الآفاق ، فاستلان ما استوعره المتعطلون ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون ، فقوى إيمانه ، وصحّت عقيدته ، وأقرّ إقرارًا صحيحًا بتوحيد اللّه وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وحكمته في خلقه وأمره ، المقتضية إثبات رسالة رسله ، ومجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وبأن كل ذلك مركوز في الفطرة ، وأنها لو خُلِّيَتْ على ما خلقت عليه ، لم يعرض لها ما يفسدها ، أو يحولها عن فطرتها ، ولأقرت بوحدانية اللّه ، ووجب شكره وطاعته ، وبصفاته وحكمته في أفعاله وثوابه وعقابه ، وأنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه ، أنكرت ما أنكرت ، وجحدت ما ما جحدت ، فبعث اللّه رسله مذكّرين لأصحاب الفطرة الصحيحة السليمة: ﴿فذكّر إنما أنت مذكّر﴾، فانقادوا طوْعًا واختيارًا ، ومحبة وإذعانًا ، بما جبل من شواهد ذلك في قلوبهم ، حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق ، بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها ، وهذا أعظم ما يكون من الإيمان ، وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته ، فقال جلت حكمته : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ ، وصفوة القول : أن القرآن الكريم استوى في باب إصلاح العقيدة ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم ، فكانوا على عقْلِ أعْقَلِ رجل فيهم ، ما أمكنهم أن يقترحوا شيئًا أحسن منه ، ولا أعدل ، ولا أصلح ، ولا أنفع للخليقة في معاشها ومعادها ، فهو أعظم آياته ، وأوضح بيناته ، وأظهر حججه ، على أنه اللّه الذي لا إله إلا هو ، وأنه المتصف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقصان .

وإلى اللقاء في العدد القادم.

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

دعوة الإسلام إلى التوحيد

بقلم فضيلة الشيخ

السيد عبد الحليم محمد [٢]

دلت طريقة القرآن الحكيم على أن الله أثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف ، والصدق ، والبر ، والإحسان ، والوفاء بالعهد ، والنصيحة ، وحسن الخلق ، ورحمة المسكين ، ونصر المظلوم ، ومواساة أهل الحاجة والفاقة ، وأداء الأمانات ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعفو والصفح ، والصبر في مواطن الصبر ، والبذل في مواطن البذل ، والانتقام في مواضع الانتقام ، والحلم في موضع الحلم ، والسكينة والوقار .

والرأفة، والرفق، والمودة وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد ، وستر العورات ، وإقالة العثرات ، والإيثار عند الحاجات ، وإغاثة اللهفان ، وتفريج الكربات ، والتعاون على أنواع الخير والبر ، والشجاعة ، والسماحة والبصيرة ، والثبات ، والعزيمة ، والقوة في الحق ، واللين لأهله ، والشهادة على أهل الباطل ، والغلظة عليهم ، والإصلاح بين الناس ، والسعي في إصلاح ذات البين ، وتعظيم من يستحق التعظيم ، وإهانة من يستحق الإهانة ، وإنزال الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وأخذ ما سهل عليهم ، وطوعت به نفوسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ، وإرشاد ضالهم ، وتعليم جاهلهم ، واحتمال حقوقهم ،

واستواء قريبهم وبعيدهم في الحق ، فأقربهم إليه أولاهم بالحق ، وإن كان بعيدًا ، وأبعدهم عنه أبعدهم عن الحق ، وإن كان قريبًا حبيبًا ، إلى غير ذلك من معرفة العدل الذي وضعه بينهم في المعاملات ، وما أودع في فطرتهم من حسن شكره وعبادته ، وإن نعمتهُ عليهم توجب بذل قوتهم وقدرتهم وطاقتهم في شكره ، والتقرب إليه ، وإيثاره على ما سواه .

وأثبت في الفطرة علمها بقبح أضداد ذلك ، ثم بعث رسله للأمر بها وبما أثبت في الفطرة حسنه أو كماله ، وللنهي عما أثبت فيها قبحه ونقصانه ، فطابقت الشريعة المنزّلة الفطرة المكملة مطابقة التفصيل لجملته ، وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان : (حيّ على الفلاح) ، وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلمة الجحود والنكران ، كما صدع الليل ضوءُ الصباح ، وقبل حاكم الشريعة بين شهادة العقل والفطرة : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] ، حيث العقول الكاملة الفاضلة أدركت حسنَ القرآن ، وشهدت بفضله ، وأنه ما جاء العالم دين أكمل ولا أجلّ ولا أعظم منه ، فهو نفسه الشاهد والمشهود له ، والحجة والمحتجّ له ، والدعوى والبرهان ، ولو لم يأت المصطفى – صلى اللّه عليه وآله وسلم – برهان عليه لكفى به برهانًا وآية وشاهدًا على أنه من عند اللّه كله شاهد للّه سبحانه بكمال العلم ، وكمال الحكمة ، وسعة الرحمة ، والبر والإحسان ، والإحاطة بالغيب والشهادة ، والعلم بالمبادئ والعواقب ، فهو أعظم نعم اللّه التي أنعم بها على عباده ؛ فما أنعم عليهم بنعمة أجلّ من هداهم له ، وجعلهم من أهله ، وارتضاه لهم ، وارتضاهم له : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وجلىّ أن وصف الدين الذي اختاره اللّه للعالم بالكمال ، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام ، ودليل على أن هذا الدين لا نقص فيه ، ولا عيب ولا خلل ، وأنه هو الكامل في حسنه وجلاله ، وأنه دائم متصل ، ومن أجل

ذلك كان بعض السلف الصالح يقول : (يا له من دين ! لو أن له رجالاً) ، وذلك القول الحق .. الدّين في حاجة إلى أولي البصائر النافذة ، الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين ، فكانوا منه على بينة ويقين ، ومشاهدة لحسنه وكماله ، بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم .. وهذا هو الفرقان بينهم وبين من وصفهم علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه -: بأتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

وكذلك بينهم وبين من حرموا بصيرة الإيمان جملة ، فلا يرون من آيات اللّه إلاّ الظلمات والرعد والبرق ، ولا تجاوز أنظارهم ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية .. أما الرجال الذين يرفعون شأن الإسلام ، ويعلون كلمته ، فهم أولوا البصيرة والعزيمة ، الذين أدركوا أن ربّ العالمين، أحكم الحاكمين ، والعالِم بكل شيء ، والغني عن كل شيء ، والقادر على كل شيء ، وأن من كان هذا شأنه- فحاشا- أن تخرج أفعاله وأوامره أبدًا عن الحكمة والرحمة والمصلحة ، وما يخفى على الناس من معاني حكمته في صنعه وإبداعه ، وأمره وشرعه ، يكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن فيه حكمة بالغة ، وإن لم يعرفوا تفصيلها ،

وأن ذلك من علم الغيب الذي أستأثر اللّه به؛ وحسبهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة الشاملة .

شاهد أولوا العلم والبصر سنة التبديل والتغيير والتحويل في الموجودات ، فأدركوا إمكان المعاد ، وما جاء به الرسل فيه ، وظهر لهم أن القرآن والسُّنة ، إنما دلاّ على تغيير العالم وتحويله وتبديله ، لا جعله عدمًا محضًا كما ذهب إليه الملاحدة من الفلاسفة .

لا جرم أنهما دلاّ على تبديل الأرض غير الأرض ، والسماوات غير السماوات ، وعلى تشقق السماء وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وانتشار الكواكب ، وسجْر البحار ، وعلى أن القبور تبعثر ، والجبال تسيّر ، ثم تنسف وتصير كالعهن المنفوش ، والأرض تميد ، وتدنو الشمس من رءوس العباد ، وكل هذه الأمور لا مطمع للعلم في الاعتراض عليها ، أو القدح في حصولها .

أرأيت أن القرآن يخبر بأن اللّه سبحانه يحيي العظام بعدما صارت رميمًا ، وأنه علم ما

تُنقَص الأرض من لحوم بني آدم وعظامهم ، فيردّ ذلك عند النشأة الثانية ، وأنه ينشئ تلك الأجسام بعينها بعدما بليت نشأة أخرى .. ويردُّ إليها أرواحها بنفسها ، وليس في القرآن والسنة ما يُفيد أن اللّه يُعدم الأرواح ، ثم يخلقها خلقًا جديدًا ، أو أنه يفني الأرض والسماوات ، ويجعلها عدمًا صرفًا ، ثم يُحدّد وجودهما ، وإنما تضافرت النصوص على تبديلهما وتغييرهما ، والعلم لا يجرؤ على إنكار ذلك .

لكن واحسْرتاه ! لم تُعَط النصوص حقها ، فخفيت ، وفهُم منها خلافُ مرادها ، وسلطت عليها الآراء ، فتضاعف البلاء ، وعظم الجهل ، واشتدت المحنة ، وتفاقم الخطب ، وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول صلى اللّه عليه سلم ، وبالمراد منه ، فليس للعالم أنفع من الاستماع لما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وعقْل معناه ، ففيه الخلاص والنجاة ، وأما من لم يسمعه ، ولم يعقله ، فهم الذين قال اللّه فيهم : ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ١١] .

وإلى اللقاء في العدد القادم إن شاء اللّه .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حرامٌ أم حلال

البخاري عن أبي هريرة- رضي اللّه عنه- أنه ﷺ قال: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يبالي المرء بم أخذ المال؟ أمِنْ حلال؟ أم من حرام؟».

تداووا عباد اللّه

أحمد عن أسامة بن شريك- رضي اللّه عنه- أنه ﷺ قال: «تداووا عباد اللّه. فإن اللّه- تعالى- لا يضع داء إلا وضع له دواء. غير داء واحد: الهَرَم» .

تَركُ الصلاة كفر

مسلم عن جابر - رضي اللّه عنه- أن النبي ﷺ قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»، فمن ترك الصلاة وعبادة الرب العظيم فهو متبع لهواه وشيطانه. هالك في آخرته.

ولية الإسلام

[١]

بقلم فضيلة الشيخ

السيد عبد الحليم محمد

اقتضت حكمة اللّه تعالى أن يخلق الناس مفطورين على طبائع حسنة تعينهم على انتظام أحوالهم ، وعلى طبائع تخالفها ليتسابقوا في عمران هذا الكون ، الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل مسمّى .. إن الطبائع السيئة لا تقف عند حد المسابقة والمنافسة ، بل تأتي من ضروب الطغيان بما يجعل ضررها أكبر من نفعها ، ولذلك اقتضت حكمته تهذيبها ، ووقفها عند حدّها النافع ، فبعث الرسل لكسر سَوْرتها ، حتى تصطبغ بصبغة يظهر بها نفعها ، ويزول عنها ضرها ، وحينئذ تتخلق أخلاقًا حسانًا .

والرسل – عليهم السلام – يصلون إلى ذلك من طريقين : الترغيب ، والترهيب ، وخير معين لهم على إدراك ذلك : ما طبعهم اللّه عليه من الصفات الكاملة ، كالصدق ، والأمانة ، والنزاهة ، والتزام الحق في جميع أحوالهم ، مع البر والإحسان ، والنصيحة لكل إنسان ، ونجافيهم عما لا يليق بمنصب رسالتهم ، ومقام نبوتهم من الوقوع في المعاصي ، والتعلق بسَفْسَافِ الأمور ، وما وقع منهم من صور المعصية ، فحكمته الإشارة إلى انفراد اللّه تعالى وتوحده بالكمال المطلق ، وذلك لا ينافي أبدًا ، أنهم أكمل الخلق ، وصفوة الناس .

لا شك في أن العالم لم يخل من دين منذ الخليقة ، وكان التنزيل في كل عصر مسايرًا لما وصل إليه الإنسان من الرقي

العقلي والخلقي ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر الحكيم أماط اللثام عن أغراض أسمى ، ومقاصد أنبل ، وأرقى ، إذْ بين أن مقاصد الدين إنهاض الإنسان وتنمية ملكاته ، وتثمير غرائزه جسمًا ، وعقلاً ، وخلقًا ، ليبلغ ما أعده الله له من التقدم والرقي ..

ذلك بأن مَثَلَ الإنسان عند الله كمثل سائر السنن الكونية ، فيه ضروب من الاستعداد والمقدرة ، والملكات الكامنة ، والحق جلّ جلاله أراد إخراجها إلى عالم الوجود لاستيطان ما في الكون من آي وعبر وبدائع ، ينتفع بها الخلائق في معاشهم ومعادهم - بيد أن الإنسان ركبت فيه ميول ، هي في أصلها أشبه بالميول الحيوانية ، وجرت سنة الله في السنن الكونية أن يخرج الوسيم من الذميم ، والمليح من القبيح ، وكذلك جعل هذه الميول الحيوانية بذورًا تثمر أشجارها الحضارة والمدنية ، فأرسل النبي العربي الأمي محمدًا - صلى الله عليه وسلم - ليكشف عن الأسرار التي انطوى عليها الإنسان ، وليبين كيف يرقى من رتبة الحيوانية إلى مرتبة الملائكة الأطهار .

ولم يسلك محمد - صلى الله عليه وسلم - في استكناة هذه الأسرار مسلك من سبقوه من المصلحين ، في الاقتصار على النصح السديد والموعظة الحسنة وتأدية فرائض الصوم والصلاة ، والأدعية والقرابين ، بل جمع إلى ذلك مسلك المعلم الماهر في التشريع : فصّل ما استكن في العقل الإنساني صغيره وكبيره ، ووضع للغرائز الحيوانية نظامًا يكفل الهيمنة عليها وتوجيهها لمنفعة بني الإنسان ، واتخاذها أساسًا لعلوّ الهمة والمدافعة عن النفس والوطن ، والاحتفاظ بالمال والشرف ، وما إلى ذلك من الكمالات الإنسانية .

لا جرم أن الغريزة ينشأ عنها قوتان :

١- القوة الغضبية .

٢- والقوة الشهوية ، وهاتين القوتين مسالك متنوعة ، فمنها الجيد ، ومنها الرديء ، ومنها المحمود ، ومنها المذموم ، فإن كانت القوة الغضبية في صورتها المذمومة : نشأ عنها الحقد ، والعداوة ، والهوى ، وحدة الخلق ، والإستبداد ، والغيبة ، والقذف ، والجبن ، والنفاق - وإن كانت في صورتها المحمودة : نشأت عنها الشجاعة ، والإقدام ، وعلوّ النفس ، والصبر ، والمثابرة ،

والتسامح ، والوداعة ، والحلم ، والتواضع ، والصفح - وإن كانت القوة الشهوانية في صورتها المحمودة : نشأ عنها الحب ، والوفاء ، والرحمة ، والكرم ، والرضا ، والإيثار ، والثقة ، والاعتماد على اللّه ، وإن كانت في صورتها المذمومة : نشأ عنها ضيعة النفس ، والشح ، والشره ، والعجب ، والحسد ، والخيانة ، وما إلى ذلك .

وهنالك القوة العاقلة ، فإذا أتفقت أخذت بناصية القوتين الأخريين ، وصرفتها التصريف الحسن .

وقد انفرد الذكر الحكيم باشتماله على استكناة العقل الإنساني ، وبيان ملكاته وصفاته ، وظاهر أن كل شيء في الكون سائر إلى كماله ، يسيّره في سبيل ممهدة له لبلوغ ذلك الكمال ، ومن ذلك ما في الإنسان من الملكات الجسمية ، والعقلية والخلقية ، ووسيلة ذلك الدين الصحيح القائم على الفهم والتفكير ، فقد خرج الإنسان من طور الاكتفاء بالقضايا البراقة ، التي لا يدعمها دليل ، ولا برهان ، وأصبح غير سائغ في شريعة العقل أن يتحول الخسيس رفيعًا بسحر زائف ، بل لا بد في طريق الكمال من جهاد دائم ، وعمل متواصل ، وهداية العلي الأعلى الذي انفرد بإدراك أسرار النفس الإنسانية ، من أجل ذلك جاء محمد - صلى اللّه عليه وسلم - بشريعة رفع بها الإنسان من حيوانيته إلى ملكيته ، وهدى الناس إلى إستخراج الفضائل مما فيهم من القوتين الغضبية والشهوية ، وأوضح جميع ضروب الخير ، وضروب الشر ، وبين المأمور به والمنهي عنه ، وهدى الناس للصراط المستقيم ، يَزِنُون به ميولهم ، وأعمالهم ونزعاتهم ، ويرقون به أحوالهم وملكاتهم ، وهو التخلق بأخلاق اللّه تعالى ، ولا ريب أن هذا يستدعي المجاهدة العظيمة للنفس وحملها على الأشق فالأشق لمحاولة الاتصاف بصفاته جل شأنه ، من حلم ، وكرم ، وسخاء ، ورحمة ، وقوة ، وعدل ، ويستدعي أيضًا العلم باللّه بما يستطيع أن يتعلمه الإنسان ، لأنه لا يمكن التخلق بأخلاقه ، إلا إذا حصل العلم بصفاته جل شأنه ، من العظمة ، والرفعة ، والقدرة ، ولهذا تضمن القرآن الكريم طائفة من أسمائه الحسنى تقريبًا لأذهان الناس ، وتمكينًا لهم أن يتأسوها ، وليست هي كل ما للّه جل

شأنه من أخلاق وصفات ، بل إنها هي التي يستطيع الإنسان أن يجاهد في سبيلها حق جهاده ، ليكون عسيًا أن يتصف بها ، ومن هذا يتجلى أن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - جاء للعالم بما قرّب لهم فهم الألوهية ، وأوضح لهم أن اللّه هو رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الذي فطر الخلائق ، وأودعها أسرارها وأعراقها ، وكفل لها أقواتها وأرزاقها ، ووسائل نموها ، بما يجعلها تبلغ كمالها ، بعد أن تجتاز أطوارًا لا محيص منها في سبيل التدرج والارتقاء كما جرت سنته في جميع الكائنات .

هو الرحمن الذي أحسن كل شيء خلقه ، وجعل لكل شيء مزية تُرتجى منه في كل طور من أطوار نموه ، وكل ما أودعه إياه من المنافع والمزايا لم يكن يكسب منها ، بل بمحض فيضه ، وحكمته وإرادته .

وهو الرحيم الذي يجزي خلقه بما يفعلون من الخير والحسنات أضعافًا مضاعفة رحمة بهم ، ومحبة لهم ، ومعظم هذا الخير يجعله اللّه في ملكاتنا ومواهبنا المكنونة ، وإذا سلك عباده مسلكًا خطأ في سيرهم نحو الارتقاء فليس حتمًا من الحتم عليه أن يعاقبهم ؛ لأنه سيد قوانينه ، وهو المتصرف المطلق فيها : ﴿ ولا يُسأل عما يفعل .. ﴾ .

وهو مالك يوم الدين ، ورحمته سبقت غضبه : ﴿ نبّئ عِبادِي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ .

غير أنه إذا اقتضت حكمته - تعالى شأنه - أن لا صلاح للمذنب الأثيم إلا بالعقوبة ، عاقبه بما يصلحه ، ويجعله عبرة لغيره ، وإذا تأملت هذه النعوت الإلهية انكشف لك مظهرها في كل ذرّة من ذرات الكون في خلقها ، ونموها ، وتدرجها ، أليس في هذا البرهان الكافي ، والشاهد المقنع على وجوب التأسّي باللّه تعالى في هذه النعوت الحسنى ؟ بلى : لو فقِه ولاة الأمور في الناس هذا الدين الحنيف ، وسلكوا في عباد اللّه ما يشعر بتخلقهم بأخلاق رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، لتحققت المملكة التي تمنّاها عيسى عليه السلام ، والتي استقرّت على وجه الأرض في عهد محمد صلى اللّه عليه وسلم .

ولهذا الدين الحنيف مقاصد نجملها - إن شاء اللّه تعالى - في العدد القادم .

من الأمور التي يؤيدها الواقع وإن تجاهلها المكابرون ، أن رابطة الدين أقوى من روابط الأجناس واللغات ، ودين الله منذ بدء الخليقة واحد ، أصوله واحدة ، وعقائده واحدة ، ولذلك لا يكون المسلم كامل الإسلام إلا إذا اعترف بجميع الرسالات التي جاءت من عند الله ، وآمن بالمصدر الإلهي لكل دين ، وهذا سبيل الاتحاد والوفاق ، وهو معنى السلم الذي يدل عليه الإسلام

مقاصد الإسلام

[٢]

الشيخ / السيد محمد عبد الحليم

إن الله – جلت حكمته – أوجد الناس جميعًا من أصل واحد ، وسوَّى بينهم في المزايا الجسمية ، فعَدْله يقتضي التسوية بينهم في المزايا الروحية ، ولذلك أراد أن يمتحوا من معين واحد ، تأمل قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ٦٣] ، فالآية صريحة في أن ما جاء به الرسل السابقون قد تفرق واختلف إلى حد عظيم ، وإذا كان دين الله قد مسّه التحريف بالزيادة أو النقص ، وانحرفت الإنسانية عن أصلها ، وحادت عن الطريق السوي ، فرحمة الله تقضي بدعوة الذين اختلفوا في دينهم إلى غاية واحدة : اقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، تلك دعوة قد مضى عليها ما يزيد عن أربعة عشر قرنًا من الزمن ، وقد لبّاها عدد عظيم من الشرق ، فأصبحوا بنعمة الله أفرادًا في جماعة الأخوة الإسلامية الشاملة ، ولا يزال الغرب مُصمًّا آذانه عن سماعها ، والأمل وطيد أن يجيء الوقت الذي لا مناص له من إجابتها ، لينجو من شر المشاكل المستعرّ لظاها ، والتي إن لم تتدارك التهمت

اليابس والأخضر .

حقا إن عيسى – عليه السلام – جاء بالإنجيل ، وعلم الناس العقيدة الصحيحة عن الله – عز وجل – وعرَّفهمْ الفرق بينه تعالى وبين البشر ، وكان يخاطب مولاه بقوله : " لتكن إرادتك لا إرادتي " ، ويؤيّد هذا بالخضوع العملي ، فوضح أن أساس دينه الأمر من جانب الله ، والطاعة من جانبه ، وأنه – عليه السلام – ما جاء ليهدم ، بل ليكمل ، تأمل قوله : " ما جئت لأنقض ، بل لأكمل " ، ولذلك كان يحيل حواريه على كتاب اليهود لزيادة العلم والاطمئنان ، كان عيسى – عليه السلام – خلوا من الأثرة ، يفيض محبة وحنانًا ، ويرجو من ربه المعونة على تأسيس مملكة في الأرض قوامها الحق ، وسياجها العطف ، وأن يُمكّنَ من ردّ خراف بني إسرائيل الضالة إلى حظيرة الغنم ، وما جاء ليلقي اللؤلؤ تحت أرجل الخنازير ، أو ليبيح للطلام أن تأكل خبز البنين ، وكان عيسى – عليه السلام – في شغل شاغل ، يقضي نهاره في مصالح الخلق ، ويسهر ليله في الخلوة بربه ، وكل همه أن يترجم بأحواله وأقواله وأعماله قانون ربه ، كان كاملاً في أخلاقه ، فتأسَّى بأخلاق الله ، الذي منحه قانونًا إلهيًا يدل الإنسان على طريق الكمال ، والإنسان هو العالم كله مصغرًا ، فلا يليق به أن يكون جاهلاً بالمعنى الحقيقي لهذا القانون ، ومن الذي يستطيع أن يستكنه هذا القانون ؟ الرسل هم فرسان هذا الميدان ، فقد جاءوا واحدًا بعد الآخر ليعلنوه ويبينوه ، ويعيدوا إليه سيرته الأولى ، وظلوا كذلك حتى جاء محمد – عليه الصلاة والسلام – فأعلن أن دين الإسلام هو دين الخضوع للقوانين الإلهية ، التي تشمل الأمر والنهي والتحليل والتحريم ، وهو المظهر الأوفى لكلمة الله وأمره ، وهو الدين الذي جاء به أنبياء العالم من قبل ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

أليست هذه الآية دليلاً واضحًا على أن القرآن مصدق لما سبقه من الكتب ، وقد جاء ليخلصها من كل تزييف بشري منها ؟ بلى ! ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ٢،٣] .

وجلي أن من يسلّم بأن الوحي الإلهي حاجة من حاجات البشر ، ومن يؤمن بأن التنزيل في الكتب السالفة جاء من عند الله ، يسلّم بداهة بأن القرآن آخر وحي من عند الله ، وأن محمدًا آخر طائفة الأنبياء – عليه وعليهم صلوات الله وتسليمه .

حقا إن كل أمة في العالم تعتقد أن دينها من عند الله ، وأن الكتب التي بأيديهم صحيحة لا مرية فيها ، وأن ما سبقها من الكتب ، قد امتدت إليه يد الإنسان بالتشويه والتحريف ، وأن سنة الله جرت بإرجاع وحيه نقيًا خاليًا من الشوائب ، كما أشار إلى ذلك القرآن

الكريم : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْنُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

ولا أدل على صحة ذلك من أن عيسى – عليه السلام – قد بُعث بعد أن ضلَّ العالم ضلالاً مبينا ، ثم أدى رسالته على الوجه الأكمل ، ولما انحرف العالم بعده عن الطريق السوي ، واظلمت الحقائق : جاء القرآن الكريم لإنقاذ البشرية : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] ، وقد أقفل باب الوحي بعده ، لأنه باعتراف الأصدقاء والخصوم باق كما جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – لم يمسه تغيير أو تبديل ، ولا عجب ، فقد تكفل الله بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

جاء هذا الدين بالمحبة : انظر قوله – عليه الصلاة والسلام – : ((أحبَّ لأخيك ما تحب لنفسك)) ، دون فرق بين الأجناس والألوان ، ولم يقصد بالحب القول باللسان ، بل الاستعداد لإطاعة أوامر الله ، وأن يكون حبه فوق كل حب آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

جعل هذا الدين قانونه : ((لا إله إلا الله)) ، وهو يترجم عن حب الإنسان لله في أكمل صورة ، وما بقي من الدين فهو وسيلة لجعل : ((لا إله إلا الله)) حقيقة عملية .

خصائص الإسلام

وخصائص هذا الدين كثيرة نكتفي بطرف منها :

١ – الإسلام لا يكلف النفوس البشرية ما ليس في وسعها ، فلا يعرض عليها من العقائد ما لا طاقة لنا بفهمه ، ولا يحملها ما ليس في قدرتها العلمية أن تقبله ، تأمل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] ، أي : لو أصغينا إلى أولي الألباب بآذان واعية ، أو لو استرشدنا بعقولنا ، واختبرنا الدين من طريق العقل والفهم ، ما كنا اليوم في أصحاب السعير ، وفي الآية إشارة إلى أن الإنسان يحصّل علم اليقين من طريق السماع ، فكثير من الناس لم يروا مكة ، وإنما الحجاج يحدّثون عنها ، كذلك الكتب السماوية ، يحصل علم اليقين بها من طريق السماع المتواتر ، ما لم تكن اختلفت رواياتها وأسانيدها .

٢ – ليس من بين جميع ما عرض من العقائد والأصول شيء فيه إرهاق أو عنت ، بل إن جميع مبادئه مركوزة في جبلة الإنسان ، لذلك سماها الله ذكرًا في قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ، ومعناه : أنه كتاب مبارك لم يأت بأمر محدث ، وإنما يُذكر الإنسان بكل ما أودع في فطرته .

٣ – لا يكلف الإسلام أحدًا يتقبل شيئًا منه على كره ، بل بين مع كل أمر من أوامره أدلته وبرهانه .

٤ – ينزع الإسلام من النفوس أسقامها ، ويذهب ظلمتها بما فيه من البراهين المنقولة في الذروة العليا ، وبما فيه من النور الساطع : ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ .

٥ – جعل الهداية إلى وجود الله سبحانه وتعالى من طريق النظر في بواعث الظواهر الكونية ، كاختلاف الليل والنهار في القصر

والطول ، تأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

هؤلاء الحكماء ، وأرباب العقول ، حين يفكرون في تكوين الأرض والأفلاك السماوية يهتدون إلى وجود الله تعالى ، وينشطون لمزيد الاستطلاع والكشف ، ويستعينون بأدبه ، ويذكرونه قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، حتى إذا ازدات عقولهم وضوحًا وجلاءً ، وفكروا بها في نظام الأفلاك والأرض الذي بلغ حدّ الكمال والإحكام ، ولم يسعهم إلا أن يقولوا : ما هذا النظام الذي فاق الوصف في الإتقان والإبداع ؟ هيهات : ليس هذا بالباطل أو العبث ، وإنما هو من آثار الخالق الحق ، فاندفعت نفوسهم إلى مناجاته : سبحانك وحاشاك أن ينكر ذاتك أحد ، أو يصفها بما لا يليق : ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ .

٦- متى خالط الإسلام النفوس أكسبها روحًا جديدة ، تنفي عنها الميول النازلة ، وتقضي فيها على محبة الأغيار الباطلة ، فابتعدت عن جاذبية الحياة الفاسدة ، فأصبحت بالله تبصر ، وبه تسمع وتنطق ، وتبطش وتمشي ، تأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وهذا جلي في أن الإسلام يجري في نفوس أهله مشيئة الله ومرضاته ، ويجعل أخلاقهم أقوى من الجبال الراسيات ، ويلطف العقل والإدراك غاية اللطافة ، وحسبك قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، وإذا أيد الله عباده تدفقت من جوانبهم سيول المحبة لدينه ولكلمته ، وهان عليهم أن يتحملوا في سبيله ضروب العذاب والأذى والهوان ، فإذا رأوا غمرات الموت خاضوها بحبور وابتهاج ، واحسوا أن يدًا خفية تسير بهم إلى إشادة الحق وهدم الباطل ، ورأوا أنهم قريبون من ربهم : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ، ويصبحون ومثلهم كمثل شجرة أينعت ثمرتها فلا تلبث أن تسقط الشجرة وحدها ، فتعود على العالم بالفائدة العظمى .

غير أن الإسلام أوضح في جلاء أن الوصول إلى هذه المرتبة وقف على الجهاد الأكبر والتفدية العظمى ، فما القيل بمجدٍ شيئا ، ولا القال بمغنٍ فتيلا ، لا بد من السعي الحثيث ، مع الجد والحماس ، قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

٧- أوضح الإسلام مقاصد الحياة البشرية ، فقد اختلف الناس قديمًا وحديثًا في تعيين مقاصد هذه الحياة البشرية تبعًا لاختلاف طبائعهم ، وكلها لا تخرج عن الأغراض الدنيوية ، والأماني العاجلة ، فجاء الإسلام مبينا هذه الغاية أجل بيان : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وللحديث بقية بإذن الله .

❀ ❀ ❀

خصائص الإسلام [٣]

بقلم فضيلة الشيخ

السيد عبد الحليم محمد

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد .. فقد تكلمنا في العدد الماضي عن مقاصد الإسلام، وفي هذا العدد نكمل كلامنا - إن شاء الله تعالى - عن خصائص الإسلام:

وإليك البرهان:

جاء الإنسان إلى هذا العالم بقدرة الله وإرادته، ويتركه بمشيئته ومرضاته، فلا اختيار له في المجيء والذهاب، وإذ ثبت أنه مخلوق كسائر الكائنات، وأن الله اختصه بأفضل الملكات، فقد قدر لحياته غاية معينة، هي عبادته ومعرفته، وتسخير حياته في مرضاته.

هذا الدين هو دين الفطرة: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ [الروم: ٣٠]، وهذا جليّ في أن الإسلام قد أودع فطرة الإنسان، وأن الله قد أنشأ الإنسان على نشأة الإسلام، وخلقه من أجل الإسلام، وأنه لذلك وهب له من الملكات، جميع ما يناسب مقتضى الإسلام، وجعله - مهما أوتي من حظوظ الدنيا سواء أكانت من باب المال أم الجاه - تام؛ العلم بأنه لا يجد من دون الله السلوان الحق، وأودعه ضميرًا يؤنبه ويؤلمه إذا انغمس في ميادين المكر والحيل وغيرها من السيئات.

ومن الخلائق التي مُنحها الإنسان أنه متطلع إلى ربه، تائق إلى أن ينمحي في محبته، ويصبح كله لله.

ألا ترى أن الحيوان - وهو أدنى من الإنسان - قد بَذَّه في الاستمتاع بالأكل والشرب، بل في الصنعة البديعة، فالنحل يصنع من ورق الزهر عسلاً

نقيًّا يعجز الإنسان عن صنع مثله .

ومن ذلك أن البغية المثلى للإنسان أن تكون له باللّه صلة وارتباط ، ولهذه الصلة وسائل :

- **الوسيلة الأولى : العرفان الصحيح والإيمان** الخالص ، وكان من حكمة اللّه ورحمته بهذا الإنسان المكرّم كلّما ضلَّ الطريق السّوي ، وأخطأ جادة الحق ، التجأ إلى ربه لينقذه من براثن ما نزل به .

وفي ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ [الرعد : ١٤] .

ومعنى هذا أن الإله العلي القدير هو الأحق بالعبادة والدعاء عند حصول المُلِمَّات ، وأما غيره مما يعبد الناسُ ، فلا ينفعون ولا يضرون ، ومَثَل من يدعوهم مَثَل من يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

- **الوسيلة الثانية** : استجلاء ما اتصف اللّه تعالى به من ضروب الحسن الأكمل ، والحسن قوة تأخذ بالألباب ، وتمتلك النفوس ، وحسن اللّه وحدانيته وعظمته وجلاله ، انظر قوله تعالى : ﴿ قل هو اللّه أحد ۞ اللّه الصمد ۞ لم يَلد ولم يُولد ۞ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ [الإخلاص : ١-٤] .

تجد أن اللّه تفرد في ذاته ، وصفاته ، وجلاله ، وأنه لا شريك له ، وأن جميع الخلق كَلٌّ عليه ، وكل ذرّة من ذرات الكون تستمد حياتها منه ، وأنه مُبدئ ولا مُبدأ له ، ولا نهاية ، لا مولود عن والد ، ولا والد لمولود ، لذلك تنزه عن الشريك والشبيه والنظير والمثيل : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] .

- **الوسيلة الثالثة** : تعرُّف إحسان اللّه تعالى ، ذلك بأن داعي الحب أحد أمرين : إما الحسن - وقد تكلمنا عنه - وإما الإحسان ، ويتجلى في قوله تعالى : ﴿ الحمد للّه ربِّ العالمينَ ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : ٢-٤] ؛ لأن اللّه خلق عباده ثم شملهم بربوبيته ، وتعهدهم في جميع شئونهم ، ثم أفاض عليهم رحمته ، على اختلاف مظاهرها ، حتى قال لهم : ﴿ وإن تعدُّوا نعمة اللّه لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

- **الوسيلة الرابعة** : الدعاء : وحكمته أن اللّه رغَّب الإنسان في الدعاء بالتكرار المستمر ؛ لينال منه قوة فوق كل قوة .

- **الوسيلة الخامسة** : المجاهدة : ذلك بأن اللّه جعل من وسائل الفوز بالنجاح الأعظم أن يطلب القرب من اللّه بإنفاق الأموال في سبيله ، وما في النفس من ملكات وقوى ، وما كسبته من علم وفهم وبراعة ، ألم تَرَ أن اللّه جل شأنه يقول : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ٣] ، ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللّه ﴾ [التوبة : ٤١] .

- **الوسيلة السادسة** : المثابرة والثبات والاستقامة : وهي أن يجد الإنسان أن البلاء قد

أحدق به من جميع جهاته ، وأن نفسه قد أصبحت بين براثن الخطر ، وسدت وجوه الفرج في وجهها ، ثم لا يعروه جبن ولا هلع ، ولا تلين قناته ، ولا ينقص صدقه ووفاؤه ، بل يفيض فرحًا بالهوان ، ويرضى بالموت ولا يتوقع من صديق مؤازرة أو تثبيتًا ، بل لا تتطلع نفسه إلى البشرى بذلك ، ولا يبدي قلقًا ولا جزعًا من القدر المحتوم ، إلى أن يستوفي البلاء حقه ، ويبلغ مداه .

هذه هي الاستقامة التي يلقى الإنسان بها ربه ، وهذه هي العبقرية التي لا يزال عبيرها يفوح من تربة الرسل والأنبياء ، والصديقين والشهداء ، وإليها يشير الله تعالى في كتابه الكريم إذ يقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [الفاتحة : ٦،٧] ، وإذ يقول : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

حقًا إن المؤمنين حقًا هم الذين ينزل الله نورًا في قلوبهم حين يشتد الكرب وتتوالى الأزمات والمحن ، فيقاومون به بتؤدة واطمئنان كل تصاريف الدهر وتقلباته ، وأحسن من هذا أنهم يقبلون السلاسل والأغلال ، لأنها في نظرهم رمز المحبة والقربى ، أولئك يرون أن المؤمن الصادق كلما ألمت به البلوى مضى قُدُمًا ، واستخف بنفسه وأمواله ، وجعل ذاته رهينة لمرضاة مولاه الحق ، لا يبتغي إلا وجهه ؛ هذا المؤمن هو الذي عناه الله بقوله : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

هؤلاء الذين شروا أنفسهم يصبحون موردًا للرحمة الربانية جزاء بيعهم أنفسهم في سبيل الله ، وتلبيتهم روح الاستقامة .

- **الوسيلة السابعة** : التأسي بالأسى الصالحة ؛ لأن الإنسان بفطرته محتاج إليها ، فهي تزيد في شوقه ، وتضاعف همته ، ومن لم يشابر على احتذاء الأمثلة النافعة ، تبلّد عقله ، وضعف ذهنه ، وأظلمت بصيرته ، وخرج من زمرة الصادقين ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : ١١٩] ، ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ [الفاتحة : ٦،٧] .

مَنِ المسلم حقًا ؟

المسلم حقًا من عرف لكل من الناس حقه ومرتبته ، فاستعمل صفات العدل والإحسان والرحمة ، كلاً في محلها ، ثم أشرك الناس أجمعين فيما رزقه الله من العلم والعرفان ، ورغد العيش ، كلاً على قدر منزلته ومكانته ، فمثله مثل الشمس ، يعم نورها ، فترى سبيل الهدى من سبيل الضلال واضحًا ، أو كالليل يستر عيوب الضعفاء ، ويستريح فيه المتعب والمنهوك ، أو كالسماء تفيض بالغيث العميم ، أو كالأرض تصلح مهادًا لراحة البشر ، وتؤتيهم أُكُلَهَا كل حين بإذن ربِّها .

المسلم حقًا هو : الذي تَنْحَلُّ بفضله أعقد المسائل ، وتنكشف بهمته أدق المشكلات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

نفحات من شهر الفتوح والانتصارات

فضيلة الشيخ
السيد عبد الحليم محمد
ماجستير في الأدب العربي

الصوم أمر فطري ، يشعر بالحاجة إليه كل كائن حي ، وبرغم اختلافه هيئةً وأهدافًا وتوقيتا باختلاف العصور والأمم ؛ فإن الواقع البشري ليؤكد أنه شأن عرفه الإنسان منذ القدم .

عرفه المتدين وسيلة من وسائل التقرب إلى الله .. وعرفه الوثني طريقا من طرق التهذيب والرياضة .. وهناك من اعتبر ((الإضراب عن الطعام)) الذي يتخذ منه بعض الناس وسيلة لاستنكار تسلط الحكام ضربا من الصيام لما فيه من رفض للجور والظلم .

وقد جاء الإسلام فشرع الصيام ، وجعله فريضة محكمة في رمضان من كل عام ، قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون } [البقرة : ١٨٣] ، أي : فرض وشرع ، وإنما عبر سبحانه وتعالى بالفعل : { كتب } دلالة على قوة الفرضية ، وتأكيدا لأداء الفريضة ، وشدة الاهتمام بها ، وعدم إغفالها .

■ ■ الصوم عبادة روحية قديمة :

والمتتبع للتاريخ يلحظ مدى مسايرته للنص القرآني في أنه كان للأمم الأخرى ذات الديانات السماوية وغيرها . صيام فرض عليهم كما فرض علينا صيام هذا الشهر المبارك ، فقد عرفه المصريون القدماء ، وأخذه عنهم اليونان ، فالرومان ، كما عرفه الصابئة ، والمانوية ، والبرهميون ، والبوذيون ، ويعرفه اليهود والنصارى الآن .

■ ■ قدم الصيام .. الأهمية والدلالة :

والنص على أن الصيام فُرِضَ علينا كما فُرِض على من قبلنا فيه - علاوةً على تأكيد فرضية الصيام - إشعار بوحدة الدين في أصوله ومقاصده ، فدين الله واحد : { إن الدين عند الله الإسلام } [آل عمران : ١٩] ، وشرع الله واحد في جوهره وغايته برغم تباين شعائر العبادات لدى بعض الشرائع : { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. } [الشورى : ١٣] ، ولا شك أن الوحدة في الدين تفرض علينا الإيمان بسائر أنبياء ورسل الله بحيث تغدو التفرقة بينهم كفرًا بالله الواحد الأحد ، وليس ما تعانيه البشرية اليوم إلا أثرًا مباشرًا لتجاهل هذه الحقيقة ، أو الاجتراء عليها .

ويكفي الصيام قدرًا ومكانةً أنه العبادة الوحيدة التي خصها الله جل شأنه في كتابه الكريم بتفصيل واضح لم نجده لغيره من أركان الإسلام الأخرى .

■ ■ الإسلام .. والصوم الحقيقي :

وقد يظن بعضنا أن الصوم في الإسلام هو مجرد الامتناع عن الطعام والشراب والملابسة الجنسية ، بحيث استقر في وجداهم أن مجرد الإمساك عن هذه الأمور هو صيام يخرج صاحبه من عهدة التكليف .. غير أن المستفاد من نسق الآية الآنفة الذكر يبتعد عن ذلك تمامًا حيث ابتدأها المولى سبحانه بقوله : { يا أيها الذين آمنوا } [البقرة : ١٨٣] ، وختمها بقوله : { كتب عليكم الصيام } [البقرة : ١٨٣] ، وليس من ريب في أن النداء بوصف الإيمان أولاً وهو أساس الخير ، ومنبع الفضائل ، وفي ذكر التقوى آخرًا وهو روح الإيمان وسر الفلاح ، إرشاد ودلالة على أن الصوم المطلوب حقيقة : هو الإمساك عن كل ما ينافي الإيمان ، ولا يتفق وفضيلة التقوى والمراقبة التي هي حكمة الصيام السامية وغايته المقدسة .. وهي مفتاح كل خير ، وسبيل كل نصر ، وآية كل مؤمن : { ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض } [الأعراف : ٩٦] ، { إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون } [النحل : ١٢٨] ، { ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًّا } [مريم : ٧٢] .

■ ■ رمضان شهر القرآن والانتصار :

نزول القرآن في شهر رمضان إيذان للبشرية برشدها الإنساني ، وميلادها الحضري ، ونضوج فكرها الإنساني ، لتقبُّل الفيض الإلهي ، لذلك اتجهت الوثيقة الإلهية العظمى إلى تحرير البشر كافة من عبودية الأحجار والأشجار ، إلى عبودية الله الواحد القهار ، وتخليص البشر من ربقة الظلم والاستضعاف والقهر ، والتسلط والبغي والاستكبار ، فكان القرآن هو الينبوع الثر ، والفيْضُ المدرار ، لتنقية البشرية من أوضار ارتكاستها ، وكان فجْرًا سنيًّا هتك عن العالم حُجب الظلام التي رانت عليه قرونًا ، تخبط من خلالها في دياجيرها : { وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } [آل عمران : ١٦٤] ، ومن هنا يمكننا أن ندرك سرَّ قوله تعالى : { شهرُ رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان } [البقرة : ١٨٥] .

هذا ، وإن كان (الهدى) نورًا تستضيء به النفس الإنسانية بفطرتها ، وتتقبّله وتطمئن إليه ، فإن البينات بما هي دلائل أعمق من الهدى معنى .. وبراهين تفتقر إلى فضل التعقّل ، وعمق الإدراك ، لذا كانت نظرة القرآن شاملة ، قائمة على الترابط المتين ، بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة تساوقا مع الفطرة الإنسانية نفسها ، تحقيقًا لما ترغب فيه من التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، ولكن في توازن واعتدال مما يحفظ للإنسان

كرامته ، ويعين على أداء رسالته الكبرى في هذا الوجود ، وإذا كان الله سبحانه قد اختص هذا الشهر المبارك بإنزال القرآن فيه ، فإن للمسلمين فيه ذكريات أخرى لها مكانتها في نفوسهم وأثرها على البشرية جمعاء ، ففيه كانت غزوة بدر الكبرى ، التي كانت أولى معارك المسلمين ذودًا عن الرسالة ، وكان الانتصار فيها بداية لانتصارات دكت حصون الكفر والضلالة ، وقادت الإنسانية إلى نور الحق والهداية ، وفيه كان الفتح المبين ، حيث مكّن الله للمسلمين من فتح مكة ، فكان فتحها نهايةً للأصنام التي عبدَتْ من دون الله وبدايةً لدخولَ الناس في دين الله أفواجًا ، وفيه كانت غزوة تبوك ، وهي آخر مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفيه انطلق العرب وفتحوا الأندلس ، فكان لوجودهم في تلك البقعة أعظم الأثر على الحضارة الإنسانية ، وفيه تم قهر القوى الصليبية على أيدي صلاح الدين ورجاله ، وفيه كان وقف الزحف التتري الهمجي على العالم الإسلامي .. وفيه ليلة القدر التي اصطفاها الله وآثرها على غيرها من الليالي بخاصية بعثة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ، وإنزال القرآن الخالد ، وبداية قيام الأمة التي أصبحت بالقرآن : { خير أمة أُخرجت للناس } [آل عمران : ١١٠] ، لذا كانت جديرة بأن يُسميها الله سبحانه « ليلة القدر » ، وأن يُضفي عليها من نعوت الشرف والفخار ويجعلها من حيث فضلها خيرًا من ألف شهر ، حيث يزكو فيها ذكر الله ، وترتفع إليه فيها الطاعات ، ويضاعف فيها الأجر والثواب ، ويُستجاب الدعاء ، ويُحقق الأمل والرجاء ، وما زالت الملائكة تحف فيها المؤمنين - وإلى يوم الدين - بفيض من رحمة الله ورضوانه ، وعفوه وإحسانه ، حيث يصفها بأنها : { سلامٌ هي حتّى مطْلع الفَجْر } [القدر : ٥] ، حتى ننال فيها من فضل الله ونفحاته .

وفي هذه الليلة نجد طريق الإسلام هو وحده طريق الوجود السعيد ، والمجتمع الرشيد ، بوصايا القرآن وآدابه ، التي تدعم الأسرة ، وتصون الحكم الصالح ، وتشدّ روابط الأخوة ، وترفع صروح التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والصبر ، وتقيم جسور مكارم الأخلاق التي توخاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي امتدح الله بها مصطفاه ، وجمع أصولها في قوله : { إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون } [النحل : ٩٠] .

■ ■ رمضان واختصاصه بالفريضة :

والعلة في تخصيص رمضان وتعظيمه بفرضية الصوم فيه ، تتلخص في أنه شهر ابتداء الرسالة ، ونزول القرآن بالهدى والنور ، فرسم للإنسانية طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، فحق أن يُعبد الله فيه بما لا يُعبَدُ في غيره ، ويؤكد الفخر الرازي ذلك فيقول : (إن الله سبحانه خصه بأعظم آيات الربوبية : وهو أنه أنزل فيه القرآن ، فلا يبعد أيضًا تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية ، وهو الصوم ، فثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة ، فكما كان هذا الشهر مختصًا بنزول القرآن وجب أن يكون مختصًا بالصوم) .

كما أن علة تخصيص النهار بالصوم تخلص في أن مقصد الصيام ابتلاء النفس البشرية وتدريبها على الجهاد والجلد ، والمثابرة أمام إغراءات الحياة ومفاتنها ، ولا شك أن ذلك لا يتأتى بالصيام ليلاً ؛ لأنه وقت الدعة والراحة والسكون .. ومن ثمّ فقد شرع الصوم نهارا استظهارًا للهمم ، وقوة العزائم ..

والحديث عن فضائل هذا الشهر المبارك والفائدة من صيامه ، والآثار الروحية ، والنفسية والاجتماعية التي تعود على الفرد والجماعة بالنفع أكثر

من أن يُحاط بها ، فالصيام نزوع روحي إن أُدّى على وجهه الصحيح تهذبت النفوس ، وسما الروح ، وابتعد الإنسان بنفسه عن المهالك ، وارتفع بها لآفاق عليا ، من الصفاء والنقاء ، تقيه نقية ، تخشى الله وترجو رحمته ، وتهاب حسابه وعقابه ، لأنه في جوهره استعلاء على ضرورات الجسد .. ومن استعلى على ضرورات جسده صار مؤمنًا كامل الإيمان ، كما أن الصيام عبادة سلبية ليس لها مظهر خارجي يدل عليها ، ومن ثَمَّ فهو علاقة سرية بين الإنسان وخالقه ، لهذا فقد خلا من مظنّة الرياء والنفاق التي قد تظهر في غيره من بعض العبادات .. كما تمثل السلبية فيه عنصر المراقبة الصادقة في ضمير المؤمن بحيث يغدو مالكًا لنفسه يصرفها بتوجيه من شرع الله دون أن يترك لها الزمام جريًا وراء الأهواء والشهوات مما يفسد الصوم ، ويضيع الفريضة .

■■ الصوم .. كمظهر من مظاهر المساواة :

أكثر من ذلك فإن صيام رمضان يُعَدّ بحق أكبر مظهر من مظاهر المساواة بين المسلمين وتماسكهم حيث يجتمعون في سائر البقاع والأصقاع على أداء فريضة الصيام ، وكأنهم يعيشون جميعًا داخل معسكر تدريبي واحد يفرض عليهم أنماطًا محددة من السلوك يلزمهم اتباعها ، وإن أرادوا الخروج من دورهم التدريبية السنوية بما يؤمِّن لهم سبيل الفوز في الدارين ، وإذا كان الصائم إنما يتقرب إلى الله بصيامه ، ويطلب فيه عفوه ورضوانه ، ويأمل في ثوابه الكبير الذي أعده الله للصائمين .. فإن في الصيام تدريبًا للنفس ، وتهذيبًا للأخلاق وتقويمًا للسلوك ، وتقوية للجسم ، ووقاية للنفس من العلل والأمراض ، ووسيلة تربوية لتقوية العزيمة وتعويد الإنسان الجلد ، والصبر عند الملمات .

فيه يؤوب الناس لربهم ، ويعيشون في ظلال دينهم ، وبه يكبح الصائم جماح نفسه ، ويربيها على معالي الأمور ، ويصون لسانه عن اللغو والرفث ، وعن طريقه تصان الفروج وتحفظ حتى عن مباح العادات ، وتتحرك العواطف والمشاعر الإنسانية ، فيحس الإنسان بأخيه الإنسان ، ويشاركه آماله وآلامه .. فالصوم يزرع التقوى في القلوب ، والحياة في الضمائر ، ويذكرنا بجوع الجائعين ، وبؤس البائسين ، لنسارع لمد يد العون لكل محتاج ، والتنفيس عن كل مكروب والتيسير على كل معسر .. وبه يعرف الإنسان قيمة النعمة فيشكر الله عليها ، ولا يسرف ، ولا يبذر ، ولا يضيِّع ..

وهو مدرسة تعلم الصبر على الشدائد والمكاره ، وتُدَرِّب على تحمل الصعاب ، وتعد للجهاد في سبيل الله ، والذي يجاهد نفسه ، وينتصر على شهواته ، ويضحي بملذاته ، قادر على أن يضحي بروحه وماله حين يدعو داعي الجهاد .. وهو يعلمنا الأمانة والإخلاص ، حيث نمسك عن المفطرات في السر والعلن ، والذي يتعلم كيف يكون أمينًا مع الله خلال شهر كامل ، فإنه يكون أمينًا في سلوكه ومعاملاته ، فالصوم جُنَّة ، « فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو شاتمه ، فليقل : إني صائم » ، إني صائم ، فالصوم قد شُرع ليصلح نفوسنا ، ويهذب أخلاقنا ، ويصحح مسار حياتنا ، ويعيدنا إلى جادة الحق ، وطريق الصواب ، فهو سموّ بالروح ، وتحرر من سلطان الغرائز والشهوات ، ومن أسر المادة والعادات ، حيث يصبح الصائم كالملاك ، يقف نفسه على عبادة الله وشكره وذكره .

في هذه الأيام يطل علينا رمضان ، شهر القرآن والصيام بكل ما يحمله للإسلام والمسلمين من معاني المثابرة والجهاد ، وما تحقق خلاله من فتوح وانتصارات ، ليذكرنا جميعًا أنه ليس بالإمكان تصور انتصار الإنسان على أعداء الحق من قوى القهر والبغي والعدوان ما لم يقهر عدوه الذي بين جنبيه أولاً : { إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يغيروا بما بأنفسهم } [الرعد : ١١] .

* * *

الإيمان ... ومزاياه

بقلم الدكتور
السيد عبد الحليم محمد حسن

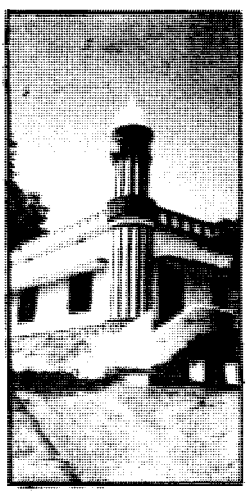

الإيمان في حقيقته : تصديق القلب بالله وبرسوله لا يرد عليه شك ولا ارتياب . تصديق يدفع لتحقيق حقيقته خارج القلب فيوجد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مُجريات الأمور ، وواقع الحياة فلا يصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسّه ، والصورة الواقعية من حوله ، فالإيمان الحق هو الذي تُشرق شَمْسُهُ على جوانب النفس كلها ، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة ، أجل تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه ، وإلى القلب فتهزه وتحركه ، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها ، وإذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب ، واتجهت الإرادة ، استجابت الجوارح ، واندفعت للعمل ، واستجابت الرعية للراعي المطاع .

الإيمان الذي نريد : إنه الإيمان الذي يتجسّد في خاتمة العقائد السماوية - عقيدة الإسلام - كما بينها القرآن الكريم ، وهدي الرسول العظيم ، متمثلة في الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين .

هذه العقيدة : هي التي تحل لغز الوجود ، وتفسر للإنسان سرّ الحياة والموت ، هذه العقيدة مصفاة بعث الله بها أنبياءه جميعًا ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ، إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير عن التوحيد عن صلته بهذا العالم ، ما يبصر منه وما لا يبصر ، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها .

إنها الحقائق التي علمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح في قومه ، ودعا إليها إبراهيم وبرهن عليها ، ووضحها هود وصالح لعاد وثمود ، ونادى بها إسماعيل وإسحاق ، وأكدها الله لموسى في توراته ، وداود في زبوره ، وعيسى في إنجيله .

والإسلام هو الذي نقّى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفّاها من الأجسام الغريبة ، التي أدخلتها العصور عليها ، فكدّرت صفاءها ، وأفسدت توحيدها بالتثليث والشّفاعات ، واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم ، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى الله علوًا كبيرًا ، وشوّهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم ، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضًا جديدًا يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية ،

وأن تكون غاية لكل البشر ، إلى قيام الساعة .

جاء الإسلام فنقى العقيدة بإثبات التوحيد ، وكمال الألوهية ، مما شابها على مرّ العصور ، ونقى فهم الناس في النبوّة والرسالة مما عراها من سوء التصور .

ونقى عقيدة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ودجل المشعوذين .

✸ وجود الله تعالى : لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتدبّره ، وتشرف عليه ، سماها أحدهم ((العلّة الأولى)) ، وسماه غيره ((العقل الأول)) ، وسماها ثالث ((المحرك الأول)) ، فضلوا في أقوالهم وتصوراتهم ، ولكن جاء القرآن العربي المبين ، وكتب السماء ، يعرفهم ربهم باسمه الجامع لصفات الجلال والجمال والكمال ((الله)) .

الله هو الإله الأعظم ليس في استطاعة العقل البشري إدراك كنهه ، ولا معرفة حقيقته : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيلٌ ۞ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام : ١٠٢، ١٠٣] .

فليس إله فصيلة محدودة ، ولا شعب خاص ، ولا إقليم معين ، وإنما هو : ﴿ رب العالمين ﴾ ، ﴿ ربُّ السموات والأرض ﴾ [الكهف : ١٤] ، ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ [الشعراء : ٢٨] ، ﴿ قل أغير الله أبغي ربًّا وهو ربُّ كل شيءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

بين القرآن الكريم أن ربوبيته شاملة : ﴿ قال فرعون وما ربُّ العالمين ۞ قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ۞ قال لمن حوله ألا تستمعون ۞ قال ربكم وربُّ آبائكم الأولين ۞ قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون ۞ قال رب المشرق والمغرب وما بينما إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء : ٢٣-٢٨] .

أسلوب القرآن في إثبات وجود الله :

١- تارة يلفت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعًا حكيمًا وهو قانون بدهي عند العقل الذي يؤمن بمبدأ ((السببية)) إيمانًا طبيعيًّا لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل : ﴿ إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

هذا الخلق لا بد له من خالق ، وهذا النظام لا بد له من منظم : ﴿ أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۞ أم خلقوا السموات والأرض ﴾ [الطور : ٣٥، ٣٦] ، ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ۞ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : ٤٩ ، ٥٠] .

٢- وأخرى يستثير الفطرة الإنسانية السليمة التي بها يُدرك المرء إدراكًا مباشرًا أن له ربًّا ، وإلهًا قويًّا عظيمًا يكلؤه ويرعاه : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : ٣٠] .

وإذا اختفت هذه الفطرة في ساعات الرخاء واللهو ، فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء ، وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعدن الأصيل في النفس البشرية ، فتعود إلى ربها داعية متضرعة : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكانٍ وظنوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ [يونس : ٢٢] .

وتبدو هذه الفطرة حين يُفاجأ الإنسان بالسؤال عن خالق هذا

الكون ومدبّره ، فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلنًا : « اللّه » ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ اللّه ﴾ [العنكبوت : ٦١] ، ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويُخرج الميت من الحيّ ومن يُدبر الأمر فسيقولون اللّه فقل أفلا تتقون ۞ فذلكم اللّه ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس : ٣١، ٣٢] .

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنساني على أن الإيمان باللّه وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه ، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار ، ففي نوح يقول : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قومًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٤] ، وفي هود يقول : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ [الأعراف : ٧٢] ، وفي صالح وقومه ثمود يقول : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ۞ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [النمل : ٥٢، ٥٣] ، وفي رسل اللّه جميعًا يقول تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صلى اللّه عليه وسلم : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقًا علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم : ٤٧] .

إنما الله إله واحد :

وهو تعالى إله واحد . ليس له شريك ، ولا مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله : ﴿ قل هو اللّه أحد ۞ اللّه الصمد ۞ لم يلد ولم يُولد ۞ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ [الإخلاص : ١- ٤] ، ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبّره واحد ، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من يد تنظم لاختل نظامه ، واضطربت سننه ، وصدق اللّه : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللّه لفسدتا فسبحان اللّه ربّ العرش عما يصفون ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، ﴿ ما اتخذ اللّه من ولدٍ وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعضٍ سبحان اللّه عما يصفون ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

هو تعالى واحد في ربوبيته ، فهو رب السماوات والأرض ومن فيهن ، وما فيهن ، خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعي أنه الخالق أو الرازق ، أو المدبر لذرة في السماء أو في الأرض : ﴿ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ [الشعراء : ٢١١] ، وهو تعالى واحد في ألوهيته ، فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه ، فلا خشية إلا منه ، ولا ذل إلا إليه ، ولا طمع إلا في رحمته ، ولا اعتماد إلا عليه ، ولا انقياد إلا لحكمه ، والبشر جميعًا - سواء أكانوا أنبياء وصديقين ، أم ملوكًا وسلاطين - عبادًا للّه ، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، فمن ألّهَ واحدًا منهم ، أو خشع له وحنى رأسه ، فقد جاوز به قدره ، ونزل بقدر نفسه .

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة ، وإلى أهل الكتاب خاصة : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه ولا نُشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون اللّه ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ومحمد نبي الإسلام ، لم يقل القرآن عنه إلا أنه : ﴿ رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ولم يقل هو عن نفسه إلا أنه : « عبد اللّه ورسوله » ، كما جاء في الصحيح : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد اللّه ورسوله » .

والأنبياء جميعًا بشرٌ مثلنا ، اصطفاهم اللّه لحمل رسالته إلى خلقه ، ودعوتهم إلى عبادته

وتوحيده ، ولهذا كان النداء الأول في رسالة كل واحد منهم : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : ٣٦] ، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ومن الضلال المبين أن يزعم زاعم ، أو يفترى مفتر على هؤلاء الأنبياء أن أحدًا منهم دعا الناس إلى تأليهه ، أو تقديس شخصه : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه اللّه الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون اللّه ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ۞ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ٧٩، ٨٠] .

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة « التوحيد » ، وكلمة « الإخلاص » ، وكلمة « التقوى » ، وهي : لا إله إلا اللّه .

من هنا كانت « لا إله إلا اللّه » استعلاء على جبابرة الأرض ، وطواغيت الكفر وعلى الأصنام والآلهة المزعومة من دون اللّه ، سواء أكانت شجرًا ، أم حجرًا ، أم بشرًا .

وهي نداء إلهي لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من وما خلق اللّه .

وهي عنوان منهج جديد ، ليس من صنع حاكم ، ولا فيلسوف ، إنه منهج اللّه الذي لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ، ولا تخضع إلا لسلطانه .

إنها إيذان بمولد مجتمع جديد ، متميز بعقيدته ونظامه ، لا عنصرية ولا إقليمية ولا طبقية فيه ؛ لأنه ينتمي إلى اللّه وحده ، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

ولقد أدرك زعماء الكفر وجبابرته ما تنطوي عليه « لا إله إلا اللّه » ، من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم ، وإعانة المستضعفين عليهم ، فلم يألوا جهدًا في حربها ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل اللّه من آمن ويبغونها عوجًا.

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسًا منهم جعلوا من أنفسهم ، أو جعل قوم آخرون آلهة في الأرض ، أو أنصاف آلهة ، لهم يخضع الناس ويخشون ولهم يركعون ويسجدون ، ولهم ينقادون ويسلمون .

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين ، فلم يعد عندهم بشر إلهًا ولا نصف إله ، أو ثلث إله ، أو ابن إله ، أو محلاً حل فيه الإله .

ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني له ، أو يقبل الأرض بين يديه ، وهذا أصل الأخوة الإنسانية والحرية والكرامة الحقة ، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود ، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدّعي ألوهية ، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله ، أو يتخذه حكمًا من دون اللّه .

قال أبو موسى الأشعري : انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه ، وعمرو بن العاص عن يمينه ، وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين (صفين) ، وقد قال له عمرو وعمارة - وهما مندوبا مشركي قريش بمكة إلى النجاشي -: إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر بن أبي طالب : لا نسجد إلا للّه .

فرغم أنهم مضطهدون ومهاجرون ، وغرباء لاجئون ، وهم في أرض هذا الملك ، وفي حوزته ، أبوا أن يفرطوا في توحيدهم لحظة واحدة ، فيسجدوا لغير اللّه ، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعارًا لكل مسلم : (لا نسجد إلا للّه) .

وللحديث بقية إن شاء اللّه تعالى .

باب الأدب

الإيمان ومزاياه

الحلقة الثانية

بقلم د :
السيد محمد عبد الحليم

الكمال الإلهي : ولا بد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة ، منزه عن كل نقص : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى : ١١] ، دلّ على ذلك هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب ، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة ، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه ، فهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيءٌ : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وهو العزيز الفعال لما يريد ، الذي لا يغلبه شيء ، ولا يقهر إرادته شيء : ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ [آل عمران : ٢٦] ، وهو القادر الذي لا يُعجزه شيء ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويحيي العظام وهي رميم ، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة ، وهو أهون عليه : ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ [الملك : ١] ، وهو الحكيم الذي لا يخلق شيئًا عبثًا ، ولا يترك شيئًا سدًى ، ولا يفعل فعلاً ، أو يُشرع شرعًا إلا لحكم ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، وهذا ما شهد به الملائكة في الملأ الأعلى : ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ [البقرة : ٣٢] ، وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه ، وأولو الألباب من عباده : ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وهو الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شيء ، كما وسع علمه كل شيء ، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة : ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا﴾ [غافر : ٧] .

فالله جل جلاله ، وعز كماله ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه ومن فيه ، كإله أرسطو الذي سماه ((المحرك الأول)) ، أو ((العلة الأولى)) ، ووصفه بصفات كلها ((سلوب)) لا فاعلية لها ولا تأثير ولا تصريف ولا تدبير ، فهو عندهم لا يعلم إلا ذاته ، ولا يدري شيئًا عما يدور في هذا الكون العريض .

فالله العلي الأعلى : ﴿خلق الأرض والسموات العلا ۞ الرحمن على العرش استوى ۞ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ۞ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ۞ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ [طه : ٤ - ٨] ، فهو خالق كل شيء ورازق كل حي ، ومدبر كل أمر ، أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كل شيء عددًا ، وخلق فسوى ، وقدر فهدى ، يسمع ويرى ، ويعلم السر والنجوى ، له الخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شيء ، يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويُخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، له ما في السماوات وما في الأرض ، مِلكًا ومُلكًا ، لا يملك أحد مثقال ذرة في

السماوات والأرض، ما لأحد فيهما من شرك، الشمس والقمر والنجومُ مسخرات بأمره، والأرض وما عليها ممهدة بقدرته، مسيرة بمشيئته، وفق حكمته، وهو الذي يُرسل الرياح فتثير سحابًا، فيبسطه في السماء كيف يشاء، ثم يجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله، وهو الذي سخر الفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وهو الذي جعل الأرض ذلولاً، ليمشي الناس في مناكبها ويأكلوا من رزقه، كل من في السماوات والأرض خلقه وعباده، الملائكة في السماوات، والجن والإنس في الأرض، كلهم في طوع مشيئته، الملائكة جنده المطيعون بفطرتهم: ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ [الأنبياء: ٢٧]، فهو تعالى مع عباده جميعًا بعلمه وإحاطته: ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ [الحديد: ٤]، وهو مع المؤمنين خاصة بتأييده ومعونته: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨]، الكون كله - عالميه ودانيه - صامته وناطقه، أحياؤه وجماداته كله خاضع لأمر الله، منقاد لقانونه، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن تسبيح الكون لله وسجوده لله، حقيقة كبيرة، عميت عنها أعين، وصُمت عنها آذان، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم، ويسمعون بآذان قلوبهم، إذ هم يرون الوجود كله محرابًا، والعوالم كلها ساجدة خاشعة، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال﴾ [الرعد: ١٥].

✸ **الإيمان بالنبوات:** هو فرع عن الإيمان بالله، فما كان ليخلق الإنسان ويتركه يتخبط على غير هدى، فمن تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة، كما هداه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له زاده الروحي، كما هيأ له زاده المادي، وأن ينزل الوحي من السماء ليحيي القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ما كان بعد الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه، وإنما كانت الحكمة في إرسال رسله بالبينات ليهدوا الناس إلى الله، ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد، ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولاً عنه يبلغهم بأمره ونهيه، فيقول نوح، عليه السلام: ﴿يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسولٌ من رب العالمين ۞ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ۞ أوَ عجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون﴾ [الأعراف: ٦١- ٦٣]، ويقول هود، عليه السلام، لقومه ما يقرب من هذا المقال، ويقول القرآن ردًا على المشركين الجاحدين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحرٌ مبينٌ﴾ [يونس: ٢].

والهداية بالوحي هي أعلى مراتب الهداية التي منحها الله للإنسان، فهناك الهداية الفطرية الكونية، وهي التي عُبر عنها أحد العلماء حين قيل له: متى عقلت؟ قال: منذ نزلت من بطن أمي، جعت فالتقمت الثدي، وتألمت فبكيت!!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات، وهي التي عبر عنها بالوحي في شأن النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ [النحل: ٦٨]، بل هي منبثة في أجزاء الكون كله؛ في النبات الذي يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم، وفي الكواكب التي يسير كل منها في مداره الذي لا يتعداه، وفق قانون لا يتخطاه: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠]، فهي هداية عامة للمخلوقات علويها وسفليها، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى، عليه السلام، لفرعون قال: ﴿فمن ربكما يا موسى ۞ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

✸ **والمرتبة الثانية:** للهداية مرتبة الحواس الظاهرة؛ كالسمع والبصر والشم والذوق، والباطنة؛ كالجوع والعطش والفرح والحزن، وهذه المرتبة أرقى من الأولى، ففيها

نوع من الانتباه ، وقدر من الإدراك ، وإن كانت لا تسلم من الخطأ .

✸ **والمرتبة الثالثة** : هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة ، وهو أرقى رتبة من الحواس ، وإن كان كثيرًا ما يعتمد على الحس في الحكم والاستنباط ، وبذلك يتعرض للخطأ كما يتعرض له في ترتيب المقدمات ، واستخلاص النتائج ، والعقل في عملياته العليا من خصائص الإنسان التي تفرد بها عن الحيوان .

✸ **والمرتبة الرابعة** : هي هداية الوحي ؛ وهي التي تصحح خطأ العقل وتنفي وهم الحواس ، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده ، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول : ﴿كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاَّ الذين أُوتوهُ من بعد ما جاءتهم البينات بغيًا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾ [البقرة : ٢١٣] ، والإيمان بالنبوة والرسالة يتضمن في حناياه معاني جديدة ، فمعناه الإيمان بحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ، فحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، هما اللتان اقتضتا ألا يترك الناس سُدًى ، وألا يعذبوا قبل البلاغ والتبشير والإنذار ، وألا يُتركوا للخلاف يأكلهم دون حكم يرجعون إليه : ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سُدى﴾ [القيامة : ٢٦] ، ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء : ١٥] .

ومعناه الإيمان بوحدة الدين عند الله ، وأنه دين الله في جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغير ، وإن تعددت المناهج والشرائع باختلاف الأعصار : ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة : ١٢٦] .

ويصور رسول الإسلام موقفه من الأنبياء قبله ؛ أنه ليس إلا اللبنة الأخيرة في هذا الصرح الكبير ، فيقول : ((مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاَّ وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين)) .

ومعناه الإيمان بمثل عليا إنسانية واقعية ، وقدوات بشرية ممتازة ، استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق وصوالح الأعمال ، وفضائل النفوس حقائق واقعة ، وشخوصًا مرئية للناس ، لا مجرد أفكار في بعض الرءوس ، أو أماني في بعض النفوس ، أو نظريات في الكتب والقراطيس ، وجمهور الناس ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات ، وإنما يؤمنون وينفعلون بما يُشاهدون وما يحسون ، لهذا جعل الله الرسل إلى الناس بشرًا مثلهم ، لا ملائكة من غير جنسهم ؛ لأن الإنسان لا يأنس إلا لمثله ، ولا يقتدي إلا بمثله ، ولا تقوم عليه الحجة إلا به ، وقد استبعد المشركون أن يكون الرسل بشرًا ، وقالوا منذ عهد نوح : ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكةً﴾ [فصلت : ١٤] ، وقالوا في عهد محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿أبعث الله بشرًا رسولاً﴾ [الإسراء : ٩٤] ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنبعث الله بشرًا رسولاً﴾ [الإسراء : ٩٥] ، فالأنبياء ليسوا آلهة وإنما هم بشر مثلنا ، منَّ الله عليهم بنعمة الوحي ليبلغوا رسالة الله إلى الناس .

✸ **الإيمان بالآخرة** : كيف يسيغ العقل أن ينفضَّ سُوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل ، وبغى فيها من بغى ، وتجبر من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه ، بل تستر واختفى ، فأفلت ونجا ، أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت !!

وفي الجانب الآخر ؛ كم أحسَنَ قوم ، وضحوا وجاهدوا ، ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، إما لأنهم جنودٌ مجهولون ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير ، وكم من قوم دعوا إلى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون في طريقهم ، وأوذوا وعُذبوا ، واضطهدوا وشردوا ، وسقطوا صرعى في سبيله وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية ، بل في ترف ونعيم ، ألا يسيغ العقل - الذي يؤمن بعدالة الله الإله الواحد - بل يطلب أن توجد دار أخرى ، يُجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ! هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السماوات والأرض : ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ۞ ما

خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ۞ إنَّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ [الدخان : ٣٨- ٤٠]، ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار ۞ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص : ٢٧، ٢٨]، ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ۞ وخلق اللّه السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون ﴾ [الجاثية : ٢١، ٢٢]، ﴿وللّه ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ [النجم : ٣١].

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الروم : ٢٧]، بهذا الخلق الأول يستدل القرآن على إمكان البعث، كما يستدل عليه بمظاهر قدرة اللّه في عالم النبات : ﴿يأيها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمًّى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئًا وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ۞ ذلك بأنَّ اللّه هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيءٍ قديرٌ ۞ وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأن اللّه يبعث من في القبور ﴾ [الحج : ٥- ٧].

ويستدل القرآن على إمكان البعث بخلق الأجرام العظيمة في هذا الكون من السماوات والأرض، وهي - لمن تأمل - أكبر من خلق الناس وأعظم : ﴿أوَ ليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاقُ العليمُ ﴾ [يس : ٨١]، ﴿أوَ لم يروا أن اللّه الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادرٍ على أن يُحيي الموتى بلى إنّه على كل شيءٍ قديرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣].

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق، والميزان العادل : ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن اللّه سريع الحساب ﴾ [غافر : ١٧]، ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [الأنبياء : ٤٧].

وهناك ينقسم العباد إلى شقي وسعيد : ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ ۞ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعَّالٌ لما يريد ۞ وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ [هود : ١٠٦ - ١٠٨].

والجنة دار هيأها اللّه لمثوبة الصالحين من عباده، وأعد فيها من النعيم الروحي والمادي ما عبر عنه في الحديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر »، واقرءوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة : ١٧].

إن الحياة في الدار الآخرة هي الحياة الحقة، وإن نعيمها هو النعيم الذي يقصر الخيال البشري عن وصفه، إنه ليس نعيمًا روحيًّا فقط، ولا نعيمًا ماديًّا صرفًا، وإنما هو مزيج من الأمرين، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحًا مجردة، ولا مادة بحتًا، إنما مركب منهما، فالإنسان في الآخرة امتداد لإنسان الدنيا، وإن اختلف الكيف والتفصيل، فلا عجب أن يكون في الجنة فاكهة ولحم وطيور وحور عين : ﴿ورضوان من اللّه أكبر ﴾ [التوبة : ٧٢]، والنار دار أعدها اللّه لعقوبة الفجار من الخلق، وهي تجمع العقوبتين ؛ المادية والروحية معًا.

فهناك العذاب الحسي : ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : ٥٦]، وهناك العذاب النفسي الذي يتمثل في الهوان والخزي، كقوله تعالى لهم : ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]. نسأله سبحانه الجنة، ونعوذ به من النار.

وللحديث بقية إن شاء اللّه.

د / السيد عبد الحليم
محمد حسين

باب الأدب

الإيمان .. ومزاياه

الحلقة الثالثة

بقلم د / السيد عبد الحليم محمد حسين

❁ عقيدة واضحة :

ولها مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد :

فهي واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربًّا واحدًا خلقه ونظمه ، وقدر كل شيء فيه تقديرًا ، وهذا الإله - سبحانه - ليس له شريك ، ولا شبيه ، ولا صاحبة ، ولا ولد : ﴿ بل له ما في السموات والأرض كلٌّ له قانتون ﴾ [البقرة : ١١٦] .

وهي عقيدة مقبولة ، فالعقل دائمًا يتطلب الترابط والوحدة ، وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يرجع الأشياء دومًا إلى سبب واحد .

فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائمًا على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين ((اعتقد وأنت أعمى)) .

❁ عقيدة الفطرة :

وهي ليست غريبة عن الفطرة ، ولا منافية لها ، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن الكريم : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : ٣٠] .

وصريح الحديث النبوي : ((كل مولود يُولد على الفطرة - أي على الإسلام - وإنما أبواه يُهودانه ، أو يُنصرانه ، أو يُمجسانه)) . متفق عليه .

فدل على أن الإسلام هو فطرة الله ، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين .

أما الأديان الأخرى : من يهودية ، ونصرانية ، ومجوسية .. فهي من تلقين الآباء .

❁ عقيدة ثابتة :

فهي محددة لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل ، فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف إليها ، أو يحور فيها ، وكل إضافة أو تحرير مردودة على صاحبها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) ؛ أي مردود عليه . متفق عليه .

والقرآن الكريم يقول مستنكرًا : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ [الشورى : ٢١] ، وعلى هذا فكل البدع والأساطير التي دست في بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة ، مردودة لا يقرها الإسلام ، ولا تؤخذ حجة عليه .

❁ عقيدة مبرهنة :

فهي لا تكتفي من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم ، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى : ((آمن ثم اعلم)) ، أو : ((أغمض عينيك ثم اتبعني)) ، أو : ((الجهالة أم التقوى)) ، بل يقول كتابها بصراحة : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ١١١] ، ولا يقول أحد علماؤها ما قاله القديس الفيلسوف النصراني ((أوغطسين)) : ((أومن

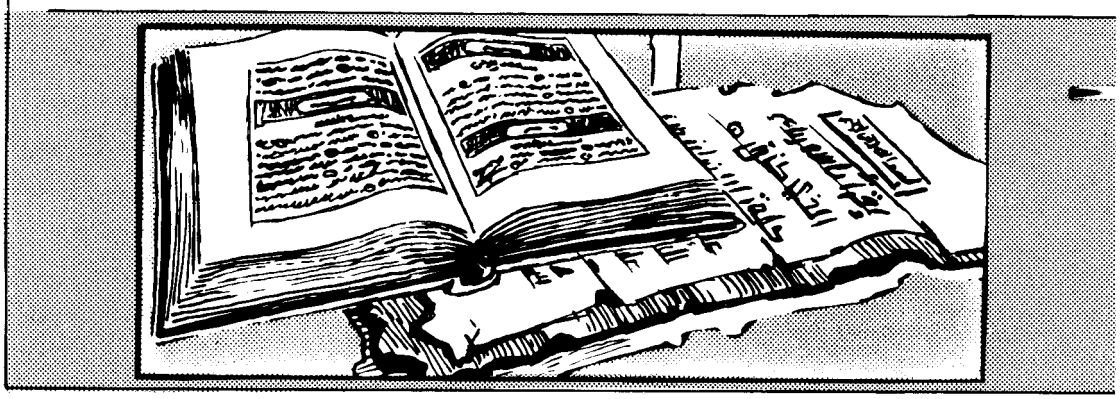

بهذا لأنه محال)) ! بل يقول علماؤها : ((إن إيمان المقلد لا يقبل)) .

وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان ، والاعتماد عليهما أساسًا للاعتقاد ، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع ، والتعليل الواضح ، الذي يملك أزمة العقول ، ويأخذ الطريق إلى القلوب ، ويقول علماؤها : إن العقل أساس النقل ، والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح ، فترى القرآن في قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون ، ومن النفس ، ومن التاريخ على وجود الله ، وعلى وحدانيته وكماله .

وفي قضية البعث يدل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة ، وخلق السماوات والأرض ، وإحياء الأرض بعد موتها ، ويدلل على حكمته بالعدالة الإلهية في إثابة المحسن ، وعقوبة المسيء : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ [النجم : ٣١] .

❋ عقيدة وسط :

فأنت لا تجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً ، هي وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة ، مما لم تصل إليه حواسهم ، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله ، بل يحلون روح الإله في الملوك والحكام ، بل في بعض الحيوانات والنباتات ، مثل الأبقار والأشجار ، بل يحلون الإله في الكون كله حتى يصير الناسوت لاهوتًا ، واللاهوت ناسوتًا ، فقد رفضت الإنكار الملحد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والإشراك الغافل ، وأثبتت للعالم إلهًا واحدًا ، لا إله إلا هو : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴿٨٤﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴿٨٥﴾ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴿٨٦﴾ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴿٨٧﴾ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴿٨٨﴾ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ [المؤمنون : ٨٤- ٨٩] .

وهي عقيدة وسط في صفات الإله :

فليس فيها الغلو في التجريد الذي يجعل صفات الإله مجرد سلوب لا تُعطي معنى ، ولا توحي بخوف أو رجاء - كما فعلت الفلسفة اليونانية - فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا ، من غير أن تقول : ما صفات هذا الإله الإيجابية ؟ وما أثرها في هذا العالم ؟

ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية ، جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالنوم والتعب والراحة ، والتحيز والمحاباة والقسوة . و ... وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء فيصارعه ، فلم يتمكن الربّ من الإفلات منه ، حتى أنعم عليه بلقب جديد !!

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله - إجمالاً - عن مشابهة مخلوقاته : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ [الإخلاص : ٤] .

ومع هذا تصفه تفصيلاً بصفات إيجابية فعالة : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه

السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿ إن بطش ربك لشديد ۞ إنه هو يبدئ ويعيد ۞ وهو الغفور الودود ۞ ذو العرش المجيد ۞ فعال لما يُريد ﴾ [البروج : ١٢- ١٦] .

وهي وسط بين التسليم الأبله الذي يأخذ عقائد الآباء بالوراثة ، كما يرث عنهم العقارات والأملاك : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أُمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شيء حتى الألوهية ، وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التي بين جنوبهم ولا ماهية حياتهم ، وموتهم ، ولا كنه شيء من القوى الكونية المحيطة بهم ، فكيف يطمع العقل بعد ذلك في معرفة كنه الألوهية ؟ وهل يعرف النسبي كنه المطلق ، ويعرف المحدود كنه غير المحدود ؟ وهي مع هذا تفتح الباب للنظر في الكون والتفكير فيه : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ [يونس : ١٠١] ﴿ أَوَ لم يتفكروا في أنفسهم ﴾ [الروم : ٨] ، ﴿ أَوَلم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، ﴿ وفي الأرض آياتٌ للموقنين ۞ وفي أنفسكم أفلا تُبصرون ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١] .

وهي وسط في علاقتها بالعقائد الأخرى ، فلا تقبل الذوبان في غيرها ، بل تدعو في قوة إلى الثبات عليها ، والاستمساك بها : ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ [النمل : ٧٩] ، ﴿ فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنك على صراطٍ مستقيم ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية : ﴿ الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ [الشورى : ١٥] ، بل يتسع صدرها لما يخالفها : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون : ٦] ، ﴿ لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون ﴾ [يونس : ٤١] ، تهيب بأصحابها أن يدعو إليها : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ [فصلت : ٣٣] ، ولكنها لا ترضى بإكراه أحد على اعتناقها : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، لا تقبل التهاون في موادة من يحاربونها ، ويضعون العراقيل في سبيلها ، وإن كانوا من ذوي القرابة القريبة : ﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ، ولا يعتدي على أهلها : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وهي وسط بين الذين يتساهلون في إثبات العقائد ، فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام ، وهذا معين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير ، وبين الذين لا يقبلون في العقيدة أي خطرة تمر بالذهن ثم تختفي ، أو هاجس يهجس في النفس ثم يزول . لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن في أصول العقيدة - فضلاً عن الشك أو الوهم - قال سبحانه : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنًّا إن الظن لا يغني من الحق شيئًا ﴾ [يونس : ٣٦] ، ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ [النجم : ٢٣] ، ﴿ وما لهم به من علمٍ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا ﴾ [النجم : ٢٨] .

ومع هذا تسامحت في الخواطر التي لا يسلم منها العقل البشري ، بل اعتبرتها أحيانًا دليل يقظة العقل ، ومظنة الطمأنينة ، وعلم اليقين . قال بعض الصحابة : يا رسول الله ، إنا نجد في أنفسنا ما لو أن نَصِير حممًا - يعني : فحمًا محترقًا - أهون من أن نتكلم به - يعنون خطرات ترد عليهم في قضايا الألوهية - فقال النبي صلى الله عليه وسلم في صراحة وقوة : ((أو قد وجدتموه ؟ ذاك صريح الإيمان)) . رواه البخاري وغيره .

ويروي الحاكم أن ابن عباس ، وابن عمر التقيا ، فقال ابن عباس : أي آية في كتاب الله أرجى ؟ فقال ابن عمر : قول الله : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال أَوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، فرضي منه بقوله : ((بلى)) ، فهذا لما يعترض في الصدر مما يوسوس به الشيطان .. إنها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها إلهام الملَك في قلب المؤمن ،

إنها طيف يلوح ثم يختفي ، وهاجس يهجس ثم يزول بإسلام الوجه لله ، والاعتصام بهداه ، وتلاوة آياته : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : ١٠١] ، ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ [لقمان : ٢٢] .

وهي وسط في أمر النبوة ، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية ، فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله ، كما اعتقد أهل الملك في أنبيائهم .. ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس ، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات ، وفعل المنكرات ، من شرب للمسكرات ، واتباع للشهوات - بل قتل للنفوس في سبيلها - كما رأينا في وصف أسفار العهد القديم للأنبياء .

وإنما الأنبياء في عقيدة الإسلام بشر أصفياء ، علم الله طيب معادنهم ، وحسن استعدادهم ، فأنزل وحيه عليهم : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، وجعلهم أسوة لأتباعهم ، وعصمهم من قبائح الذنوب ، ودنيء الأعمال ، حتى لا يتوجه إليهم وعيد الله : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٤٤] ، وحتى يكونوا أهلاً لعهد الله : ﴿ قال لا ينالُ عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وهي عقيدة وسط في قضية الإرادة الإنسانية ، قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التي حار العقل البشري في الوصول إلى رأي فيها ، وتنازع فيها الفلاسفة وعلماء الأخلاق والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم .

وعقيدة الإسلام في هذا هي العقيدة الوسط المطابقة للفطرة السليمة ، والواقع المشاهد ، فالإنسان في دائرة أعماله الاختيارية - حر مسئول عن قوله وعمله ، له أن يفعل وأن يترك ، وأن يقدم وأن يحجم - كما تشهد بذلك بديهته وإحساسه ، وكما تشهد نصوص القرآن : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ﴿ إن هذه تذكرةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ [المزمل : ١٩] ، ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ [المدثر : ٣٧] ، ﴿ من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [الجاثية : ١٥] ، ﴿ لا تُكلف نفسٌ إلا وسعها ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

إلى غير ذلك من آيات تبلغ المئات كلها تقرر حرية الإنسان ، ومسئوليته عن عمله .

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا التقرير الإيجابي ، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر ، محتجين بمشيئة الله ، فقال : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ [الأنعام : ١٤٨] . ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ [النحل : ٣٥] . ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ [يس : ٤٧] .

ولكن الإنسان - كما هو الواقع - ليس مطلق الإرادة ، كامل الاختيار ، بحيث يفعل كل ما يشاء ، وينفذ كل ما يريد ، ولو فعل لكان إلهًا .

ولن يستطيع أحد - مهما بلغ للانتصار للحرية الإنسانية - أن ينكر هذه المحدودية لإرادة البشر ، فقد حكموا فيه الوراثة ، أو البيئة ، أو كليهما ، وقال بعضهم : ((الإنسان حر في ميدان من القيود)) . حتى أولئك الماديون الجدليون قيدوه بوسائل الإنتاج ، وظواهر الاقتصاد ، فنزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من ((الجبرية)) حين جعلوه عبدًا خاضعًا لمظاهر المادة .. لا سيدًا مهيمنًا عليها كما يقرر الإسلام .

هذه الحقيقة المتفق عليها قررها الإسلام في صورة أشرف وأكرم للإنسان ، فهو حر مختار في دائرة ما رسم الله للوجود من سنن ، يجريها بعلمه وحكمته ومشيئته على أجزاء الكون كله ، ومنها هذا الإنسان ، فهو حر ؛ لأن الله أراد الحرية ، أو هو يشاء ؛ لأن الله هو الذي قدر له أن يشاء : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

وللحديث بقية إن شاء الله .

الإيمان ومزاياه

الحلقة الرابعة

قضية الإيمان ليست أمرًا على هامش الوجود يجوز لنا أن نغفله أو نستخف به أو ندعه في زوايا النسيان ، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره ؟ فقضية الإيمان أعظم قضية مصيرية بالنظر إلى الإنسان .

إنها سعادة الأبد أو شقوته ، إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا ، فكان لزامًا على كل ذي عقل أن يفكر فيها ، ويطمئن إلى حقيقتها .

وقد فكر الكثيرون من أولي الألباب ، وانتهى كل منهم إلى إثبات العقيدة في اللّه بطريقه الخاص ، فمنهم من استند إلى صورة الفطرة في أعماقه : ﴿ أفي اللّه شكٌ فاطر السموات والأرض ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، ومنهم من اعتمد على مبدأ ((السببية)) الذي يقرر أن كل صنعة لا بد لها من صانع ، وكل حادث لا بد له من محدث ، وكل حركة لا بد لها من محرك ، وكل نظام لا بد وأن يكون وراءه منظم ، وهذا المبدأ ثابت الأوليات البديهية في العقول .

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية رياضية ، فانتهى إلى أن الأضمن لحياته وما بعد مماته أن يؤمن باللّه وبالآخرة ، والبعث والجزاء ، وفي هذا يقول أبو العلاء المعري :

قال المنجم والطبيب كلاهما

لا تبعث الأموات ، قلت : إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر

أو صح قولي فالخسار عليكما

وقال الفيلسوف الرياضي ((بسكال)) : إما أن نعتقد أن اللّه موجود ، أو لا نعتقد ذلك ، فماذا تختار ؟ إن عقلك لعاجز كل العجز أن يختار ، وإنها للعبة جارية بينك وبين الطبيعة ، رمى فيها كل منكما بسهمه ، ولا بد أن يرجع أحد السهمين ، فوازن بين كل ما يمكن أن تربح ، وما يمكن أن تخسر ، إذا راهنت بكل ما تملك على ظهور السهم الأول - أي على وجود اللّه - فإذا كسبت الرهان ، فقد حصلت على سعادة أبدية ، فإذا أخفقت ، فسوف لا تفقد شيئًا مهمًا ، فلست تخاطر إلا بشيء فان ، وكل غرم فان - ولو كان محقق الوقوع - متحمل ومعقول .

ونزيد على هذا فنقول : إن الذي يؤمن باللّه والدار الآخرة لا يخاطر بدنياه الفانية ليربح آخرته الباقية .. كلا ، إنه بإيمانه يربح الحياتين معًا ، ويفوز بالحسنيين في الدنيا والآخرة جميعًا ، وصدق اللّه العظيم : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند اللّه ثواب الدنيا والآخرة ﴾ [النساء : ١٣٤] ، ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾ [النحل : ٣٠]

إن العبادات التي فرضها الدين ، إنما صان بتحريمها على الإنسان عقله وخلقه ونفسه وماله وعرضه ونسله ، فهو إنما : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

والدين إذا حرم على الناس شيئًا ، عوضهم ما هو خير منه ، مما لا يشتمل على مفسدة الشيء المحرم .

إن المؤمن لم يخسر بعبادة اللّه سبحانه واتقائه ما حرّم اللّه عليه ، وإنما ربح الهدى والاستقامة على الحق والثبات على الخير ، والاستعلاء على الشهوات ، وربح بعد ذلك هدوء النفس ، وطمأنينة الحياة .

وفي عصرنا هذا أصبح الناس يجرون وراء المنفعة لاهثين ، حتى أن كثيرًا منهم ليرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع أو ما تقوم البراهين على صحته .

وقد قام مذهب برأسه ينادي بأن : المنفعة مقياس الحقيقة ، ويصر على أن المهم من كل شيء هو نتائجه وما يترتب عليه من آثار في حياتنا العملية ،

وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع ، بل انسجامه مع ما يقع ، وهكذا .

فكل شيء يحكم عليه بما يتبعه من نتائج ، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا ومع ما نريد من مقدماتها كانت خيرًا وصدقًا وحقًا ، وإن كانت غير ذلك كانت شرًا وكذبًا وباطلاً ، ولا يوصف الفعل بحسن ولا قبيح ، ولا يوصف القول بالصدق والكذب حتى تعرف ثمرته ، هذا هو مذهب ((البراجماتزم))[1] .

إننا لا نخشى هذا المذهب على عقيدتنا - وإن كنا لا نوافق عليه في الجملة - فإننا نؤمن أن أنفع شيء للناس هو الحق ، وأن أضر شيء بالناس هو الباطل ، وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً للحق بالماء السائل ، والمعدن النافع ، وللباطل بالزبد الرابي على وجه الماء حين يسيل به الوادي ، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يوقد عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع .

ثم قال معقبًا على هذا التمثيل : ﴿ كذلك يضرب اللّه الحق والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب اللّه الأمثال ﴾ [الرعد : ١٧] .

والذي يمكث في الأرض هو الحق ، وهو الذي عبر عنه القرآن بـ ﴿ ما ينفع الناس ﴾ . إنه ينفعهم ماديًا وروحيًا ومعنويًا ، ينفعهم أجسامًا وعقولاً ، وينفعهم أفرادًا وجماعات ، وينفعهم دنيا وآخرة .

نحن نختلف مع الماديين في قياس المنفعة ، وتحديد نوعها ومداها ، نحن لا نقيس المنفعة بالكم وبالمادة فحسب ، ولا نعتبر المنفعة الفردية وحدها ، بل ندخل في اعتبارنا الكم والكيف والمادة والروح والفرد والمجتمع جميعًا ، ولا نقصر المنفعة على الحياة العاجلة هنا ، بل نضع في حسابنا دائمًا الحياة الآخرة ، حياة الخلود التي أعدت للإنسان وأعد لها الإنسان .

ولو احتكمنا إلى مقياس المنفعة وحدها ، ورضينا منطق الذين لا يعتنقون فكرة إلا لمصلحة ، ولمصلحة دنيوية فحسب .. لوجدنا الدين - مع هذا - ثقيل الميزان ، مبين السلطان ، فقد أثبت التاريخ والاستقراء لحياة البشر أن الدين ضرورة لا غنى عنها ؛ ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ، وتزكو نفسه ، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ، ويرتفع ويرتقي .

والفرد بغير دين ولا إيمان ريشة في مهب الريح ، لا تستقر على حال ، ولا تعرف لها وجهة ، ولا تسكن إلى قرار مكين .. الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له قيمة ولا جذور ، إنسان قلق متبرم حائر ، لا يعرف حقيقة نفسه ، ولا سر وجوده ، ولا يدري من ألبسه ثوب الحياة ، ولماذا ألبسه إياه ، ولماذا ينزعه عنه بعد حين ؟! وهو بغير دين ولا إيمان : حيوان شره ، أو سبع فاتك ، لا تستطيع الثقافة والقانون - وحدهما - أن يحدًا من شراهته ، أو يقلما أظفاره .

والمجتمع بغير دين ولا إيمان مجتمع غابة ، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة ، والحضارة والبقاء للأشد والأقوى ، لا للأفضل ، ولا للأتقى ، مجتمع تعاسة وشقاء ، وإن زخر بأدوات الرفاهية ، وأسباب النعيم ، مجتمع تافه رخيص ؛ لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج ، فهم : ﴿ يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ [محمد : ١٢] .

والعلم المادي وإن امتد رواقه ، واتسعت ميادينه ، ليس بمستطيع أن يحقق الطمأنينة والسعادة للناس ؛ لأن العلم يُرقي الجانب المادي للحياة ، فيختصر الشقة البعيدة ، والزمن الطويل ، إلى مدة أقصر ، ولهذا سموا عصرنا هذا : عصر السرعة ، أو عصر التغلب على المسافات .

ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر الفضيلة ، أو عصر الطمأنينة ، أو عصر السعادة للبشر ؟ إن العلم هيأ للإنسان الحديث وسائل الحياة ، ولكنه لم يهده إلى غاياتها .. إنه زيّن له ظاهرها ، ولكنه لم

---

(١) مقتبس من خاتمة الدكتور محمود حب اللّه لكتابي ((إرادة الاعتقاد)) ، و((العقل والدين)) لوليم جيمس .

يصله بأعماقها ، وما أتعس الإنسان ، إذا أغرقته الوسائل ، فذهل عن الغايات ، وإذا شغل بالسطح عن القاع ، وبالقشر عن اللباب .

العلم المادي أعطى الإنسان أدوات كثيرة ، ولكنه لم يعطه قيمة كبيرة أو هدفًا رفيعًا يحيا له ويموت عليه .

ذلك أن هذه الحياة ليست وظيفة العلم ، وليس من اختصاصه ، وإنما ذلك من اختصاص الدين ، هناك كثير من المفكرين والفلاسفة من لا يؤمنون باللّه ، ولكنهم يؤمنون بالإيمان باللّه : أي يعتقدون بنفع هذا الإيمان باعتباره قوة هادية وموجهة ، وقوة مؤثرة دافعة ، وقوة منشئة خلاقة .

لم يستطع هؤلاء أن يجحدوا ما للإيمان باللّه من طيب الأثر في نفس الفرد ، وفي حياة المجتمع ، فقال بعضهم : لو لم يكن اللّه موجودًا لوجب علينا أن نخلقه !! أي نخترع للناس إلهًا يؤمنون به ويلتمسون رضاه ، ويخافون حسابه ، حتى ترتدع الأنفس الشريرة ، وتستقيم أخلاق الجماهير ، وقال آخر : لم تشككون في اللّه ، ولولاه لخاننتي زوجتي ، وسرقني خادمي ؟!

ولا نوافق على منطق هؤلاء ، فإن الحق أحق أن يتبع ، مهما تكن نتيجته ، والأباطيل يجب أن تطارد كيفما كانت العاقبة ، ولكن الذي يعنينا من قول هؤلاء - وهم خصوم الدين وأعداء الإيمان - أثر الدين والإيمان في النفس والحياة الذي لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف ، ولو كان من خصوم الإيمان .

إن الحقيقة يجب أن تحترم لذاتها ، وإن لم تجلب نفعًا ، أو تدفع ضررًا ، فكيف إذا كان من ورائها أعظم المنافع ، وأطيب الثمرات .

ووجود اللّه تعالى وتفرده بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة وبعثة النبيين وصدق ما أخبروا به عن الحياة الآخرة ؛ كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته ، والإيمان به واجب ؛ لأنه حق ، ومع أنه حق فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن ، ورقي الفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة .

فمزايا الإيمان الذي يعطي آثارها في النفس والحياة إنما نعني به الإيمان القوي الدافق ، الإيمان حين يبلغ مداه ، ويشرق على القلوب سناه ، ويخط في أعماق النفوس مجراه ، ولا نقصد الإيمان الضعيف المزعزع ، الإيمان المخدر النائم ، إنما نقصد الإيمان الحي اليقظ ، ولا يضرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون ، ونحن نناقش الماديين الذين يشككون في قيمة الإيمان ليعلموا أن الإيمان الذي يحاربونه كلما زاد عمقه في القلوب وسلطانه على النفوس ، ازداد أثره المبارك في حياة الأفراد والجماعات .

وإذا كان هذا أثر الإيمان عمومًا ، فإن الإيمان الإسلامي خصوصًا أكثر نفعًا ، وأطيب ثمرًا ، فإن الإيمان في الأديان الأخرى قد علق به ما شابه ، وكدر صفاءه ، وربما أمكن أن يؤخذ من تعاليم بعض الأديان ، أو سلوك رجالها ، بأنها عدو للحياة ، أو أفيون للشعوب .

إن عقيدة الإسلام تتسع للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة ، إنها عقيدة التوحيد التي تغرس في النفوس الكرامة والحرية ، وتجعل الخضوع لغير اللّه كفرًا وفسقًا وظلمًا ، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللّه .

وإذا كان للدين وللإيمان هذا الأثر في كل بلاد الدنيا ، فإن أثره عميق ، وضرورته أعظم في بلادنا الإسلامية والعربية خاصة .

إن لكل قفل محكم أصيل مفتاحًا معينًا ، مهما تحاول فتحه بغيره كانت محاولاتك عبثًا لا فائدة منه ، ولا طائل تحته إلا إضاعة الجهد والوقت في تجارب فاشلة .

ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين ، هو الإيمان ، هو عقيدة الإسلام ، ومهما نحاول أن نزكي هذه الشخصية ، وأن نفجر طاقاتها المكنونة بغير مفتاحها الأصيل - وهو الدين والإيمان - فإننا نحاول عبثًا كمن يبني على الماء ، أو يكتب في الهواء .

وبعقيدة الإسلام انطلق العرب من جزيرتهم يخرجون العالم من الظلمات إلى النور ، ويؤدبون بسيوفهم الأكاسرة والقياصرة ، وكل من صغّر خده من الجبابرة ، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام ، وبعقيدة الإسلام انتصرت أمتنا العربية على أوروبا ، وقد جاءت بقضها وقضيضها في تسع حملات صليبية تريد أن تلتهم الأخضر واليابس في هذا الشرق المسلم .

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على هذا الشرق كالريح العقيم : ﴿ ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ [الذاريات : ٤٢] .

وكادوا يدمرون الحضارة الإنسانية كلها ، لولا أن قيض الله لهم من مسلمي مصر والشام من ردهم على أعقابهم ، وهزمهم بإذن الله في ((عين جالوت)) ، وكان مفتاح النصر صيحة أطلقها القائد المملوكي ((قطز)) ، فهزت المشاعر ، واستثارت العزائم ، وأيقظت الهمم ، وهبت بها على المقاتلين نسمات الجنة ، تلك الصيحة التاريخية : ((وا إسلاماه)) ، وأمتنا العربية اليوم تحارب عدوًا شريرًا ، يجثم على صدرها ، ويحتل قلب ديارها ، ويهدد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق ، ذلك هو (إسرائيل) ، التي تمدها وتعاونها كل قوى الكفر في العالم شرقه وغربه ، ولن نجد في حربنا مع هذا العدو - سلاحًا أمضى ولا أبقى من الإيمان - لا بد من العتاد الحربي ، والقوى المادية ، التي أمرنا الله بإعدادها لنرهب بها عدو الله وعدونا ، ولكن السلاح لا يعمل إلا في يد بطل ، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان .

ولقد فتن أقوام منا بالمذاهب المادية الحديثة التي اقذفنا بها الغرب ، والتي لا تجعل لله ولا للآخرة مكانًا في الحياة ، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادمًا ، وأداة يمكن استخدامها - عند الضرورة - لاسترضاء الجماهير المتدينة ، أو إلهائها ، أو استثارتها لغرض موقوت .

ومن أجل ذلك نحي الدين والإيمان عن مكانه في قيادة الأمة وتربيتها ، وعزل عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام ، وعن سائر ميادين حياتنا الفكرية والعملية ، والاجتماعية والسياسية ، إلا بعض رسوم ومظاهر وقشور أبقيت للدين ، لا تُسمن من شبع ، ولا تُغني من جوع .

إن كل عمل يوجه ضد الدين والإيمان هو عمل عدائي موجه إلى صميم كياننا ، ومقومات حياتنا ، وجذور نهضتنا .

نحن قوم مؤمنون ، وهذا الإيمان هو أساس شخصيتنا ، وسر قوتنا ، ورافع رايتنا ، هو سر مجدنا في الماضي ، وباعث انتفاضتنا في الحاضر ، ومناط آمالنا في المستقبل .

نحن قوم مؤمنون ، وهذه قضية بديهية ، يجب أن يلتقي على حمايتها وتثبيتها وإشاعتها قلم الكاتب ، ولسان الخطيب ، وسلطان الحاكم ، وقوة الجيش ، ورقابة الشعب .

يجب أن يرعاها الأب في البيت ، والمعلم في المدرسة ، والأستاذ في المحاضرة ، والأديب في القصة ، والصحفي في الخبر ، والمؤلف في الكتاب ، وكل ذي فن في فنه .

إن كل ثغرة تفتح في أي جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية لتصوب منها سهام الشك أو الجحود إلى صدر الإيمان تعد خيانة لأمتنا ، وخروجًا سافرًا على مبادئها ، ومروقًا من صفوفها ، وانضمامًا إلى آكد أعدائها ، وتعويقًا لما تقوم به الجوانب الأخرى من جهاد إيجابي .

ولا بد لكلمة الحق أن تعلو وتنتصر ، وكلمة الكفر والشك تهبط وتندحر ، وصدق الله العظيم : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء ۞ تُؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ۞ ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ [إبراهيم : ٢٤- ٢٦].

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

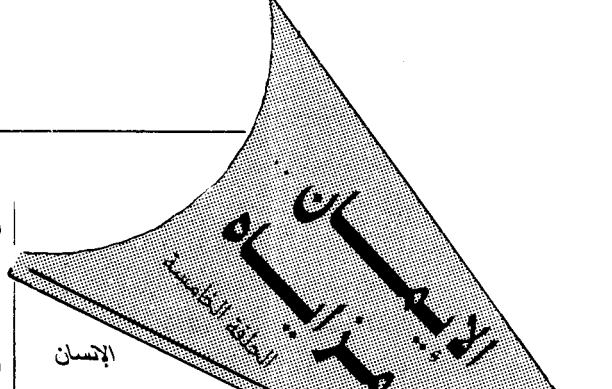

الإنسان ومنزلته

الحلقة الخامسة

الإنسان مخلوق كرمه الله ، خلقه ربه في أحسن تقويم ، صور آدم فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وميزه بالعلم ، فالإنسان محور النشاط في الأرض ، سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فكل ما في الكون له ولخدمته ، أما هو فجعله تعالى لنفسه .

إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه ، وحياة جسمه ، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير . وهل الإنسان في الحقيقة إلا تلك الروح ، وذلك الكيان المعنوي ؟

حقًا ، إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض لحظة في عمر الأزمنة البعيدة الضاربة في أغوار القدم - إن صح ما قالوا - ولكن المؤمنين يؤمنون أن الموت ليس نهاية الإنسان ، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له ، إلى دار الخلود ، إلى حيث يقال للمؤمنين : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : ٧٣] .

وإذا كانت هذه كرامة الإنسان في نظر الدين عامة ، فله في القرآن خاصة أعظم مكانة .

تحدث القرآن عن الإنسان في عشرات ، بل مئات من آياته ، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ، وكانت خمس آيات ، لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه ، علاقة الخلق والتكريم ، وعلاقة الهداية والتعليم ، واختارت الآيات لفظ ((الرب)) لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ۞ الذي علم بالقلم ۞ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١- ٥] .

وفي آيات كثيرة من سور شتى ، بين القرآن قرب الإنسان من الله ، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ، الذين جعلوا من أنفسهم ((حُجابًا)) على أبواب رحمة الله الواسعة ، والله يعلم إنهم لكاذبون : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة : ١١٥] ، ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق : ١٦] ، ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ [المجادلة : ٧] .

ويؤكد الرسول ﷺ هذا المعنى في أحاديثه عن ربه : ((أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليَّ شبرًا ، تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليَّ ذراعًا ، تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة)) . رواه البخاري .

وقد أراد الله أن يكرم آدم ، فأمر الملائكة أن تسجد له : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين ۞ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ۞ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ۞ إلا إبليس ﴾ [ص : ٧١- ٧٤] .

لقد عصى إبليس أمر ربه فأبى السجود لهذا الإنسان ، ودفعه الحسد والغرور أن أبى واستكبر وكان من الكافرين ، واتخذ من الإنسان موقف العداء ، فماذا كانت عاقبة هذا العدو المبين ؟ كانت كما ذكر القرآن قال : ﴿ فاخرج منها فإنك رجيم ۞ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ [ص : ٧٧، ٧٨] .

أما مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض فهو مركز السيد الذي سخر كل ما في هذا العالم لنفعه ، ولإصلاح أمره ، وكأن كل شيء في هذا الكون قد ((نسج)) من أجله ، و((فصل)) على ((قده)) تفصيلاً : ﴿ اللّه الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ۞ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٢- ٣٤] ، ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ﴿ اللّه الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ۞ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الجاثية : ١٢، ١٣] ، ﴿ ألم تروا أن اللّه سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] ، وتلك هي مكانة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه .

هذا الاستعداد في الإنسان ، جعله بصيرًا على نفسه ، بعد أن يسر اللّه له سبل الهداية ، وأزاح عنه كل الأعذار : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة : ١٤] ، ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ﴿ قد أفلح من زكاها ۞ وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : ٩، ١٠] ، ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء : ٧] ، لقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله ، روحه وجسده ، وعقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة ، وأشواقه الصاعدة ، لم يضع في عنقه غلاً ، ولا في رجله قيدًا، ولم يُحرّم عليه طيبًا ، ولم يغلق في وجهه باب خير ، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به ، بل خاطبه خطابًا مباشرًا : ﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ۞ الذي خلقك فسواك فعدلك ۞ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ [الانفطار : ٦- ٨] ، ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه ﴾ [الانشقاق : ٦] .

هذه هي معاني الكرامة والعزة التي تغرسها العقيدة في قلب المؤمن باعتباره ((إنسانًا)) ، ولكنه بوصفه ((مؤمنًا)) يشعر بمعان أعمق ، وعزة أشمخ ، ويسمو به إيمانه إلى سماء عالية ، لا يسعى إليها على قدم ، ولا يطار على جناح ؟ وهو بوصفه عضو في أمة الإيمان ، يشعر بكرامة أكبر ، وعزة أخرى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللّه ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : ٧٨] .

يشعر المؤمن بالعزة التي سجلها اللّه في كتابه للمؤمنين ، مقرونة بالعزة لنفسه ولرسوله : ﴿ وللّه العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] ، ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحرية التي بها يعلو ولا يعلى ، ويسود ولا يُساد : ﴿ ولن يجعل اللّه

للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ [النساء : ١٤١] ، ويشعر أنه في ولاية اللّه البر الكريم ، ولاية المعونة والنصرة ، والرعاية والهداية : ﴿ ذلك بأن اللّه مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : ١١] ، ﴿ اللّه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

ويشعر المؤمن أنه في معية اللّه الذي يكلؤه دومًا بعينه التي لا تنام ، ويحرسه في كنفه الذي لا يرام ، ويمده بنصره الذي لا يُقهر : ﴿ وأن اللّه مع المؤمنين ﴾ [الأنفال : ١٩] ، ﴿ وكان حقًا علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم : ٤٧] ، ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقًا علينا ننجِ المؤمنين ﴾ [يونس : ١٠٣] .

ويشعر المؤمن أنه في حماية اللّه القوي القدير ، يذود عنه ، ويرد عن صدره سهام الكائدين والمعتدين : ﴿ إن اللّه يدافع عن الذين آمنوا إن اللّه لا يحب كل خوان كفور ﴾ [الحج : ٣٨] .

والقرآن يجعل المؤمنين مقياسًا لصلاح الأعمال أو فسادها ، فحكمهم عند اللّه معتبر ، وأعمالهم مرقوبة برؤية اللّه ورسوله : ﴿ وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، وإذا كانت هذه الآية توحي بأن رضا المؤمنين من رضا اللّه ، فإن مقتهم أيضًا من مقت اللّه سبحانه : ﴿ كبر مقتًا عند اللّه وعند الذين آمنوا ﴾ [غافر : ٣٥] ، وذلك لأنهم لا يخلدون إلى معصية ، ولا تقر أعينهم إلا بطاعة اللّه وطاعة رسوله ﷺ .

إن هذه المعاني الكبيرة ، والمشاعر الرفيعة ، إذا سرت في كيان فرد ، جعلت منه إنسانًا عزيزًا ، كبير النفس ، كبير الآمال ، إنسانًا لا يحني رأسه لمخلوق ، ولا يطأطئ رقبته لجبروت ، أو طغيان ، أو مال ، أو جاه ، إن شعاره هذه الكلمة : « عزيز في الكون ، عبد للّه وحده » .

لا عجب بعد هذا ، إذا رأينا عبدًا أسود كبلال بن رباح ، حيث يشرب قلبه الإيمان ، يتيه على « السادة » المتكبرين فخرًا ، ويرفع رأسه عاليًا ، فقد صار بالإيمان أرفع عند اللّه ذكرًا ، وأسمى مقامًا ، ينظر إلى أمية بن خلف ، وأبي جهل بن هشام ، وغيرهما من زعماء قريش ، وصناديد مكة ، نظرة البصير للأعمى ، نظرة السائر في النور ، إلى المتخبط في الدجى : ﴿ أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، ﴿ أفمن يمشي مكبًا على وجهه أهدى أمَّن يمشي سويًا على صراط مستقيم ﴾ [الملك : ٢٢] .

ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا أعرابيًا أميًا من البداة الجفاة ، مثل ربعي بن عامر حين باشرت قلبه عقيدة الإسلام ، وأضاء فكره آيات القرآن ، يقف أمام رستم قائد قواد الفرس ، وهو في هيلمانه وأبهته وسلطانه ، غير مكترث له ، ولا عابئ به ، وبما حوله من خدم وحشم ، وما يتوهج بجواره من فضة وذهب ، حتى إذا سأل رستم : من أنتم ؟ أجابه هذا الأعرابي في عزة مؤمنة ، وإيمان عزيز ، إجابة وعاها التاريخ ، وقال : نحن قوم ابتعثنا اللّه لنخرج الناس من عبادة العباد ، إلى عبادة اللّه وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ولا عجب أن تقرأ لشاعر مؤمن يناجي ربه في عبودية عزيزة باللّه ، متذللة إليه ، غنية به ، فقيرة إليه ، قائلاً :

ومما زادني شرفًا وعزًا
وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك ((يا عبادي))

وأن جعلت خير خلقك لي نبيا

إن اعتقاد الإنسان بكرامته التي كرمه اللّه بها ، ومكانه في الملأ الأعلى الذي أحله اللّه إياه ، ومركزه القيادي في هذا الكون ، يجعله يشعر بذاته ، ويغالي بقيمة نفسه ؛ فيعتز بانتسابه إلى اللّه عبدًا ، وارتباطه بكل ما في الوجود له مسخرًا ، فيحيا عزيز النفس ، عالي الرأس ، أبيًا للضيم ، عصيًا على الذل والهوان ، بعيدًا عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ ، وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئًا هينًا ، ولا بضاعة مزجاة ، إنه كسب كبير ، ومغنم ضخم للإنسان ، كسب له في عالم الشعور والتصور ، وفي عالم الواقع والسلوك .

وما أعظم الفرق بين رجلين : يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد ((حيوان)) من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور ، وليس له بعد موته امتداد ، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير ، أكثر من صلة القرود به ، ويعيش الآخر وهو يشعر بأن الكون كله في خدمته ، والملائكة الكرام في حراسته ، وأن رب الوجود في معيته ، وأنه من فصيلة الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن الوجود لا ينتهي بالموت ، وداره لا تنتهي بالقبر ، فإنما خلق موعودًا بالجنة ما استقام على الطاعة وتشبث بالعبودية للّه رب الكون كله .

إن هذا الشعور الأصيل الذي بلغ حد الاعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان في الكون هو أحد المحاور الرئيسة التي تخالف فيها عقيدة الإسلام التفكير المادي الذي يسود حضارة الغرب اليوم في النظرة إلى الإنسان .

إن المغايرة بين النظريتين تتمثل في أمور جوهرية ثلاثة :

١- في منزلة الإنسان في هذا الكون .

٢- وفي طبيعته التي فطر عليها .

٣- وفي غايته ووظيفته في هذه الحياة .

فالعقيدة الإسلامية قد حددت منزلة الإنسان في هذا الكون منذ قال اللّه تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ، فهو نوع منفرد من مخلوقات اللّه ، ليس بجماد ولا نبات ، ولا حيوان ، ولا بملاك ، ولا بشيطان ، إنه مخلوق مكرم فريد مسئول ، ولا يقوم وحده في هذا العالم ، كما زعم بعض الملحدين ، بل يقوم بإرادة رب أوجده وقدره ، إله خلقه في أحسن تقويم ، وعلمه البيان ، ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، ليس الإنسان عبدًا ولا مقهورًا لشيء في هذا الكون ، إلا أنه عبد اللّه وحده .

هذا في عقيدة الإسلام ، أما النظرة المادية فلم تنظر للإنسان على أنه مخلوق كريم أوجده خالق عظيم ، كلا . بل هو نبات شيطاني ، برز من العدم إلى الوجود وحده ، ويعيش وحده ، ويموت وحده ، وبموته تختم روايته كلها .

إنه باختصار حيوان ، قد يقال عنه : ((حيوان راق)) ، أو ((حيوان اجتماعي)) ، أو ((حيوان متطور)) ، ولكنه على كل حال ((حيوان)) ، بيد أنه بواسطة العلم التجريبي استطاع أن يقهر الطبيعة ، ويسيطر على المادة ، وبذلك العلم أصبح هذا الحيوان المتطور ينظر إلى نفسه وكأنه إنه يتصرف في الأرض كما يشاء ، ويظن أنه قادر عليها .

إن هذه النظرة المادية للإنسان أنتجت شعورين مختلفين :

أولهما : شعور الإنسان بالتفاهة والضياع ، ونظرته إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة .

ثانيهما : شعور الغرور والكبر ، ذلك الشعور الذي ينتهي بالإنسان إلى حد تأليه نفسه ، حين يسقط وجود الإله الحق من اعتباره ، ويتصرف وكأنه إله لا يسأل عما يفعل ، كما زعم ((جوليان هكسلي)) ، حين قال : (إن الإنسان في العالم الحديث أصبح هو اللَّه المنشئ المريد)[1] !!

ولما بدأ الإنسان في هذا القرن يفيق من سكرة غروره ، بالتقدم العلمي ، والانقلاب الصناعي ، والازدهار المادي ، بدأ يحس بأزمة نفسه باعتباره إنسانًا متميزًا ، كما ظهر ذلك في كتابات النقاد منهم ، مثل ((أليكس كاريل)) في كتابه ((الإنسان ذلك المجهول)) ، و((سبنجلر)) في كتابه ((تدهور الحضارة الغربية)) ، و((توينبي)) و((رينيه جينو)) و((كولين ولسون)) . وغيرهم .

أما طبيعة الإنسان فهي من أخطر المزالق التي تزل فيها الأقدام ، وتضل فيها الأفهام ، عند النظرة للإنسان نظرًا للازدواج والتعقيد في طبيعته التي ركب عليها ، فليس هو شهوة خالصة ، ولا عقلاً خالصًا ، وليس هو جسمًا محضًا ، ولا روحًا محضًا ، إن تكوينه يشمل الجانبين معًا .

يقول البروفيسور ((سيشوت)) العالم الأمريكي ، والأستاذ بجامعة ((ييل)) في كتابه ((حياة الروح)) : (مسألة حيرت ألباب العلماء منذ عصور موغلة في القدم ، وهي طبيعة الإنسان المزدوجة الغريبة ، فالجانب المادي منه - وهو جسده - يحيا وينمو ثم يموت ، ولكن شيئًا لا تدركه الحواس يبدو أنه يحكم هذا الجسد ، وفي مقدور هذا الشيء أن يشعر وأن يفكر ، إنه ذلك الجانب الذي تتركز فيه خلاصة كيانه .

فالإنسان يبدو وكأنه كائنان : كائن مادي ، وكائن آخر يقابله غير مادي . ترى هل كل منهما حقيقي ؟ أم أن أحدهما لا يعدو أن يكون وهمًا من الأوهام !!

والضلال والانحراف في فهم الإنسان ، وتصور حقيقته ، إنما جاء لإهمال أحد هذين العنصرين في كيانه ، أو نتيجة للفصل بينهما ، واعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر) . اهـ .

والإسلام قد عرف طبيعة الإنسان حق معرفتها ، وقدرها حق قدرها ؛ لأن الإسلام كلمة اللَّه ، والإنسان خلق اللَّه ، وخالق الإنسان لا يجهل طبيعته وكنهه : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : ١٤] .

وقد خلق اللَّه هذا الإنسان جسمًا كثيفًا ، وروحًا شفافًا ، جسمًا يشده إلى الأرض ، وروحًا يتطلع إلى السماء ، جسمًا له دوافعه وشهواته ، وروحًا له آفاقه وتطلعاته ، جسمًا له مطالب أشبه بمطالب الحيوان ، وروحًا لها حاجات تشبعها العبادة والذكر كالملائكة ، هذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرًا طارئًا على الإنسان ، ولا ثانويًا فيه ، بل هي فطرته التي فطره اللَّه عليها ، وأهله بها للاستخلاف في الأرض ، منذ خلق آدم خلقًا جمع بين قبضة الطين ، ونفخة الروح : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ۞ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ۞ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۞ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [السجدة : ٦- ٩] .

وجاءت عقيدة الإسلام ، فلم تحط من الروح من أجل الطين ، ولم تغفل حاجة الطين من أجل الروح ،

---

(١) ((الإنسان في العالم الحديث)) ، ترجمة حسن خطاب (ص: ٢٢٤) .

بل زاوجت بينهما في وحدة متسقة ملتئمة ، وأعطت الروح حاجته ، والجسد حاجته ، في غير إفراط ولا تفريط .

وعرف التاريخ أديانًا ونحلاً تقوم فلسفتها على إغفال الجانب المادي الجسدي في الإنسان ، والعمل على تعذيبه وإضعافه ، لينمو الجانب الروحي فيه ، ويصفو ويقوى ، كالبرهمية الهندية ، والرهبانية المسيحية .

وفي مقابل هذا الاتجاه المادي الذي يجحد أن في الإنسان روحًا ، أو أن في الكون إلهًا ، إذ لا يؤمن إلا بما هو مادي تدركه الحواس وتحكمه التجربة .

وبهذا عاش الإنسان عند هؤلاء نصف إنسان ، بل أدنى ، عاش للجزء الحيواني فيه فحسب . وأما غاية الإنسان ومهمته في الحياة فلقد بينتها عقيدة الإسلام أوضح البيان ، فالإنسان لم يخلق عبثًا ، ولم يترك سدى ، وإنما خلق لغاية وحكمة ، لم يُخلق لنفسه ، ولم يُخلق ليكون عبدًا لعنصر من عناصر الكون ، ولم يُخلق يتمتع كما تتمتع الأنعام ، ولم يُخلق ليعيش هذه السنين التي تقصر أو تطول ، ثم يبلعه التراب ويأكله الدود ، ويطويه العدم .

إنه خلق ليعرف اللّه ويعبده ، ويكون مستخلفًا في أرضه ، حتى يحمل الأمانة الكبرى في هذه الحياة القصيرة : أمانة التكليف والمسئولية ، فيصهره الابتلاء ، وتصقله التكاليف ، وبذلك ينضج ويعد لحياة أخرى في دار الخلد إلى ما شاء اللّه .

إنه لنبأ عظيم حقًا أن يكون هذا الإنسان لم يُخلق لنفسه ، إنما خُلق لعبادة اللّه ، يقولون : إن الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش ، وهذا القول لا يحل العقدة ، فإن العيش نفسه ليس غاية ، فالسؤال لا يزال قائمًا : ولماذا يعيش الإنسان ؟

أما الماديون فقالوا : إنه يعيش لنفسه ومتع دنياه ، وأما المؤمنون فقالوا : إنما يعيش لربه الأعلى ، ولحياته الباقية الأخرى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون ۞ فتعالى اللّه الملك الحق ﴾ [المؤمنون : ١١٥، ١١٦] .

وما أعظم الفرق بين الذي يعيش لنفسه ، والذي يعيش لربه ، بين من يعيش لدنياه المحدودة ، ومن يعيش لآخرته ، لجنته ودار كرامته .

إن النظرة المادية الملحدة لم تعرف للإنسان غاية ؛ لأن الغاية تقتضي قصدًا ، والقصد يقتضي قاصدًا ، وهي تنكر أن يكون للإنسان يوم خلق قصدٌ ، ولهذا فليس للإنسان في نظرها رسالة غير رسالة الكدح وراء العيش ، وابتغاء تحسينه ؛ لهذا قال بعض الأدباء : (من كانت غايته بطنه وفرجه فقيمته ما يخرج منهما) .

إنه لا بد للإنسان من هدف يتطلع إليه غير نفسه وهواها ، وإلا فإنه سيظل يدور حولها كحمار في الرحا ، أو الثور في الساقية ، يدور ويدور والمكان الذي انتهى إليه هو الذي بدأ منه .

إن الوجودي مثله كمثل الكلب الذي يجري دائمًا حول نفسه يمسك ذنبه ، فلا هو يدرك ذنبه ، ولا هو يقف عن الجري ، وهي لعبة يلعبها الكلاب ، حينما يجدون الفراغ ، فيلهون بما لا نتيجة له ، وصدق اللّه العظيم إذ يقول : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ۞ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ۞ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ [الأعراف : ١٧٥- ١٧٧] .

هذا ، واللّه يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

الإيمان ومزاياه..

الحلقة السادسة

السعادة

السعادة هي الغاية التي ينشدها كل البشر ، والسؤال الذي حير الناس من قديم : هو أين السعادة ؟ لقد طلبها الأكثر في غير موضعها ، فحسبوا السعادة في الغنى ، وفي رخاء العيش ، لكن البلاد التي ارتفع فيها مستوى المعيشة ، لا تزال تشكو من تعاسة الحياة ، فكثرة المال ليست هي السعادة ، بل ربما كانت كثرة المال أحيانًا وبالاً على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة ، لذا قال الله في شأن المنافقين : ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ [التوبة : ٥٥] . والعذاب هنا هو المشقة والنصب والذنب والألم والهم والسقم ، فهو عذاب دنيوي حاضر ، على نحو ما ورد في الحديث : « السفر قطعة من العذاب » . [صحيح ابن ماجه (٢٣٣٠)] . وهذا ما نشاهده بأعيننا في كل من جعل المال والدنيا أكبر همه .

ومن أبلغ العذاب في الدنيا - كما قال ابن القيم في « إغاثة اللهفان » -: تشتيت الشمل ، وتفريق القلب ، وكون الفقر نصب عينيه لا يفارقه ، ومُحب الدنيا لا ينفك عن ثلاث : همّ لازم ، وتعبٌ دائم ، وحسرةٌ لا تنقضي ، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئًا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه ، كما في الحديث : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا » . [أخرجه البخاري : (٦٤٣٦)] .

ولقد طلب السعادة كثير من الناس في الأولاد ، ولكن كم من أولاد جروا على آبائهم ، وجزوهم بالعقوق والكفران بدل البر والإحسان ، فمن الآباء من يقول لولده آسفًا آسيًا :

غذوتك مولودًا وعلتك يافعًا
تُعلّ بما أسدي إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت
لبلواك إلا ساهرًا تململ
فلما بلغت السن والغاية التي
إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل

ثم ما حيلة الذين حرموا من الأولاد ؟ أحكم عليهم بالشقاء المؤبد ، والتعاسة الدائمة ؟ هل العلم التجريبي الذي قرب للإنسان البعيد ، وذلل له الصعب أن يُحقق له السعادة ؟

الحقيقة أن المعرفة لا تبقي سببًا للسعادة ، بل كثيرًا ما تكون داعية قلق ، واضطراب .

فعلمنا وإن اتسع المدى ضيق إلى مدى

بقلم د : السيد عبد الحليم محمد

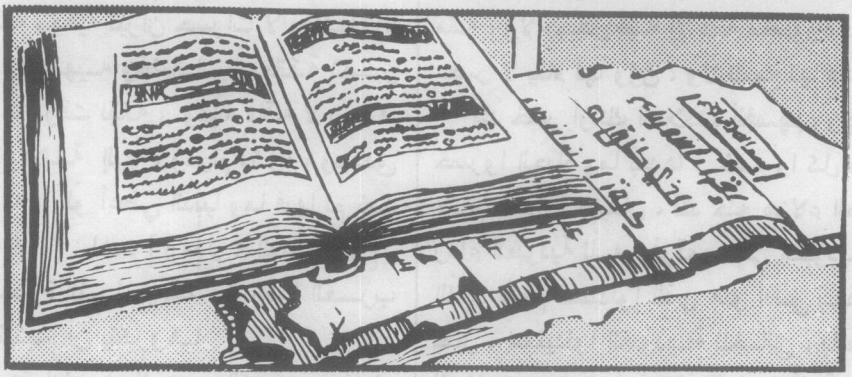

الوجود الذي لا نهاية له ، فالسعادة إذن ليست في وفرة المال ، ولا الجاه ، ولا الولد ، ولا العلم المادي ، إنما هي صفاء نفس ، وطمأنينة قلب ، وانشراح صدر ، فسعادتي في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي .

هذه هي السعادة الحقة ، التي لا يملك بشر أن يعطيها ، ولا يملك أن ينزعها ممن أوتيها .

ولا يُجحد أن للجانب المادي مكانًا في تحقيق السعادة ، كيف ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : ((من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح)) . رواه أحمد بإسناد صحيح .

فحسب الإنسان أن يسلم من المنغصات المادية التي يضيق بها الصدر ، من مثل : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء ، وأن يمنح الأمن والعافية ، ويتيسر له القوت في غير حرج ولا إعنات ، وما أصدق وأروع الحديث النبوي : ((من أصبح آمنًا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)) . رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) والترمذي ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه .

لقد فجر الإيمان في قلب الإنسان ينابيع للسعادة ، تلك هي ينابيع السكينة ، والأمن ، والأمل ، والرضا ، والحب .

فالسكينة : الينبوع الأول للسعادة ، ومصدرها : الإيمان بالله واليوم الآخر .

أسباب السكينة لدى المؤمن :

١- إن أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هُدِيَ إلى فطرته التي فطره الله عليها ، يملؤه الإيمان بالله جل وعلا ، وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد الإيمان الصحيح ، فالإنسان خلق جمع بين قبضة من طين ، ونفخة من روح الله ، فمن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض ، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله ، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها ، وحرمها مما به حياتها وقوامها .

قال ابن القيم رحمه الله : (في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله .

وفيه وحشه لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته ، وصدق

معاملته ، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه ، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له ، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا) . اهـ . [«مدارج السالكين»] .

إنها الفطرة التي لم يملك مشركوا العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعنادًا : ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولُنَّ اللَّه﴾ [العنكبوت : ٦١] .

قال تعالى : ﴿وإذا مسكم الضُّرُّ في البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه﴾ [الإسراء : ٦٧] .

فقد وُجِدَ الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله ، حتى قال أحد كبار المؤرخين : لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حقول ولا حصون ، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد . اهـ .

والانحراف الكبير الذي أصاب البشرية في تاريخها الطويل لم يكن بإنكار وجود اللَّه والعبودية له ، وإنما كان بتوجيه العبادة لغيره ، وإشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء ، ولهذا كانت مهمة رسل اللَّه كافة في جميع العصور هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق ، وكان نداؤهم الأول في أقوامهم : ﴿أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل : ٣٦] ، ﴿اعبدوا اللَّه ما لكم من إله غيره﴾ [الأعراف : ٥٩] .

ومن هنا عنى كتاب اللَّه العظيم - القرآن الكريم - في الدرجة الأولى بالدعوة إلى توحيد اللَّه ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والتوكل والإنابة ، لا بإثبات وجوده سبحانه ، فإن هذا الوجود - على وجه عام - مسلم به ومفروغ منه ، ولا يجادل فيه إلا قلة مغمورة في كل عصر لا يقام لها وزن ، ولا تتسع لها دعوى .

لقد خسر أولئك الملاحدة أنفسهم ووجودهم ، خسروا الحياة وما بعدها ، خسروا كل شيء ؛ لأنهم خسروا الإيمان ، لقد خلع هؤلاء الملاحدة رداء العبودية للَّه ، فوقعوا في العبودية لغير اللَّه ؛ لأنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، استبدلوا العبودية للخالق ، بالعبودية للمخلوق ، واستبدلوا الإله الواحد بآلهة شتى ، واتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللَّه ، فلا واحد منهم إلا وهو عبد لأكثر من سيد ، وخاضع لأكثر من إله ، فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع ، أين هذا من المؤمن الذي رفض كل الآلهة الزائفة من حياته ، وحطم كل الأصنام من قلبه ، ورضي باللَّه ربًا ، عليه يتوكل ، وإليه ينيب ، وبه يعتصم ، وإليه يحتكم ، فلا يبغي غير اللَّه ربًا ، ولا يتخذ غير اللَّه وليًا ، ولا يبتغي غير اللَّه حكمًا .

٢- اهتداء المؤمن إلى سر وجوده : وهو ثاني أسباب السكينة ، والدين وحده هو الذي يحل عقدة الوجود الكبرى ، بما يرضي الفطرة ويشفي الصدور ، فالناس لم يخلقوا من غير شيء ، ولم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يخلقوا مما حولهم ذرة في الأرض أو السماء : ﴿أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۞ أم خلقوا السماوات والأرض﴾ [الطور : ٣٥، ٣٦] ، بل : ﴿ذلكم اللَّه ربكم خالق كل شيء﴾ [غافر : ٦٢] ، لغاية ولحكمة : ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ۞ ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الدخان : ٣٨، ٣٩] ، وهذا الحق الذي به خلقت السماوات والأرض هو ما يستشفه

العقل ، وتحس به الفطرة ، وأن وراء هذه الحياة - حياة الابتلاء والفناء - حياة أخرى ، هي الغاية وإليها المنتهى ويجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، حتى لا يستوي الخبيث والطيب ، والبر والفاجر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار ۞ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ [ص : ٢٧، ٢٨] .

بهذا يهتدي المؤمن إلى سر وجوده ، ووجود العالم كله ، لقد عرف الله فعرف به كل شيء ، وحل به كل لغز ، واهتدى به إلى كل خير ، فالعالم كله مملكة الله ، وكل ما فيه من آثار رحمة الله ، والإنسان خُلِقَ لعبادة الله ، وتحمل أمانة الله ، والحياة هبة من الله ، والموت قدر من الله ، والدنيا مزرعة لطاعة الله ، والآخرة موعد الحصاد والجزاء من الله ، والسعيد من اهتدى بهدى الله ، والشقي من أعرض عن ذكر الله ، والموت هو القنطرة التي تصل ما بين الدارين .

لقد جاء الدين بما يكمل الفطرة ، ويأخذ بيد العقل ، فما أحست به الفطرة في غموض ، جاء الدين فبينه أحسن بيان وأتمه ، وما اهتدى إليه من العقل في إجمال واشتباه ، جاء الدين ففصله أحسن تفصيل ، ومحا عنه الاشتباه .

والدين قد جاء يخاطب الفطرة كلها ، يخاطب العقل والقلب معًا ، والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة ، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه ، وأهملوا جانبًا هامًا في الفطرة الإنسانية ، كما أغلقوا على أنفسهم بابًا واسعًا ما كان أحوجهم إليه ، وما أضل سعيهم بغيره ، هو باب الوحي .

وقد حاول كثير من المفكرين أن يظفروا بطمأنينة النفس عن طريق الفلسفة البشرية بعيدًا عن هدى الله ، ووحي الله، فأفلسوا وعجزوا .

قال الفخر الرازي في كتابه «أقسام اللذات» - بعد أن حصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، وطاف بدائرة المعارف الفلسفية والكلامية لعصره -: (لقد تأملت الكتب الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروي غليلاً ، ولا تُشفي عليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرّب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي) .

فعرف المنصفون أن أهدى السبل وأقربها وآمنها للظفر بالطمأنينة ، إنما هو سبيل الوحي الإلهي المعصوم ، إنه الشفاء من الشك المُحكم ، والقلق المفزع : ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم﴾ [الزخرف : ٤٣] ، ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾ [النمل : ٧٩] ، والحق المبين هو الذي اتضحت أعلامه ، واستبان طريقه ، وزال عنه الغموض ، واللبس والاختلاف ، وشعور الإنسان واعتقاده أنه على الحق المبين ، وأنه صراط مستقيم شعور ، لا يظفر به غير المؤمن بوحي الله وهداه ، أما الذي شرد عن هدي الله ورسالاته فهو ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى﴾ [الأنعام : ٧١] ، وبغير الوحي لن يكون يقين ، وبغير اليقين لن تكون سكينة ، وبغير السكينة لن تكون سعادة .

ونسأله تعالى السعادة في الدنيا والآخرة ، وللحديث بقية إن شاء الله .

الإيمان .. ومزاياه

الحلقة العاشرة

بقلم د. السيد عبد الحليم محمد

السبب الثالث من أسباب السكينة عند المؤمن نجاته من عذاب الشك :

بهذا الإيمان ، سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والحيرة ، التي يتجرع غصصها الجاحدون المرتابون ، لقد عرف أن له ربًا - هو رب كل شيء - الذي خلقه فسوّاه ، وكرمه وفضله ، وجعله في الأرض خليفة وكفل له رزقه ، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه .

وعرف أن هذه الحياة القصيرة التي يعيشها الناس ، ممزوجة الخير بالشر ، والعدل بالظلم ، والحق بالباطل ، واللذة بالألم ليست هي الغاية ، ولا إليها المنتهى ، إنما هي مزرعة لحياة أخرى .

وعرف أنه لم يُخلق في هذه الحياة عبثًا ، ولم يترك سدى ، فبعث الله إليه رسله بالبينات ، هداة ومعلمين ، مبشرين ومنذرين ، ليهتدي الناس إلى الحق ، ويستبينوا معالم الطريق ، ويعرفوا ما يرضي الله فيتبعوه ، وما يسخطه فيتقون .

وعرف المؤمن أنه ليس غريبًا على هذا الكون الكبير كله من حوله ، ولا معزولاً عنه ، إن الكون كله معه ، ففطرة هذا الكون هي الإيمان ، هي التسبيح والسجود للرب الأعلى : ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذي يتقلب على جمره الحائرون والمرتابون في وجود الله وحكمته ، وعدله ورحمته ، وجزائه في الآخرة ، ووحيه إلى رسله ليس شيئًا هينًا إنه عذاب أليم ، وكوة فتحت على أهله من الجحيم ، تلفحهم بنارها ، وتشوي قلوبهم بجحيمها ، وكلما خف لهيبها ، هبت عليهم عواصف الشك من جديد ، فاشتعلت النار ليذوقوا العذاب ، إنه سيحرمهم سكون النفس ، وينغص عليهم حياتهم ، ويؤرق عليهم ليلهم ، ويكدر عليهم نهارهم ، إنهم يعيشون كما قال الله : ﴿ معيشة ضنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

رابع أسباب السكينة عند المؤمن : وضوح الغاية :

غير المؤمن يعيش في الدنيا تتوزعه هموم كثيرة ، في حيرة بين إرضاء غرائزه ، وإرضاء المجتمع ، والمؤمن قد حصر غايته في رضوان الله تعالى ، لا يبالي معه برضا الناس أو سخطهم ، شعاره :

إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

والمؤمن قد جعل همومه همًا واحدًا ؛ يسأل الله في كل صلاة عدة مرات : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا التواء : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾

[الأنعام : ١٥٣] ، وما أعظم الفرق بين الرجلين : ﴿ أفمن يمشي مكبًا على وجهه أهدى أم من يمشي سويًا على صراط مستقيم ﴾ [الملك : ٣٢] ، واستهان المؤمن في سبيل هذه الغاية بكل صعب ، ألا ترى إلى خبيب ، وقد صلبه المشركون ، وأحاطوا به يظهرون الشماتة ، يقول :

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أي جنب كان في اللّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها ، وعرف الطريق فاطمأن به ، إنه طريق الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، إنه ((الصراط المستقيم)) الذي يهدي إليه محمد ﷺ : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ۞ صراط اللّه الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ [الشورى : ٥٢، ٥٣] ، وبهذا الصراط المستقيم ، كان المؤمن في أخلاقه وسلوكه ، مطمئنًا غير قلق ، ثابتًا غير متقلب ، واضحًا غير متردد ، مستقيمًا غير متعرج ، بسيطًا غير معقد ، إن له مبادئ واضحة ، يرجع إليها في كل عمل : ﴿ قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين ۞ يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [المائدة : ١٥، ١٦] .

فالمقياس الخلقي عند المؤمن واضح ثابت ينحصر في رضا ربه ، وطاعة أمره ، واجتناب نهيه ، معتقدًا أن في ذلك سعادة أولاه وأخراه .

وفي القصة التالية العجيبة - لأب وابن مؤمنين - مثل رائع لليقين الذي لا يعرف الشك والمسارعة التي لا تعرف التردد ، أو الحيرة أو التخاذل في اللّه : شيخ كبير ، اشتاق إلى الولد ، ودعا ربه ، فأوتيه على الكبر ، وبشرته به السماء : ﴿ بغلام حليم ﴾ ، فتعلق به قلبه ، وفأفرغ فيه كل ما لديه من حنان وحب ، وظل ينمو فينمو معه حب أبيه ، ويشب فيشب معه الأمل والرجاء فيه ، وإذ الحكمة الإلهية تأبى إلا أن تصهرها في امتحان قاس عسير أن يقرب الأب إلى اللّه قربانًا ، فيذبح ولده ، ويذبح معه حبه ورجاءه وأمله ، فهل توقف الوالد عن الأمر ؟ أو حتى ترد بين نداء العاطفة ونداء الإيمان ؟ بين صوت الوحي من فوقه ، وصوت الأبوة ينبثق من حناياه ؟ وهل تمرد الابن على أمر يتعلق برقبته ؟ أو حتى اصطرعت في نفسه العوامل المتضادة من حب الحياة والامتثال لأمر اللّه ؟ كلا ، لقد كان يقينهما أكبر من نوازع النفس ، وعوامل التردد ، فأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه .

تلك قصة إبراهيم الخليل ، وابنه إسماعيل عليهما السلام ، وليس هناك أصدق ولا أروع من تصوير القرآن لهاتين النفسيتين المؤمنتين ، ومدى طمأنينتهما في أحلك ساعات الشدة ، ومبلغ الثبات الخلقي الراسخ الذي بدا في تضحية الأب العظيم ، وصبر الابن الكريم ، قال تعالى في شأن إبراهيم وولده إسماعيل : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ۞ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين ۞ فلما أسلما وتله للجبين ۞ ونادياه أن يا إبراهيم ۞ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ۞ إن هذا لهو البلاء المبين ۞ وفديناه بذبح عظيم ۞ وتركنا عليه في الآخرين ۞ سلام على إبراهيم ۞ كذلك نجزي المحسنين ۞ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [الصافات : ١٠١- ١١١] .

وفي هذا الختام سر القصة كلها ، ومفتاح ما سجلته من بطولة وفدائية : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ العبودية للّه وحده ، والإيمان به

وحده : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ العبودية للّه تعني : التحرر من التبعية لكل من سواه ، وما سواه ، فلا خضوع لمخلوق في الأرض أو في السماء ، حتى الشيطان الوسواس الخناس ليس له سبيل على عباد اللّه : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : ٦٥] ، والعبودية للّه تعني : الانقياد لحكمه سبحانه في الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ، مع رضا النفس ، وتسليم القلب دون أدنى حرج أو ارتياب ، لثقته بأن تدبير اللّه له خير من تدبيره لنفسه ، وأنه تعالى أرحم به من أمه وأبيه .

فقد عرف الطريق فسلكها على بصيرة ، طريق الرجوع إلى أمر اللّه ، والاستسلام الكامل لحكم اللّه : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور : ٥١] .

وخامسها : أنس المؤمن بالوجود كله ؛ المؤمن الذي يعيش في سعة من نفسه وقلبه ، ولو لم يكن في سعة من عيشه ، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة ، وتصله بحملة النور الإلهي ، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم إلى محمد ، عليه الصلاة وأزكى السلام ، يصله بالصديقين والشهداء والصالحين من كل أمة ، ومن كل عصر ، يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار ، بالوجود ورب الوجود ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

فلقد سُئل رسول اللّه ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ [الزمر : ٢٢] ، فقال : ((إن النور إذا دخل في القلب اتسع وانفسح)) .

فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين ، كما يضيق وينكمش بظلمة الإلحاد والشك والنفاق : ﴿ فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وسادسها : المؤمن يعيش في معية اللّه :

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسي مرض الشعور بالوحدة المقلقة ، وقد انتهى المنصفون إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين ، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى ، وإشعار المريض بمعية اللّه والأنس به .

واعتقاد المسلم أكبر من هذا وأعمق ؛ إنه يؤمن أن اللّه معه حيثما كان ، وليس على الجانب الآخر من الطريق ، إن اللّه سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي : ((أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني)) . ويقول في كتابه العزيز : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون واللّه معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ [محمد : ٣٥] .

وكيف يشعر بالوحدة من يقرأ كتاب ربه : ﴿ وللّه المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه اللّه إن اللّه واسعٌ عليمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، ﴿ وهو معكم أين ما كنتم واللّه بما تعملون بصير ﴾ [الحديد : ٤] ، إنه لا يشعر إلا بما شعر به موسى عليه السلام حين قال لبني إسرائيل : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، وما شعر به رسول اللّه ﷺ في الغار حين قال لصاحبه : ﴿ لا تحزن إن اللّه معنا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

إن شعور المؤمن بمعية اللّه وصحبته دائمًا يجعله في أنس دائم بربه ، ونعيم موصول بقربه .

وسابعًا : المؤمن يعيش في صحبة الأخيار من الصالحين :

والمؤمن لا يشعر أنه في عزلة عن إخوانه من المؤمنين ، إنهم - إن لم يكونوا معه في عمله أو

مسجده أو داره - يعيشون في فكره ووجدانه ، فهو إذا صلى - ولو منفردًا - تحدث باسمهم : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، وإذا دعا دعا باسمهم : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، وإذا ذكر نفسه ذكرهم : ((السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين)) ؛ إنه لأوسع مدى من أن يعيش مع مؤمني عصره وحدهم ، بل إنه ليتخطى الأجيال ، ويخترق العصور والمسافات ويحيا مع المؤمنين ، وإن باعدت بينه وبينهم السنون والأعوام ، ويقول ما قاله الصالحون : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ [الحشر : ١٠] ، وهو يشعر أنه يعيش بإيمانه وعمله الصالح مع أنبياء اللَّه ورسله المقربين ، ومع كل صديق وشهيد ، وصالح من كل أمة وفي كل عصر : ﴿ ومن يطع اللَّه والرسول فأولئك مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] ، وأي إنسان أسعد ممن يرافق هؤلاء ويرافقونه ؟

تاريخه هو تاريخ الإيمان والهدى من عهد آدم ، تاريخه هو تاريخ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم السلام ، من أولي العزم من الرسل ، ومن غيرهم من أصحاب النبوات والرسالات منذ بعث اللَّه رسولاً ، وأنزل كتابًا ، يجد فيه الأسوة والهداية ، كما يجد فيه السلوى والعزاء ، كما يجد فيه الأنس والود .

ونامنها : الصلاة والدعاء :

﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن اللَّه مع الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، وكان رسول اللَّه ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ولم تكن صلاته مجرد شكل أو رسم يؤدى ، وإنما كانت استغراقًا في مناجاة اللَّه ، حتى إنه كان إذا حان وقتها قال : ((أرحنا بها يا بلال)) ، وكان يقول : ((جعلت قرة عيني في الصلاة)) .

سكينة يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة ، فيدعوه بما دعا به رسول اللَّه ﷺ : ((اللهم رب السماوات السبع ، ورب العشر العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عني الدين ، واغنني من الفقر)) . رواه مسلم .

وتاسعها : المؤمن لا يأسى على ماض :

لأنه يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ؛ فإن أبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة ، والأفكار الداجية المؤمن ، الذي قوي يقينه بربه ، وآمن بقضائه وقدره ، يعتقد أنه أمر قضاه اللَّه كان لا بد أن ينفذ ، وما أصابه من قضاء اللَّه لا يقابل بغير الرضا والتسليم :

ولست براجع ما فات مني
بلهف ولا بليت ولا لو أني

ويقول : ((قدر اللَّه وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)) . رواه مسلم .

إنه يوقن أن قدر اللَّه نافذ لا محالة ، فلِمَ السخط ؟ ولِمَ الضيق والتبرم ؟ واللَّه تعالى يقول : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على اللَّه يسير ۞ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم واللَّه لا يحب كل مختال فخور ﴾ [الحديد : ٢٢ - ٢٣] .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

في ذمة الله أخي صفوت فالرزء جسيم والخطب جلل

بقلم. السيد عبد الحليم
جمعية الإيمان الإسلامية بنيويورك

كان نبأ وفاتك كوقع الصواعق على القلب، ونزول القواصف على النفس، مما أذهب باللُّب، وقلت: أأرثيك بعبارات مشجية، وألفاظ محزنة، تهز القلوب، وترسل الدموع، وتسيل العبرات، وتخرج الزفرات حَرَّى مرتاعة، تتقرح منها المآقي، وتنطلق القرائح في ميدان الآلام، فأنشد مع السابقين:

هل للفتى من بنات الدهر من واق
أم هل له من حمام الموت من راقِ

وأسلِّم مع القائل:

وإذا المنية أقبلت لا تُدْفعُ
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل وسيلة لا تَنْفَعُ

أم أضع عصا الترحال، أمام قول الكبير المتعال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وأصبر وأحتسب كما علمنا الإله جل في علاه، وأقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وذلك هو ديدن المؤمنين، وسبيل المحتسبين الصابرين فالأمر أمره، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه.

حكم المنية في البرية جاري
ما هذه الدنيا بدار قرار

وما كان يخطر ببالي يوم نشأتنا الأولى بقريتنا المتواضعة «الملايقة» أن نفترق؛ لأننا تربينا على لبان التوحيد في فرع أنصار السنة المحمدية الذي سُجِّل منذ عام ١٩٥٨م، وكنت الأزهري الوحيد في القرية، وبفضل من الله احتضنا طلاب المدارس والجامعات بقريتنا والقرى المجاورة لنا، وكانت إشراقات التوحيد تغمر القريب والبعيد، وكانت الصولات والجولات، والندوات والمناظرات، مع أصحاب العقائد المبتدعات، وكم كانت المدارات، والمهادنات، والمصادمات، وكنا في الدعوة كفرسي رهان، فمنذ نعومة الأظفار، ونحن نقحم المهامه والقفار ونركب الصعب ونجوب الأخطار، لا نبالي إلا بإرضاء الله الواحد القهار، لا يثني من العزم بريق دنيا، ولا وعيد معاند، حتى عمت الدعوة من القرى إلى مدينة «بلبيس» العامرة، وأنشأنا فرعًا آخر لجماعة أنصار السنة المحمدية، وازدادت قوافل الموحدين، وأفل نجم المبتدعين على كثرتهم، ودارت الأيام مع ركب الإيمان، وجاءت المناصب.. والحي لا تؤمن عليه الفتنة،

وتباعدت بيننا الديار، ونأت بنا الأيام الدابرة، كل بتأويله، وأسلوبه في الدعوة إلى الله، وإن كان الهدف المنشود واحدًا.

وهكذا يمضي الدعاة... وتمضي الحياة.. واليوم لا تثريب عليك، يغفر الله لي ولك، وهو أرحم الراحمين.

فلقد مضيت إلى ربك ولسان حالك يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وحسبنا أن نقول لأنفسنا:

فإنك لو سألتِ بقاء يومٍ
على الأجلِ الذي لك لن تُطاعي

فإن لله ما أعطى، وله ما أخذ، وبوأك فسيح جناته، وألهم ذويك ومحبيك الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

بيان مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

يتابع مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ببالغ القلق والغضب والاستياء ما أقدمت عليه بعض الصحف الدنمركية من نشر بعض الرسوم الكاريكارتيرية المسيئة للنبي ﷺ، والتي تعكس جهلاً فاحشًا بسيرة أعظم مخلوق مشى على ظهر الأرض منذ أن دب على ظهرها حياة وأحياء، وما أعقب ذلك من تجاهل السلطات الدنمركية لنداءات عشرات الهيئات والمؤسسات الإسلامية الحكومية والشعبية التي طالبتها بالتدخل لمنع هذه الجريمة النكراء وملاحقة مرتكبيها بالقضاء العادل الذي يضع الأمور في نصابها، وما تلا ذلك من تداعيات وتصعيدات، وما يتوقع مع استمرار هذا التجاهل من تداعيات لا تُحمد عقباها ويصعب التكهن بأبعادها !

وإن المجمع ليهيب من موقعه بالولايات المتحدة الأمريكية وباسم مئات المراكز الإسلامية التي تضم عشرات الآلاف من المسلمين المقيمين في المهجر، والذين أذهلتهم الصدمة وصكت مسامعهم هذه الأنباء كافة المسئولين في الحكومة الدنمركية أن يستمعوا إلى صوت العقل، وأن يدركوا أن الإصرار على هذا المسلك يمثل إعلانًا للحرب على ما يزيد على مليار وثلث من المسلمين في أنحاء العالم الذين يتعبدون الله تعالى بمحبة نبيه ﷺ محبة تفوق محبتهم لأنفسهم وآبائهم وأبنائهم وأزواجهم وعشائرهم، ويرون الزود عن عرضه دينا يبذلون دونه مهجهم وأرواحهم ونفائس أموالهم، وأن يجنبوا العالم عامة ومجتمعهم خاصة ما قد يترتب على هذا التجاهل من توترات وويلات وتصعيدات لا تزيد العالم إلا شقاء، ولا تزيد خروقه إلا اتساعًا، ويصعب توقع أبعادها أو السيطرة على تداعياتها !

كما يهيب بهم أن يعتبروا بدروس التاريخ، وأن يحيوا ذكرى أسلافهم من القياصرة الذين أكرموا كتاب النبي ﷺ ورسوله عندما وفد عليهم فثبت ملكهم، وتوطدت عروشهم، وأن يعتبروا بمن أهانوا كتابه ورسوله من الأكاسرة فمزقوا في الأرض شر ممزق، وأن يقدروا ما اتفقت عليه المواثيق الدولية قاطبة من احترام للخصوصيات وصيانة المقدسات، وعلى رأس ذلك وفي مقدمته صيانة حرمات الأنبياء والمرسلين صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده، وعدم انتهاكها بدعوى حرية التفكير وحرية التعبير، لأن الحرية - فيما يجمع عليه عقلاء العالم- لا تعني الفوضى ولا تعني العدوان على الآخرين، فإن الحرية إن تجردت من المسئولية تصبح فيضانًا جامحًا يغرق البشرية كلها في طوفان من الخراب والدمار، وتلك أبجديات لا ينبغي تجاهلها ولا يجمل قضاء ولا سياسة تجاحدها!

كما يهيب بهم أن يشرفوا أنفسهم بالاطلاع على سيرة خاتم الأنبياء من مصادرها المحايدة ليعرفوا مدى العظمة والشموخ التي جبلت عليها شخصية المصطفى ﷺ، وليدركوا أي نعمة حملتها رسالته إلى البشرية، وماذا خسر العالم بتجاهلها وشن الغارة عليها !

أليس من منكر القول وزوره ما تضمنته هذه الرسوم من اتهامه ﷺ بالحرابة والعدوان عندما رسمت له مسخًا مشوهًا يعتم بعمامة على هيئة القنبلة ! في إشارة حقيرة وظالمة إلى هذه الفرية ! وقد علم المنصفون في العالم أجمع أنه رحمة الله للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، «وأنه الذي لم ينتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها». [متفق عليه].

وأنه الذي أمكنه الله من مخالفيه يوم الفتح بعد حربهم له وتأليبهم على عداوته على مدى سني البعثة كلها، فقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». [رواه البيهقي في سننه الكبرى]، وأنه الذي أعلن على الناس أن قيام الناس بالقسط هو المقصود الكلي من بعثة جميع المرسلين، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

حول افتراءات الصحف الغربية على خاتم الأنبياء ﷺ

إعداد/ د. السيد عبد الحليم

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأنه الذي توعد على الظلم أبلغ وعيد وأعلن على العالم قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]، وأعلن أن «دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويقول لها: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين». [رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن]. وبين أنه: «ما من شيء أجدر بأن تعجل عقوبته في الدنيا من البغي وقطيعة الرحم». [رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح]

وأنه الذي «ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه». [متفق عليه]. وأنه الحفيظ على عهده مع مخالفيه في الدين، وأنه الذي أعلن أنه حجيج من ظلمهم أو اعتدى عليهم يوم القيامة، وقد جعل ذلك كلمة باقية في أمته لا تزال تدوي على مدى الزمان وعلى مدى المكان: «إلا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». [رواه أبو داود وصححه الألباني]، وأنه الذي شدد الوعيد على سفك دمائهم في مثل قوله ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا». [رواه البخاري في صحيحه]

وانه الذي يأمر بصلة الرحم وإن كانت مشركة كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وكما قال ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما جاءتها أمها راغبة في صلتها وهي مشركة: «صلي أمك». [متفق عليه]. وأنه الذي ما فتئ يدعو لمخالفيه في الدين كما دعا لأهل مكة الذين بالغوا في إيذائه واستضعفوا أصحابه قائلاً: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». [متفق عليه]. وكما دعا لدوس ولثقيف. [متفق عليه] وغيرهم، ودعا لمن كانوا يتعاطسون عنده من اليهود رجاء أن يشمتهم، فكان يقول: «يهديكم الله ويصلح بالكم». [رواه أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح]. إلخ.

وأن جملة من قتلوا في حروبه وغزواته ﷺ من الفريقين لم يتجاوزوا ألفًا، بينما كان حصاد الحربين العالميتين الأولى والثانية بالملايين ! ومن قبل حُصد سبعون ألفًا في غداة واحدة ساعة اقتحام الصليبيين لبيت المقدس!

إننا نؤكد لأهل الدنمرك حكومة وشعبًا وللعالم أجمع أننا على يقين من نُصرة الله جل وعلا لنبيه ﷺ، وعلى ثقة بوعيد ببتر من شنأة وعاداه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وقال في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب». [رواه البخاري في صحيحه]، فكيف بمن عادى سيد الأولياء وإمام الأنبياء؟! وإن في التاريخ عبرة لمن اعتبر ! لقد كبت الله كل من آذوا نبيه فمزقهم في الأرض كل ممزق وجعلهم أحاديث ! وبقيت سيرة إمام الأنبياء نبراسًا للعالم أجمع، تجسد الطهر والنقاء في أرفع صوره وأقدسها، وتقدم طوق النجاة لكل من يتطلع إلى الفرار من جحيم الشهوات الفاجرة في الأرض، وتهفو روحه إلى الفوز بنعيم الخلد وجنة الأبد في الآخرة.

إن العالم المعاصر وقد أشقته هذه المادية الطاغية وهذه الدعوات الإلحادية الفاتنة لأمس ما يكون حاجة إلى قبس من نور تحمله رسالة خاتم الأنبياء التي حملت النور والأمن إلى العالم أجمع، وتمتعت البشرية في ظلها بأقصى ما تبلغه أحلامها وتطلعاتها من رخاء واستقرار، وإن العالم اليوم وهو يرزح تحت وطأة هذه الكوارث المعاصرة، ويشقى مما يتجرعه من غصص المنازعات الدولية وويلاتها، ليتطلع يمنة ويتطلع يسرة، يهفو إلى منقذ ويتطلع إلى مخلص، ويتخيل لهذا المنقذ ولذلك المخلِّص أوصافًا وملامح، لم ولن تنطبق إلا على هذا الرسول الكريم وما جاء به من البينات والهدى!

فلا تسلموا عقولكم إلى الأراجيف والأباطيل، ولا تحرموا أنفسكم ولا شعوبكم شرف التعرف على هذا الرسول الكريم، وتدبر ما جاء به من الآيات والذكر الحكيم.

فإن أبيتم فلا أقل من أن تكفوا سفهاءكم عن مثل هذه الافتراءات الظالمة، التي لا تعكس إلا الجهالة والحماقات، ولا تنم إلا عن الضغائن والأحقاد !!

فإن أبيتم فقد أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ! وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!

الأمة المنصورة

منهجها وصفاتها

إعداد

سيد عبد الحليم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن الأمة السعيدة القوية المنصورة المؤيدة لها منهج وصفات تخالف به الأمة الخائرة الضعيفة المتخاذلة الشقية، وهذا ينبثق من تفضيل الله للإنسان وتكريمه له، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

فكرم الله - عز وجل - بني آدم بالنطق والتمييز، والعقل والمعرفة، والصورة، والتسلط على ما في الأرض والتمتع به، ويسّر لهم أسباب المعاش والمعاد بالسير في طلبها وتحصيلهم فنون المستلذات التي لم يرزقها غيرهم من المخلوقات.

لذلك حق عليهم أن يشكروا هذه النعم، فيخلصوا العبودية للمتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده.

والمزية الكبرى، والنعمة العظمى التي وهبها الله الإنسان وفضله بها هي العقل والأدب:

ما وهب الله لامرئ هبة ... أفضل من عقله وأدبه
هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقده للحياة أجمل به

والمراد بالأدب هنا الأدب النفسي، وهو الخلق الحسن، وبه تتفاوت الأمم ارتقاء وانحطاطًا، وقوة وضعفًا، وسيادة وعبودية.

فما من أمة كثر حظها من خلق حسن إلا بلغت أوج الرقي، وغاية السعادية، وإن كانت قليلة العدد، أو كانت أرضها ضيقة، أو قليلة الغناء والخير، غير صالحة للزرع والضرع، قليلة الحواصل، والثمرات، ضعيفة الغلات، فإن جميع ما في الأرض من الخيرات والبركات يُحمل إليها: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

يقول ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. «اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بتقوى الله».

ويقول قتادة: «تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها وزجرتهم عنها». وهكذا قال الضحاك ومقاتل: «حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه».

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها».

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون تمرينًا على العبادة والطاعة، ومجانبة المعاصي، وترك المنكر.

وقد عاش المسلمون السابقون العمل بالإسلام فوجدوه كفيلاً بسعادة الروح والبدن، وضابطًا لمصالح الدين والدنيا... فالعجب من قوم يكون عندهم هذا الدين الحنيف محفوظًا خالصًا، لا تشوبه شائبة، ويرون كيف سعد به أسلافهم، ثم يتنكرون له، ويجهلونه، ويجهلون عليه، ويرددون أقوال أعدائه، وينشرونها بين قومهم، مع ما فيها من الكذب والتدليس، والتمويه والتحريف.

قال الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

يقول فيها العلامة ابن كثير: استنقذهم من عذاب الله بإقام

الصلاة، واصبر أنت على فعلها، فإذا أقمت الصلاة نرزقك من حيث لا تحتسب، قال النووي: «لا نسألك رزقًا، يعني لا نكلفك الطلب». وقال ابن أبي حاتم بسنده إلى هشام عن أبيه: «أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفًا، فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ثم يقول: «الصلاة الصلاة رحمكم الله».

وقد روى الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنًى، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسدّ فقرك».

[أخرجه الترمذي برقم (٢٤٦٦) وصححه الألباني]

وروى ابن ماجه من حديث ابن مسعود: سمعت النبي ﷺ يقول: «من جعل الهموم همًا واحدًا، همّ المعاد كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديته هلك».

[صحيح بن ماجة برقم (٢٠٧) صحيح الجامع برقم (٦١٨٩)]

وروى أيضًا من حديث ثابت رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة لمن اتقى.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع وأنًا أُوتينا من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب».

وفي خطاب الآية الكريمة تزهيد له ﷺ ولأمته في الدنيا وزخارفها. وإبعاد لهم عن الافتتان بزهرتها وزينتها؛ لأن من فتن بها أهلكته وشغلته عن ذكر الله، وهذا مع العلم بأن النبي ﷺ كان رئيس الدولة، وكان يُعطي عطاء من لا يخاف الفقر، والأموال كلها بيديه، ولكنه كان زاهدًا فيها، مفضّلاً التقشّف في المعيشة طوعًا واختيارًا، لا حاجة واضطرارًا، فكان ينام على الحصير حتى يؤثر في جسده الشريف. وكان يمر الشهر والشهران لا توقد النار في بيته، وإنما يعيش هو وأهله على الماء والتمر، كما في حديث عائشة في الصحيحين، فكان عروة بن الزبير إذا دخل بيته يعظ نفسه وأهله بهذه الآية وينادي فيهم: «الصلاة الصلاة» ففيها نعيم وقرة عين المتقين كما قال النبي ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة». أي الفرح والسرور، لأن الصلاة تعين كل محتاج، وتفرّج كربه ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وهذه سنة سائر الأنبياء إذا نزل بهم أمر يكرهونه يفزعون إلى الصلاة فيدفع الله عنهم بها كل مكروه، ويبدلهم بالعسر يسرًا، وبالضيق سعة، وبالشدة رخاء، وهذا هو ديدن المؤمنين الصادقين شبابًا كانوا أم كهولاً أم شيوخًا - أن يفعلوا إذا نزل بهم ما يكرهون، أن يستعينوا بالصبر والصلاة، فالصبر يهون المصائب، ويفتح باب الفرج، والصلاة استغاثة واستعانة بالله تعالى.

إن في الحديث القدسي: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك». لجواب للذين يسألون عن أوقات الصلاة إذا فرض فيها شغل دنيوي - كصلاة العصر مثلاً - هل يتفرغون لعبادة الله ويؤدون فريضتهم، ويدعون شغلهم جانبًا، فإذا فعلوا ذلك ملأ الله صدرهم، وأيديهم غنى، وأزال فقرهم الحسي والمعنوي، فالمعنوي: هو فقر القلب وجزعه، وشغله بالتفكير في الرزق، أو في أي وسيلة يظن أن الرزق يأتي بسببها، وإن هم لم يستجيبوا لدعوة الله، وتمادوا في شغلهم، وأعرضوا عن الصلاة حتى يخرج وقتها، فحينئذ يمتلئ صدره غمًا وشُغلا، وإنما مثلنا بصلاة العصر لأن صلاة العصر تجيء عادة وسط الأشغال وبها يُمتحن المؤمن، فإن كان صادق العزم ثابت اليقين أوقف الشغل الدنيوي، وتفرغ لعبادة الله، واستجاب لدعوته، فيزيده الله قوة إلى قوته، ويملأ صدره غنى وثقة به، وذلك هو الظفر والنصر المبين، وإن كان خائر العزم، ضعيف الإرادة، كبرُ عليه ترك شغله، وخيل له أن في تركه خسارة، لا تعوّض، فيستمر في شغله عاصيًا ربه، خائنًا دينه، فحينئذٍ يمتلئ صدره غمًا وشُغلاً يلازمانه أبدًا.

أخرج البخاري في كتاب المواقيت من صحيحه عن أبي المليح قال: «كُنّا مع بريدة في غزوة في يوم ذي غيم فقال: «بكّروا بصلاة العصر، فإن النبي ﷺ قال: من ترك صلاة العصر حبط عمله».

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن

رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله».

نفهم من الحديث الأول ومن غيره من الأحاديث الصحاح، ومن الآيات البينات: أن من ترك صلاة العصر عمدًا بلا عذر شرعي حتى يخرج وقتها فقد بطل عمله الصالح كله، فإن تاب وعاهد الله عهدًا صادقًا أن لا يتعمد ترك الصلاة المفروضة أبدًا فإن الله يرد له ما حبط من عمله.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٢].

وحديث جابر الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة». وإذا كان ترك الصلاة عمدًا كفر فلا إشكال في حبوط العمل.

وأما الحديث الثاني: الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله؛ أي خسر ماله وأهله، وبقي فردًا بلا أهل ولا مال، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وكل فريضة حدد وقتها يجب على المسلم أن يترك كل شغله يشغله عن أدائها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩- ١٠]. فحرّم الله على المسلمين أن يشتغلوا بالبيع وغيره من أمور الدنيا بعد أذان الجمعة، وأوجب عليهم أن يسعوا إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة حتى إذا سلم الإمام من صلاة الجمعة فقد أذن الله لهم أن يخرجوا من المسجد وينتشروا في الأرض، ليشتغلوا بأعمالهم التي تكفل لهم رزقهم.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ المُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٦ - ٣٥].

أخبرنا الله سبحانه أن الإنسان - يعني جميع الناس - خُلق هلوعًا، حصل من طبعه الهلع، وهو الجزع وشدة الحرص. فتفسير «هلوعًا» هو ما بعده: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ﴾ وهو الغنى والصحة والقوة والنصر وسائر النعم «منوعا» بخيلاً لا ينفع غيره بشيء، ثم استثنى الله تعالى من الناس المجبولين مع ذلك الطبع الخبيث المصلين، وأكّد وصفهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي محافظون على أوقاتها وشروطها وأركانها وآدابها، ووصفهم بصفات بدأها بالمحافظة على الصلاة، وختمها بالمحافظة عليها، وذكر بينهما صفات:

أولاً: أن في أموالهم حقًا معلومًا للفقراء والمحتاجين، سواءٌ أكانوا من الذين يظهرون فقرهم وحاجتهم ويسألون الناس، أم كانوا من المتعففين الذين يكتمون فقرهم، ولا يسألون الناس، وهم القسم المعبر عنه بالمحروم؛ لأن أكثر الناس يحرمونهم الصدقة.

ثانيًا: أنهم يُصدّقون بيوم الدين، أي يؤمنون بيوم القيامة، وهو يوم الجزاء، ويجعلونه نصب أعينهم، فيبعثهم ذلك على مراقبة الله تعالى فلا يفعلون ما لا يرضيه.

ثالثًا: الخوف من الله تعالى، فهم يخافون عذابه ولا يأمنون مكره، فإنه لا يأمنه إلا القوم الخاسرون.

رابعًا: أنهم يحفظون فروجهم عما حرَّم الله ويقتصرون على ما أحل الله.

خامسًا: أنهم يحافظون على عهدهم إذا عاهدوا مسلمًا أو ذميًا، أو معاهدًا أو مصالحًا لا ينقضونه أبدًا.

سادسًا: أنهم يقومون بشهاداتهم فيؤدونها كما علموها، ولو كانت على الوالدين والأقربين، لا يزيدون فيها ولا ينقصون، ولا يُبدّلون ولا يغيّرون، ولا يكتمون أبدًا، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه.

فهذه صفات المؤمنين الصادقين، لا جَرَم أن كل مجتمع سادت فيه هذه الصفات يكون سعيدًا في دنياه وأخراه عزيزًا مؤيدًا منصورًا، جعلنا الله من أهلها.

وللحديث بقية بإذن الله تعالى.

الأمة المنصورة منهجها ... وصفتها

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فبالعودة إلى رؤيا النبي ﷺ في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أنه كان مع بعض أصحابه في دار عقبة بن رافع فوضع لهم رطبًا من النوع المسمى ابن طاب وهو نوع من رطب المدينة، ففسّر النبي ﷺ هذه الرؤيا بأن العاقبة الحسنة، والرفعة له ولأمته في الدنيا والآخرة، وأن دين الإسلام طاب، أي زكا وبورك فيه فِعْلاً وانتصر، وكذلك وقع، وهذا مضمون للأمة الإسلامية إلى يوم القيامة بشرطه، وهو الإيمان والاجتماع على إعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيل الله.

والدليل على ذلك قوله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [المؤمن: ٥١] أي لننصرهم في الدارين، أما في الدنيا فبإهلاك عدوهم واستئصاله عاجلاً، أو بإظفارهم بعدوهم وإظهارهم عليه، وجعل الدولة لهم، والعاقبة لأتباعهم. وأما في الآخرة فبالنعيم الأبدي، والحبور السرمدي، والأشْهَاد: جمع شاهد وهو من يشهد على تبليغ الرسل، وتكذيب من كذبهم ظلمًا.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب». قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «وفي الحديث القدسي: إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب». ومعناه: أن الله ينتقم لأوليائه وهم المؤمنون كما ينتقم الأسد الغضبان ممن أغضبه، والله عزيز ذو انتقام.

وقال تعالى: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ» [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. وقبلها: «وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» [١٦٧- ١٦٩].

أخبرنا سبحانه وتعالى أن كفار العرب كانوا يقولون قبل نزول القرآن، وبعثة الرسول ﷺ: «لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ» أي كتابًا من الكتب التي أنزلها الله عليهم لاهتدينا به، وتطهرنا به من جهالتنا «لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» المطهرين من كل ضلال وشر وشرك، فلما جاءهم أفضل كتاب بواسطة أفضل رسول، كفروا به وكذبوه، «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» هذا تهديد لهم بعذاب عظيم لم يكن لهم في الحسبان، وهو تهديد لكل أمة بلغها هذا الكتاب فأعرضت عنه، ولم تتخذه إمامًا وحكمًا، ولم تستضئ بنوره، ولم تهتد بهداه، لابد أن يصيبها عذاب عظيم فوق ما يخطر بالبال، ونحن نشاهد هذا العذاب اليوم بأعيننا يصيب الشعوب التي أعرضت عن كتاب الله ورفضت شريعته وسنة نبيه بعدما علمت يقينًا ما أدركه أسلافها من السعادة والعز والنصر المبين باتباع هذا الكتاب الكريم، والرسول ذي الخلق العظيم.

وبعد هذا التمهيد قال سبحانه وتعالى: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ» اللام واقعة في جواب القسم، أي وتالله لقد سبقت كلمتنا لعبادنا الذين أرسلناهم إلى الأمم ليقوموا بإرشادها، وهدايتها وإنقاذها من أوحالها ونكباتها، وإخراجها من الظلمات إلى النور، وتلك الكلمة التي سبقت من الله تعالى: «إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ» على كل من عاداهم من أقوامهم وغيرهم، «وَإِنَّ جُنْدَنَا» وهم المرسلون وأتباعهم الصادقون «لَهُمُ الْغَالِبُونَ» لكل من عاداهم، وعد الله لا يخلف الله وعده.

وقد رأينا هذا الوعد بعيون بصائرنا عبر التاريخ الطويل يتحقق على أيدي شعوب مختلفة في الجنس واللون والأوطان، ولكنها متفقة في الاهتداء بالقرآن.

وما أصاب المسلمين من الشتات والذلة والهوان، وضنك العيش في هذه الأزمنة المتأخرة حجج قائمة عليهم، تسجل عليهم أنهم هم الذين أخلفوا ونقضوا عهدهم كما قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الأنفال: ٢٣].

فهو سبحانه يخبر عن تمام عدله، وقسطه في حكمه بأنه لا يُغيّر نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه. كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ» [الرعد: ١١].

وقال تعالى في سورة مريم: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

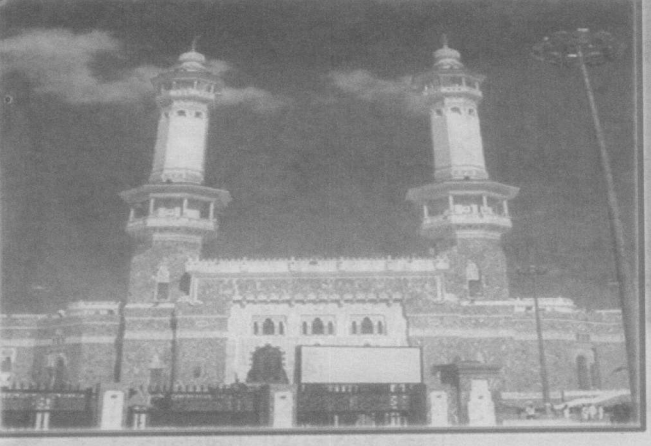

إعداد

السيد عبد الحليم

مَرْضِيًا» [مريم: ٥٤ - ٥٥].

فهذا ثناء من الله على إسماعيل بأنه صادق الوعد، فلم يعد ربّه عدة إلا أنجزها وما التزم عبادة نذر أو غيرها إلا قام بها ووفاها حقها.

وروى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: «بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث، فبقيت له على بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك فقال له: يا فتى لقد شققت عليّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك».

فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خُلْفه من الصفات الذميمة، بهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وبالثناء الجميل، والصفات الحميدة، والخلال السديدة حيث كان صابرًا على طاعة ربه، آمرًا بها أهله، كما قال تعالى: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» أي مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملا فتأكلهم النار يوم القيامة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء». أخرجه أبو داود وابن ماجه.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات». رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

وبيانًا لما سبق نقول:

١- وصف الله سبحانه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بصفات كريمة:

أولاها: صدق الوعد.

وثانيتها: أنه كان رسولاً نبيًا، أنزل الله عليه وحيه وأرسله لهداية خلقه.

وثالثتها: كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

وأخيرًا أنه كان عند ربه مرضيًا، فلماذا قدّم صفة صدق الوعد على ذكر الرسالة والنبوة، وأمر أهله بالصلاة والزكاة ؟

والجواب: لأن صدق الوعد دليل على الإخلاص، فمن لم يكن صادق الوعد لم يقبل الله منه صلاة ولا زكاة، لأن العبادات كلها من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، وتعلم وتعليم، وجهاد للنفس، وجهاد للعدو، وغير ذلك. إنما هي وسائل لتهذيب النفس، وليست في أنفسها غايات، فإذا لم يحصل بها التهذيب المطلوب فهي لغو لا قيمة لها، يُزاد على ذلك أنها تدل على عدم إخلاص فاعلها، ورياءه ومخادعته لله ولعباده المؤمنين.

وقد وصف الله المنافقين بقوله: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» [النساء: ١٤٣- ١٤٤].

فصلاة هؤلاء المنافقين لم تغن عنهم شيئًا، وهم في الدنيا مجللون بالخزي، وفي الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وقال تعالى: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» [الماعون: ٤-٧]. أي يقصدون بعبادتهم أن يراهم الناس ليمدحوهم، وقلوبهم خاوية ليس فيها خير، فلذلك «يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» وهو ما يُعيّره الناس بعضهم لبعض فمن يمنع الماعون مع وجوده فهو أحرى أن يمنع الزكاة والصدقة والإحسان.

وقد وضع النبي ﷺ ميزانًا يمتحن به الناس ليميز به المؤمن من المنافق وهو قوله فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤ خان». زاد مسلم في روايته: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

فأخبر النبي ﷺ بعبارة صريحة لا لبس فيها ولا غموض أن من اجتمعت فيه الخصال الثلاث، وصارت له خلقًا وديدنًا لا يتحرج منها فهو من شرار الخلق وهم المنافقون، وأن هذه الخصال لا تكاد تجتمع في مؤمن، فإن قال أنا مؤمن أنا مسلم فلا نصدقه، وإن صلى وصام فلا صلاة له ولا صيام.

وقد أعطانا رسولنا هذه العلامات لنستدل بفقد على المؤمن الصادق، ونعرف بتحقق وجودها أعداء الإسلام المتقمصين ثوبه لمآرب يبتغونها، ودسائس يروجونها، وليس معنى ذلك أن نطردهم من المساجد، ولا من المجتمعات الإسلامية، ولا نحكم عليهم بالردة، ونعاملهم معاملة غير المسلمين في الأحكام الشرعية، بل نعتبرهم مسلمين ظاهرًا، ونحترز منهم، ولا نأمنهم على مصالح الإسلام. والحديث موصول إن شاء الله.

الأمة المنصورة.. منهجها.. صفتها

الحلقة الثالثة

إعداد/ د. سيد عبد الحليم

الحمد لله، رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

فحديثنا متصل بعون الله وحوله عن الأمة المنصورة ومنهجها وصفاتها، وكنا قد وصلنا في العدد السابق إلى الحديث عن:

٢- انتظار رسول الله ﷺ الرجل الذي تبايع معه في الجاهلية قبل بعثته في المكان الذي وعده ثلاثة أيام، فما المراد بهذا الانتظار؟ هل هو حرص على قضاء تلك الدريهمات؟ لا، والله، ولكنه تلقين درس في الأخلاق، يعتبر به كل موفق، ويلتزمه كل إنسان ذو شرف ومروءة.

وكل أمة شاع فيها الوفاء بالوعد، وتنافس أبناؤها في التخلق بهذا الخلق الجميل الذي هو أحد أركان الأخلاق، سعدت وقويت، وانتصرت على أعدائها، وبلغت في ذلك فوق ما أملت، كما أن كل أمة شاع فيها إخلاف الوعد، ونقض العهد، وما إلى ذلك من الكذب والخيانة، والغدر والظلم، والخداع، فإنها لن تفلح أبدًا، ولن تكتب لها الحياة الحقيقية ما دامت متخلقة بتلك الأخلاق المرذولة، سواء استوطنت الصحراء، أم استوطنت أغنى الأراضي وأجملها، فإنها تعيش في شقاء دائم، وظلام مدلهم.

وهذه الحقيقة لا تتغير أبدًا بتغير المكان أو الزمان أو القوم، ومساوئ الأخلاق هو السبب الأعظم في شقاء الشعوب.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

٣- أثنى رسول الله ﷺ على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي». وأبو العاص بن الربيع العبشمي القرشي اشتهر بكنيته وكان من أعيان مكة، زوجه النبي ﷺ أكبر بناته «زينب» فولدت له أمامة التي كان النبي ﷺ يحملها على كتفه، وصلى بالناس في المسجد وهو حاملها، فإذا ركع وضعها، وإذا سجد وضعها، وإذا وقف حملها.

ولما كانت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة خرج أبو العاص مع المشركين فأُسر، فبعثت زينب بقلادة لتفديه بها، وكانت أمها خديجة رضي الله عنها قد وهبتها لها حين تزوجت، فلما رأى النبي ﷺ تلك القلادة رقّ لابنته، وقال للصحابة: «إن رأيتم أن تردُّوا لها قلادتها وتطلقوا أسيرها». فأطلق سراح أبي العاص، فشرط عليه النبي ﷺ أن يبعث له ابنته زينب فوفى بوعده وبعثها.

وفي السنة السابعة من الهجرة سافر أبو العاص ومعه قافلة لأهل مكة متوجهًا إلى الشام، فأسره المسلمون مرة ثانية، فلما سمعت بذلك زينب قالت: «يا رسول الله، أليس عقد المسلمين وعهدهم واحدًا؟ قال: بلى. قالت: فاشهد أني أجرت أبا العاص». فأطلقوا سراحه، فتوجه إلى مكة، وردّ الأمانات إلى أهلها، ثم قام فقال: «يا أهل مكة، أوفيت بذمتي؟» قالوا: «اللهم نعم». فقال: «فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله». ثم قدم المدينة مهاجرًا، فدفع إليه رسول الله ﷺ زوجته بالنكاح الأول، وقيل: بعقد جديد، والأول أرجح، وماتت زينب في حياة النبي ﷺ، أما أبو العاص فتوفي في السنة الثانية عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٤- ولما تُوفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: «من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له، فجاء جابر بن عبد الله فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال لي: لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا» يعني ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرًا فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعَدِّه، فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها.

فتأمل طويلاً في وفاء الصديق بوعد النبي ﷺ للصحابي الجليل جابر بن عبد الله على أحسن وجه، وزاد مثلي ذلك، فبلغ مجموع ما أعطاه ألفًا وخمسمائة درهم.

بمثل هذه الأخلاق بلغ المسلمون الأولون من المجد والسؤدد غايتهما حتى وصلوا أقاصي المعمورة فاتحين.

وبهذه الأخلاق نفسها يمكن أن ينهض المسلمون المتأخرون من كبوتهم وينفضوا غبار الذل عنهم، ويستأنفوا الحياة من جديد، وإلا فلا بعث لهم من مرقدهم بإعراضهم عن أخلاق سلفهم الصالح، واستبدالها بمحاولة التشبه بالأجانب، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

٥- وتأمل حديث أبي سعيد وأبي هريرة في إيقاظ الرجل زوجته وصلاتهما ركعتين فإن فعلا كُتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، والذاكرون الله كثيرًا أعدّ

الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا، وهذا الأجر كفيل بسعادة الدنيا والآخرة.

فإن كان رجال الأمة ونساؤها متخلقين بهذا الخُلق فبشرهم بالعظمة والقوة والمد والرفعة، وإن كانوا عنه معرضين فبشرهم بعذاب أليم.

وتأمل دعاء النبي ﷺ: بالرحمة لكل رجل قام لذكر الله بالصلاة، وأيقظ زوجته لتشاركه في هذه الغنيمة، فإن امتنعت رشَّ على وجهها ماءً يطير النوم من عينيها وينشطها للقيام، وبمثل ذلك دعا للمرأة الصالحة التي تقوم من الليل لذكر الله، ومناجاة ربها في صلاتها، وتوقظ بعلها ليشاركها في الخير، فإن أبى رشت على وجهه ماءً يوقظه من سِنته، وينشطه للقيام.

فهذه صفة الأمة السعيدة القوية المنصورة المؤيّدة، وخلافها صفة الأمة الخائرة الضعيفة المتخاذلة الشقية.

الجماعة الربانية:

ولابد أن يتوفر فيها صفات أساسية:

أ- أن يكون مرجعها في العمل والاعتقاد مستمدًا من الكتاب والسنة المطهرة، ويندرج تحت ذلك:

أن يكون مفهوم التوحيد واضحًا، والعبودية لله وحده، فالإسلام هو المهيمن على شئون الحياة.

ومفهوم التوحيد أنواع ثلاثة:

١- توحيد الألوهية: (أي إفراد الله بالطاعة والعبادة)، فهذا توحيد قصد وطلب، فالشعائر التعبدية، والنذر، والنحر، والحلف، والاستغاثة، والاستعاذة، والتوكل، والخشية، والرجاء كلها لله عز وجل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٢- توحيد الربوبية: (أي: الاعتقاد بأنه وحده الخالق، الرازق، المحيي، المميت، بيده ملكوت كل شيء)، فهذا توحيد معرفة وإثبات.

٣- توحيد الأسماء والصفات: وهو الاعتقاد بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا المنزهة عن كل نقص، وإثبات الصفات دون تعطيل، ولا تمثيل، ولا تأويل، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ب - أن يكون الولاء لله ولرسوله ﷺ، وضبط العلاقة بين المسلمين بعضهم البعض وبينهم وبين عدوهم على أساس ذلك: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

جـ- تربية الأفراد وربطهم بالله عقيدةً، وسلوكًا، وتحويل المعاني إلى يقين وصدق يملأ القلب بحرارة العقيدة، ويدفع الجوارح لتحقيق مدلولها في واقع الحياة حتى يكون خلقهم القرآن، ويصبحون مصاحف تمشي على الأرض.

د- أن يوافق القول العمل حتى لا يكون الخوض والجدل: «ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل». [رواه احمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، انظر الفتح ٩٥/٣]

ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: «إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال، إن ذُلّ المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذل من عصاه».

[إغاثة اللهفان]

هـ- أن تصبر الأمة على أمر الله ودينه، لعل الله يمن عليها بنصره وتمكينه، وأن تأخذ على عاتقها إقامة شرع الله، وتطهير الأرض من عبث الشياطين، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

وليتذكر قول الشافعي حينما سئل: أيهما أفضل للرجل، أيمكن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكن حتى يُبتلى.

[زاد المعاد]

والمؤمن يحس بلذّة المشقة من أجل الله، ويشعر بالراحة وهو في المحنة، يصفُ السلفُ سعادتهم في الجهاد والعبادة فيقولون: «مساكين أهل الغفلة خرجُوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، فلو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

ويقول ابن القيم: «فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام لله، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة».

ويقول: «ولا سبيل إلى للوصول إلى السعادة، والفوز الأكيد إلا بالعبور على هذا الجسر».

وقد أعد الله جزيل المثوبة، وعظيم الأجر لمن يسيرون في هذا الطريق.

فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيهن كالقابض على الجمر، للعامل فيها أجر خمسين». قالوا: يا رسول الله، خمسين منهم أو خمسين منا. قال: «خمسين منكم». [رواه أبو داود وابن ماجه، والترمذي، وقال حسن غريب، وصححه ابن حبان، ورواه البزار والطبراني بنحوه]

إلا أنه قال: للمتمسك أجر خمسين شهيدًا، فقال عمر: يا رسول الله، منا أو منهم، قال: «منكم». [رجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلي وثقه ابن حبان]

وعن عمير بن حبيب بن حماشة الصحابي قال- يوصي ابنه-: «... وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، أو ينهى عن المنكر، فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، ويثق بالثواب من الله تعالى، فإنه من وثق بالثواب من الله عز وجل لم يضره الأذى».

[رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ٢٦٦/٧]

السنة واستعصاؤها على الحاقدين

إعداد / أ.د. السيد عبد الحليم محمد حسين

حمدًا لمن نضَّر وجوه أهل الحديث، ورفع مقامهم في القديم والحديث، وصلاةً وسلامًا على سيدنا محمد مرفوع المقام، أفضل الأنام، وخاتم الرسل الكرام، وعلى آله الأطهار وصحابته الغر الميامين الأخيار، والتابعين لهم بإحسان.

أما بعدُ:

فكما حفظ المولى تقدست أسماؤه كتابه فلم يدن منه بهرج التبديل، ولم يمازجه علل التصحيف، لقوله عز شأنه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩].

كذلك قيض الله تعالى للسنة الغراء أفذاذًا موهوبين، وأئمة حفاظًا متقنين أنجبهم لنا التاريخ الإسلامي، وبلغوا القمة في الورع والتثبت، فأنفقوا أعمارهم في ضبط السنة وتحقيقها، ورحلوا إلى كل مكان للاطلاع على مخارج الأحاديث ومعرفة طرقها، حتى تربَّعوا على منصَّة الإتقان، واطمأنوا إلى ما ينقلونه عن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم بالبيان.

فكما حفظ الله تعالى تنزيله الحكيم وتكفل به، حفظ سنته المطهرة من الزيف والدخيل، لأنها مفسرة لكتابه، مفصلة لإجماله، بل قال بعضهم: إن السنة المطهرة داخلة في مسمى الذكر، فيشملها الحفظ الإلهي، ولذلك نرى تواتر جهود المحدثين في كل عصر ومصر على تنقية السنة الغراء من كل دخيل مرذول، وتمييز الصحيح من السقيم، وطرح كل ما ليس منها، بل وإفراده بالتأليف حتى لا يغتر جاهل بها، أو يقع مستعجل في شَرَكها.

وبهذا أضحت السنة عذبة المورد صافية المنهل، ولم يعلق بها من دنس الاختلاف أيُّ غبار، بيد أنها مع ذلك ما زالت السهام المسمومة المتنوعة توجَّه إليها من كل حَدَب وصوب، إلا أنها تستعصي على الحاقدين، فالسنة النبوية قد توافرت لها عوامل الحفظ، ووسائل التنقية إلى غاية ليس وراءها مرمى.

ومن أهم عوامل حفظها:

- ما كان يتمتع به الرعيل الأول والجيل المثالي رضي الله عنهم من صفاء الأذهان، وقوة القرائح؛ لأنها كانت أمة أميَّة، وغالبهم لا يقرأ ولا يكتب، والأميُّ يعتمد على ذاكرته فتنمو وتقوى لتسعفه عند الحاجة، إضافة إلى بساطة العيش وبعده عن التعقيد، فلذلك اشتهروا بالحفظ النادر، والذكاء العجيب.

قوة الدافع الديني؛ لأنهم موقنون أن ما يتلقونه عمن لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم هو شرع يجب الأخذ به، فتلقوا سنته بغاية الاهتمام ونهاية الحرص، وقد ضاعف هذا الدافع في نفوسهم ترغيبه صلى الله عليه وسلم في حفظ السنة وتبليغها إلى الآخرين، وتكرار الوصية بذلك؛ كالحديث المتواتر: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وبلَّغها، فربَّ حامل فقه غير فقيه، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه». [الترمذي: ٢٦٥٦ وصححه الألباني].

فكانوا يعتقدون وجوب الحفظ عليهم، ثم التبليغ.

وجوب التأسي به صلى الله عليه وسلم في سلوكهم العملي والخلقي دفعهم إلى حفظ الحديث والعمل بمقتضاه؛ ليتحققوا بالاتباع، والعمل بمضمون السنة يؤدي إلى حفظها، ويحول دون نسيانها.

كان النبي صلى الله عليه وسلم على علم أن الصحابة سيخلفونه في حمل الأمانة وتبليغ الرسالة؛ فكان يتبع الوسائل التربوية في إلقاء الحديث عليهم، فلم يكن يسرد عليهم الحديث سردًا متتابعًا، بل كان التأني سمته، والتكرار منهجه، ولم يكن يطيل الحديث، بل كان كلامه قصدًا، كما في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يحدِّث حديثًا لو عدَّه العادُّ... لأحصاه». [البخاري: ٣٥٦٨، ومسلم: ٢٤٩٣].

وعنه أيضًا: كما في «سنن الترمذي»: «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بيِّن فصل يحفظه من جلس إليه». [سنن الترمذي: ٣٦٣٩ وحسنه الألباني].

ثم أسلوبه البياني، فقد أوتي صلى الله عليه وسلم قوى البيان وجوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصارًا.

وهذه الوسائل مجتمعة مكنت الصحابة رضي الله عنهم من الحفظ وإتقان الرواية عمن لا ينطق عن الهوى، إضافة إلى ما خامرهم من التقوى، ومازجهم من النور المحمدي، علمًا بأن بعض كتبة الصحابة كانوا يسجلون ما يسمعون من هذه الأحاديث، فقد أخرج البخاري عن

أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثًا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب». [البخاري: ١١٣].

ثم كانت الكتابة المرجع الأساس في عصر التدوين، وذلك أن كتابة الحديث مرَّت بأدوار ثلاثة على وجه الاختصار:

أ- مرحلة جمع الحديث في صحف خاصة بالكتبة، وكانت بداية هذا الدور من العصر النبوي وبإذن صاحب الرسالة، ثم امتد إلى أول القرن الهجري الثاني على وجه التقريب.

ب- ثم تلت مرحلة التدوين والجمع، وهذه المرحلة بدأت من أول القرن الثاني الهجري، وقد أشار إلى هذه المرحلة الإمام السيوطي في «ألفيته» بقوله:

أولُ جامعِ الحديثِ والأثرْ
ابنُ شهابٍ أمرًا له عُمر

وكانت هذه المرحلة مجرد جمع للأحاديث في الصحف غالبًا، لم يراع فيها ترتيب ولا تبويب معين، إضافة إلى أنها جامعة للأحاديث والآثار؛ إذ المقصود التدوين العام؛ ليكون مرجعًا رسميًا معتمدًا متداولاً لا يخص صاحبه فقط.

المرحلة الثالثة: العصر الذهبي لتدوين السنة، وبدايتها من القرن الثالث الهجري إلى منتصف القرن الرابع تقريبًا، وفي هذه المرحلة دونت السنة وعلومها تدوينًا كاملاً، وأفردت الأحاديث النبوية بالتصنيف، ثم جاء البخاري فرأى إفراد الصحيح مرتبًا على الأبواب فوضع كتابه «الصحيح»، وتلاه مسلم وبقية الستة وهم - عدا النسائي - من تلامذته، فوضعوا كتبهم على الأبواب، وراعوا حسن الاختيار، وإن لم يشترطوا الصحة، إلا أنها أمهات وأصول، ثم تبع الشيخين في اشتراط الصحة ابن خزيمة المتوفى سنة (٣١١هـ)، ثم ابن حبان المتوفى سنة (٣٥٤هـ).

ثم اشتهرت الاصطلاحات الحديثية، واستقرت بين العلماء، وأصبح التصنيف فيها أمرًا متبعًا، ووسمت بعلوم الحديث.

ج- وقواعد التثبت في نقل السنة ظهرت في عصر النبوة؛ إذ أمر صلى الله عليه وسلم بالتثبت في الأخبار، ورهَّب من الكذب عليه، كما في الحديث المتواتر: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» [متفق عليه].

قال أهل العلم: إن هذا التواتر العجيب لهذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أنه كان يعلم أن حديثه سوف يروى، وأنه يدخل فيه الغث، فرأى من الضرورة الشرعية أن ينبه أصحابه ويلقي في أذهانهم أنه الدين، ويجب أن يتحروا فيه غاية التحري، فكان من أثر هذا أن احتاط الصحابة في الرواية، وتحروا الدقة التامة فيها، وكان له وقعُ أثر فيمن جاء بعدهم من الأئمة الأمناء من التابعين ومن بعدهم.

وكان الصدِّيق أول من احتاط في قبول الأخبار، فحين قال له المغيرة في الجدة: «حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس قال: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه». [تذكرة الحفاظ: ٢/١].

وشدة تثبت الفاروق في النقل مشهورة، فكان يفحص حتى يأتيه الفلج واليقين، وكذلك من سواهما من الصحابة؛ كعلي وزيد بن ثابت وعمران بن حصين وغيرهم.

وهكذا تضافرت الجهود وتتابعت على حفظ السنة الشريفة، والتثبت في نقلها وروايتها، وتنوعت دواعي حفظها، وتعددت وسائل ضبطها.

د- ثم اقتفى نهج الصحابة واستن بهديهم جماعةٌ من سادات التابعين، منهم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعلي بن الحسين بن علي، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسليمان بن يسار، فجدُّوا في حفظ السنن والرحلة في طلبها، والتفتيش عنها والتفقه فيها، وتتبع الطرق، وانتفاء الرجال، وخلفهم من بعدهم خَلَف ساروا على نهجهم، واقتفوا أثرهم، وكانوا أهل همم عالية، ورحلات في طلب السنة متتالية، وتثبت فريد، وهكذا استمرت حلقات السلسلة في تكامل.

هـ- والمنهج النقدي الفريد الذي قعَّده علماء الحديث، وأملوا فيه شروطًا لقبول الحديث؛ لتكفل نقله عبر الأجيال بأمانة وضبط، كان أقوى وأحكم، وأعظم حيطة في أيِّ منهج في تمحيص الروايات والمستندات المكتوبة، فصان هذا المنهج السنة النبوية من الدس، ولم يغفل هؤلاء عما اقترفه الوضاعون، وأهل البدع والمذاهب السياسية من الاختلاف في الحديث، بل بينوا ذلك ودونوا أسباب الوضع وعلامات الحديث الموضوع، وألفوا في ذلك المؤلفات.

فأضحت السنة النبوية صافية المنهل، عذبة المورود، واضحة المعالم، وكل ما علق بها من كيد الحاقدين واختلاق الوضاعين مُيِّز، وطرح في يمِّ الإهمال.

و- ومع هذا التثبت الفريد في نقل السنة إلا أن لفيفًا من المستشرقين ومن شايعهم لا يعدموا حيلاً وتهمًا يلفقونها للتشكيك في المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد أن أعياهم التشكيك في المصدر الأول القرآن الكريم، حتى قال المستشرق الألماني ردوي بارت سنة (١١٤٣م): «إن الهدف من الكتابات الاستشراقية كان إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي». [الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص١١].

وقد أيد الحقيقة المذكورة المستشرق الإنجليزي مونتجمري وات عندما قال: «إن المفكرين الأوروبيين عمدوا إلى تشويه حقائق الإسلام، وتحت شعار الدراسات الاستشراقية ودعوى المنهجية الفارغة بدؤوا ينفثون السموم، ويدسونها في العسل، ويشككون في السنة النبوية، ومن ذلك قولهم في النقد الإسلامي للسنة: تهمين النزعة الشكلية في القاعدة التي انطلق منها هذا العلم والعوامل الشكلية هي بصورة خاصة العوامل الحاسمة للحكم على استقامة وأصالة الحديث، أو كما يقول المسلمون: على صحة الحديث، وتختبر الأحاديث بحسب شكلها الخارجي فقط». [ضحى الإسلام ٢/ ١٣٠، ١٣١].

وتتلخص إشكالات المشككين هؤلاء فيما أسموه النقد الخارجي؛ يعنون السند وأحواله، ويزعمون أن المحدثين لم يعنوا بنقد المتن الذي يسمونه النقد الداخلي، هذا هو أشهر إشكالات المستشرقين، وهو أشدها ضعفًا، وأوهاها، كما سنوضحه، وقد أصيب بعدواهم بعض كتابنا؛ مثل الدكتور أحمد أمين، والدكتور أحمد عبد المنعم البهي، فقد تكرر في كلامهما الطعن في الحديث والمحدثين، بدافع تقليدهم ولهم أنصار، وتظاهروا أنهم عرفوا شيئًا خفي عن الأئمة العظام، وهي شُبَه أوهى من أن تُطرح على بساط المناقشة؛ لأن المحدثين اتفقوا أنه لا تلازم بين صحة السند وصحة المتن، والعكس أيضًا؛ فإنه لا تلازم بين ضعف السند وضعف المتن، وهذا في علم أصول الحديث موضع تسليم، بل كان النقد الداخلي أول علوم الحديث حين كان الناس متحققين بالعدالة وهو عصر الصحابة، والغريب في الأمر تناقض البهي، فقد قال في آخر مقالته ما نصه: «وقد ذكر العلماء وجوهًا في رد المتن بناء على معناه مع صحة السند». ومثل بقصة فاطمة بنت قيس، وقصة علي بن أبي طالب حين رد حديث معقل بن سنان في مهر من مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها مهرًا، فقال علي رضي الله عنه: «لا ندع كتاب ربنا لقول أعرابي بوَّال على عقبيه».

ونقد الأسانيد الذي عابه العائبون وسموه شكليًا هو في حقيقة الأمر متصل اتصالاً وثيقًا بالنقد الداخلي؛ أي: نقد المتون؛ لأن توثيق الراوي يقتضي اختبار مروياته بعرضها على روايات الثقات، فإن وافقت.. عرفنا أنه ضابط ثبت.

ز- ويقول الباحثون: إن المستشرقين استفادوا من آراء المعتزلة حول السنة، ولذلك أشادوا بهم وأثنوا عليهم، وأطلقوا عليهم اسم المفكرين الأحرار في الإسلام، ووصفهم جولدزيهر بأنهم وسَّعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيها عنصرًا مهمًا آخر وهو العقل الذي كان حتى ذلك الحين مبعدًا بشدة عن هذه الناحية.

والمعتزلة اعتبروا العقل رأس الأدلة، فقد قال القاضي عبد الجبار في معرض حديثه عن الأدلة الشرعية: «إن أولها العقل»، وقال إبراهيم النظام: «وإن جهة حجة العقل قد تنسخ الأخبار».

وقد ذكر ذات يوم حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمام عمرو بن عبيد فقال: «لو سمعت الأعمش يقول هذا... لكذبته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا.. لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا.. لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا».

فهؤلاء جعلوا العقل حكمًا لا ترد كلمته.

وهذا المسلك راق لكثير من المستشرقين فعطفوا عليهم، وطفقوا يثنون عليهم، ويضفون عليهم ألقابًا جوفاء لا قيمة لها.

وقد تتبع البغدادي فضائح المعتزلة فضيحة فضيحة، وخاصة فضائح النظَّام التي منها الطعن في كبار الصحابة والتابعين وأصحاب الحديث ورواياتهم أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما طعن في الخبر المتواتر، وجوَّز أن يقع كذبًا مع قوله: إن الآحاد يوجب العلم الضروري، والتخبيط والتناقض سمة بارزة في كلام هذه الفرقة.

ح- وفتنة إنكار حجية السنة والتشكيك فيها بدأت مع ظهور الخوارج ثم المعتزلة بوجه خاص؛ لأن الشبه التي قامت في أذهان هؤلاء نتيجة لطغيان الفلسفة اليونانية؛ لأنهم ظنوا أن كل ما هو قادم من جهة الفلسفة موافق العقل، وأنه يجب أن تكون العقائد الإسلامية وأصولها وفقًا لتلك النظريات، ولما رأوا أن السنة تمنعهم وتعرقل سيرهم أنكروها وشككوا في صحتها، إلا أن الفئتين تلاشت صولتهما بعد مدة وبدأ يخفت أمرهما إلى أن ماتت الفئتان بنهاية القرن الثالث تقريبًا.

والعامل الوحيد في مقارعة هاتين الطائفتين هو جهود المحدثين المتتابعة التي أثبتت أنه لا مجال للشك في حجية السنة أو صحتها، ولكونها شارحة للقرآن الكريم مفصلة لما أجمل، وكان ليقظة ضمير الأمة الإسلامية الدور الكبير في رفض فكرة التحرر ونبذ السنة النبوية.

وخفت صوت الباطل واضمحلت صولات المبتدعين إلا أن هذه الفتنة أحياها من جديد شرذمة في البلدان العربية وأشخاص في شبه القارة الهندية.

فقد نشر توفيق صدقي مقالين له في «مجلة المنار» في العددين (٧، ١٢) من السنة التاسعة، أعلن فيهما رأيه تحت عنوان: «الإسلام هو القرآن وحده».

ولأحمد أمين في «فجر الإسلام» و«ضحاه» ما يومئ إلى هذا المسلك أو قريبًا منه، وكذلك ممن أثاروا فتنة التشكيك في السنة المطهرة إسماعيل أدهم فيما كتبه عام (١٣٥٣هـ).

ثم تسلم الراية أبو رية وكتب بحثه الذي أسماه

«أضواء على السنة المحمدية» فتطابقت أسباب إحياء هذه الفتنة من جديد بنفس الأسباب التي دعت الخوارج والمعتزلة إلى إنكار السنة والإعجاب الشديد بالنظريات الأجنبية عن الإسلام، ومحاولة صبغة الإسلام بلون تلك النظريات الدخيلة، وتعددت الردود على ظلمات أبي رية من الغيورين.

ولذلك كانت مصادر هؤلاء هي نفس المؤلفات التي نفث فيها المستشرقون سمومهم من الشبهات للغض من المصادر الإسلامية وأصولها، ومن ثم نشأت فكرة «أهل القرآن» أو «القرآنيون» ويقول الدكتور محمد لقمان السلفي: «وأصبحت مؤامرة محبوكة في شبه القارة الهندية، واتخذت طابع جماعة منظمة منذ أوائل هذا القرن».

ط- وهذا نموذج من هذا الغثاء ليتنبه الفطن إلى المؤامرات التي تحاك ضد السنة النبوية والمحدثين العظام، ليدرك مدى خطورة هذه الأقلام على الفكر العام من جهة، وقلة بضاعة هؤلاء الكُتَّاب وأئمتهم من علوم الشرع عامة ومن علم الحديث خاصة.

قال أحمد أمين في «فجر الإسلام»: «حتى نرى البخاري نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة، لاقتصاره على نقد الرجال».

وهذا محض توهم وخروج عن دائرة الحقائق الناصعة.

وقال في «ضحى الإسلام»: «والحق أن المحدثين عنوا عناية تامة بالنقد الخارجي.. ولكنهم لم يتوسعوا كثيرًا في النقد الداخلي، فلم يعرضوا لمتن الحديث هل ينطبق على الواقع أم لا؟»

وقال أبو رية في مقدمة كتابه: «وطريقة هذه الفئة التي اتخذتها لنفسها قامت على قواعد جامدة لا تتغير ولا تتبدل، فترى المتقدمين منهم وهم الذين وضعوا هذه القواعد قد حصروا عنايتهم في معرفة رواة الحديث والبحث على قدر الوسع في تاريخهم، ولا عليهم إن كان ما يصدر عن هؤلاء الرواة صحيحًا في نفسه أو غير صحيح، ومعقولاً أو غير معقول، ذلك أنهم وقفوا بعلمهم عندما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى.. فلا يعنيهم من أمره شيء».

ويقول أحمد زكي أبو شادي: «وهذه سنن ابن ماجه والبخاري بل وجميع كتب الحديث والسنة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبل صحتها العقل، ولا نرضى نسبتها إلى الرسول، وأغلبها يدعو إلى السخرية بالإسلام والمسلمين وبالنبي الأعظم والعياذ بالله».

ويقول إسماعيل أدهم: «الأحاديث الموجودة في «الصحيحين» ليست ثابتة في الأصول والدعائم، بل هي مشكوك فيها ويغلب عليها صفة الوضع».

والقائمة طويلة طويلة، وكلها على هذا المنوال، كلام إنشائي تقيده الأقلام، وتمج فيه عداءً قويًا للسنة وحملتها وللشريعة وتعاليمها.

بيد أن الله تعالى رافع راية هذه الطائفة المنصورة، ومعز دينه بها، ففي الصحيحين وغيرهما من حديث جماعة من الصحابة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» [متفق عليه].

قال البخاري رحمه الله: «هم أهل العلم». وقال الإمام أحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟».

قال القاضي عياض: «إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث».

وقال النووي رحمه الله: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في جميع أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن الوصف ما زال بحمد الله تعالى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث».

وهو دليل على أنه يؤهل الله تعالى من يشاء ليرجع إليه المسلمون فيما يحتاجون من أمور الدين والعلوم الشرعية في كل عصر ومصر.

ك- قال أهل العلم: إن الإجماع قد انعقد على صحة أحاديث «الكتابين»، فإذا قيل: هذا الحديث رواه البخاري أو مسلم.. كان ذلك كافيًا للحكم بصحة الحديث، لا حاجة إلى أن يحكم عليه بالصحة إلا أن يكون التنطع والتشبع.

ومن عجيب أمر من اصطنع ذلك في عصرنا أنه يشهد بقول السابقين: «صحيح أخرجه البخاري»، أو «صحيح متفق عليه» فيجعله دليلاً لصحة قوله مثلاً: «أخرجه البخاري، قلت: وهو صحيح» مع أن البون شاسع ظاهر بين العبارتين؛ الأولى: تأكيد للصحة بإخراج البخاري أو مسلم، والثانية: تأسيس لحكم جديد للحكم بالصحة كما لا يخفى على من له إلمام بالعربية.

ل- و «صحيح البخاري» على وجه الخصوص، حظي بالعناية التامة من كل وجه، وخدم الخدمات الفائقة من سائر النواحي، وأقبل على دراسته وتدريسه وإملائه، العالم الإسلامي في كل قطر وعصر، وظهرت بركته في الآفاق، وكانت أحاديثه من حيث الثبوت محل اتفاق.

نسأل الله العظيم أن يرفع في الجنة درجات المحدثين الثقات وسائر علماء المسلمين الأثبات، وأن يلحقنا بهم على خير، والحمد لله رب العالمين.

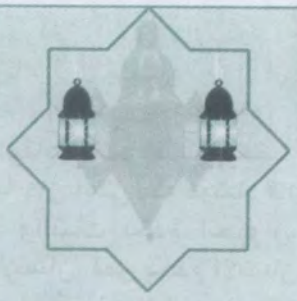

الإسلام وبناء الإنسان

إعداد/ أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن أول ما يهدف إليه الإسلام هو بناء «الإنسان الصالح» الجدير بأن يكون خليفة الله في الأرض، والذي كرمه الله أفضل تكريم، وخلقه في أحسن تقويم، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، فهو إنسان اكتملت فيه خصائص الإنسانية، وارتفع عن حضيض الحيوانية البهيمية أو السَّبُعية، وهذا الإنسان الصالح هو أساس الأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة.

إنسان إيمان وعقيدة

وإنسان الإسلام هو - قبل أي اعتبار - إنسان إيمان وعقيدة، قد اتضحت فكرته عن نفسه، وعن العالم من حوله، فهو ليس نباتًا كنبات البرية، ظهر وحده من غير زارع من البشر زرعه، ولا الكون من حوله برز وحده من غير خالق خلقه ومدبر دبّره، بل هو يؤمن أن له ربًا خلقه فسواه فعدله، وعلمه البيان، ومنحه العقل والإرادة، وأرسل إليه الرسل، وأنزل له الكتب، وأقام عليه الحجة، وعرفه الغاية والطريق.

كما أن هذا العالم البديع وراءه خالقٌ عظيم، خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، لكن الذي خلقه سيفنيه، ويبدل به عالمًا آخر، هو عالم الخلود، فيه توفى كل نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت، وهم لا يظلمون.

قال تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ» [ص: ٢٧- ٢٨]؟

وقال جل وعلا: «لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا» [النساء: ١٢٣- ١٢٤].

وبهذا عاش الإنسان المسلم مؤمنًا بالله تعالى، مؤمنًا برسالاته وبجميع كتبه ورسله، وآخرها رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مؤمنًا بلقائه تعالى، وحسابه وعدالة جزائه، في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، قال سبحانه: «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ

عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » [طه: ١٠٩ - ١١٢].

إن هذا الإيمان هو أول ما يميز الإنسان المسلم، فهو مؤمن بعقيدة جوهرها التوحيد، ومعنى التوحيد: أنه لا خالق إلا الله، ولا معبود إلا الله، فهو يعني توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، ولا يغني أحدهما عن الآخر، فقد كان مشركو العرب يؤمنون بأن الله هو وحده خالق السماوات والأرض، كما حكى عنهم القرآن: « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ » [العنكبوت: ٦١].

ومع هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، رأيناهم يعبدون مع الله آلهة أخرى، بغير سلطان ولا برهان، إلا دعاوى فارغة، مثل قولهم: «هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ » [يونس: ١٨] وقولهم: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ » [الزمر: ٣].

التوحيد أساس الحرية:

والإسلام جاء دعوة تحريرية كبرى، لتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله تعالى: من عبوديته للطبيعة، وللأشياء، في الأرض كانت أو في السماء، ومن عبوديته للحيوان، ومن عبوديته للشيطان، ومن عبوديته للإنسان، سواء كان ملكًا أو كاهنًا، بل من عبوديته لنفسه وهواه، فلا يعبد إلا الله، ولا يشرك به شيئًا، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث برسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ويختم رسائله إليهم بهذه الآية الكريمة: «يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ » [آل عمران: ٦٤].

إنسان نسك وعبادة:

وإنسان الإسلام كذلك، إنسان نسك وعبادة، فهو يعلم أن الكون من حوله خلق له، أما هو فخلق لله وحده، وبهذا أدرك غاية حياته، وسر وجوده.

فعبادة الله وحده لا شريك له، هي غاية غاياته، فلها خلق، ومن أجلها سُخر له ما في السماوات وما في الأرض. يقول الله تعالى: « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

إن المخلوقات يخدم بعضها بعضا - كل جنس يخدم ما كان أعلى منه مرتبة، فالجماد يخدم النبات، والنبات يخدم الحيوان، والحيوان يخدم الإنسان، فمن يخدم الإنسان؟

الإنسان لم يُخلق إلا لخدمة ربه وبارئه، أي لعبادته وعبادته وحده، دون إشراك أحد أو شيء من خلقه في الأرض، أو في السماء.

بهذا بعث الله الرسل على مختلف العصور والأزمان، قال تعالى: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ » [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ » [الأنبياء: ٢٥].

ومن هنا يجب على الإنسان المسلم أن يكون متعبدًا لله تعالى، مؤتمرًا بأمره، منتهيًا عما نهى عنه، جاعلاً خشيته وتقواه نصب عينه، لأن الله تعالى قال: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ » [المائدة: ٢٧].

وتتمثل العبادة أول ما تتمثل في إقامة الشعائر الكبرى التي فرضها الإسلام، وجعلها من أركانه العظام، من الصلاة والصيام والزكاة والحج، ثم ما يكملها من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن، والتسبيح والتهليل والتكبير.

فالمسلم يذكر ربه في كل حين، وعلى أية حال، في أكله وشربه، وعند نومه وعند يقظته، وفي إصباحه وإمسائه، ولدى مدخله ومخرجه، ويوم سفره وأوبته، وعند لبسه ثوبه، أو ركوبه مركبته، حتى عند ممارسته الغريزية مع أهله لا ينسى في هذه المواقف وغيرها أن يذكر الله تعالى، وهذا هو شأن أولي الألباب، قال تعالى: « ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » [آل عمران: ١٩١].

وإذا كان أكثر أتباع الأديان لا يعبدون ربهم إلا مرة في كل أسبوع، فإن المسلم على موعد مع الله كل يوم خمس مرات، في صلواته المفروضة، ثم هو مع الله دائمًا بالنوافل

والذكر والدعاء والاستغفار، قال سبحانه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا» [الأحزاب: ٤١- ٤٢].

على أن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة إذا التزم منهج الله، وقصد بعمله - حتى الدنيوي - وجه الله تعالى.

إنسان خُلق وفضيلة:

والإنسان المسلم - إلى جوار كونه إنسان إيمان وعقيدة، وإنسان نسك وعبادة - هو أيضًا إنسان خلق وفضيلة، تتجسم فيه الطهارة بكل معانيها، وتتمثل فيه فضائل العدل والرحمة والإيثار، قد اتخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوةً حسنة، والذي بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، ووصفه بأنه على خُلق عظيم، فهو يقتبس من نوره ويهتدي بهداه، ويتخلق بخلقه، ليكون أقرب إليه يوم القيامة، فهو إنسان قد انتصر على نوازعه وشهواته، حين زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والمراقبة، حتى انتقلت من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة، وبهذا استحقت الفلاح حين انتصرت فيها التقوى على الفجور، كما قال تعالى: «وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا» [الشمس: ٧- ١٠].

لقد علمنا الإسلام أن الخلق والفضيلة من لوازم العقيدة، وتمام الإيمان، كما أنهما ثمرة لازمة للعبادة الحقة، وإذا لم تثمر العبادة في الخلق والسلوك دل ذلك على أنها عبادة مدخولة.

والقرآن الكريم يحدثنا عن الإيمان مجسدًا في أخلاق وفضائل، كما في قوله تعالى: «قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ» [المؤمنون: ١- ٩].

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن الإيمان كذلك في صورة أخلاق وأعمال وفضائل، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» [رواه البخاري ٦١٣٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [مسلم ٣٥].

وقد ألف الإمام البيهقي كتابًا كبيرًا سماه «الجامع لشعب الإيمان». يشمل كل الفضائل وأعمال الخير التي دعا إليها الإسلام، واعتبرها كلها من شعب الإيمان، كما دل على ذلك الحديث.

والعبادات الشعائرية المفروضة من شأنها أن تثمر زكاة النفس بالفضائل، وطهارتها من الرذائل، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم؛ إذ يقول ربنا سبحانه في شأن الصلاة: «إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ» [العنكبوت: ٤٥]، وفي شأن الزكاة: «خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا» [سورة التوبة: ١٠٣]، وفي شأن الصيام: «كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ» [البقرة: ١٨٣].

وفي الحديث: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» رواه البخاري.

«رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر» رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

وخُلق المسلم لا يتجزأ، فهو ليس كخلق اليهودي الذي يحرم الربا في تعامله مع مثله، ويستحله في تعامله مع الآخرين، وليس كخلق إنسان الغرب الاستعماري الذي يتعامل داخل أوطانه بأخلاق وفضائل مثالية، فإذا تعامل مع البلاد الأخرى سرق وظلم، وطغى واستكبر.

المسلم يعدل مع من يحب ومن يكره، مع

القريب الأقرب، ومع العدو الأبعد، قال تعالى: «كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ» [النساء: ١٣٥]، وقال جل وعلا: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ» [المائدة: ٨].

إنسان شريعة ومنهج:

والمسلم - فضلاً عن التزامه بالخُلق والفضيلة - هو ملتزم كذلك بمنهج رباني، بشريعة محكمة، مفروضة عليه من ربه، أحلت له الحلال، وحرمت عليه الحرام، وحددت له الواجبات، وبيّنت له الحقوق، وفصّلت له كل ما يحتاج إليه، فلم تدعه هملاً، ولم تتركه نهبًا للفلسفات والأنظمة البشرية المتضاربة، تميل به عن يمين وشمال، بل رسمت له «الصراط المستقيم» وألزمته بالسير فيه، مراعية ما يعرض عليه من ضرورات، فأباحت له بعض ما حظرت عليه بقدر ما توجب الضرورة وحجمها وزمنها، من غير بغي ولا عدوان، كما قال تعالى في شأن الأطعمة المحرمة: «فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأنعام: ١٤٥].

فالمسلم مقيد في حياته كلها بما أحل الله له، فهو ليس «سائبًا» يفعل ما يشتهي، بل هو منضبط بفعل «ما ينبغي».

فإذا أخذنا الأكل مثلاً، فهو لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير، ولا يأكل من اللحم إلا ما ذبح ذبحًا شرعيًا، أما ما لم يذبح أو ذبح على النصب أو أهل لغير الله به فلا يحل للمسلم أكله.

وكذلك لا يحل له أن يأكل طعامًا غُصب من صاحبه الشرعي، أو سُرق أو أُخذ بالباطل، كما لا يحل له أن يأكل طعام امرئ بغير طيب نفس. والوعيد في ذلك شديد، فكل جسد نبت من سحت فالنار أولى به.

وكذلك لا يحل للمسلم أن يتناول أي طعام أو أي مادة يضره تناولها: لأنه ليس ملك نفسه، والإضرار بنفسه حرام، لأنه قتل بطيء لها، والله تعالى يقول: «وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» [النساء: ٢٩].

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «لا ضرر ولا ضرار» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني]، أي: لا تضروا أنفسكم، ولا تضاروا غيركم.

ومن هنا كان تناول «التبغ» وملحقاته، بعد أن ثبت ضرره علمًا وطبًا وواقعًا، حرامًا بلا شك، ومن باب أولى: المخدرات التي هي بمنزلة السموم، فالتحريم في الإسلام يتبع الخبث والضرر، قال تعالى: «وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ» [الأعراف: ١٥٧].

كما أن المسلم لا يشرب الخمر، حفاظًا على عقله وجسمه وخلقه، ويعتبرها أم الخبائث ورجسًا من عمل الشيطان، وكبيرة منافية للإيمان، كما في الحديث الصحيح: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» رواه مسلم، وحتى المأكل الحلال، والمشرب الحلال، لا يتناوله المسلم في آنية ذهب ولا فضة، فإن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب، أو الفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم، كما صح بذلك الحديث [متفق عليه].

وهو حين يأكل أو يشرب ما يحل له، لا يتجاوز الحد المناسب، فيدخل في دائرة الإسراف المحرم، كما قال تعالى: «يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ» [الأعراف: ٣١].

والمسلم في علاقاته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية مقيد بأحكام الشريعة الإلهية، فهو يتزوج أو يطلق، ويبيع ويشتري، ويستأجر ويؤجر ويكتسب وينفق، ويمتلك ويهب، ويرث ويورث، ويحكم ويحتكم، ويسالم ويحارب، وفقًا لأوامر الشريعة ونواهيها، واقتضائها وتخييرها: «فما أحل الله فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو».

والحديث بقية إن شاء الله.

الإسلام وبناء الإنسان

الحلقة الثانية

إعداد / أ.د/ السيد عبد الحليم محمد حسين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

نتابع في هذا اللقاء ما كنا قد بدأناه في العدد الماضي عن بناء الإسلام للإنسان المسلم، فنقول مستعينين بالله تعالى:

إنسان دعوة وجهاد:

والإنسان المسلم فوق ما سبق: إنسان دعوة وجهاد، أعني أنه لا يقف عند صلاح نفسه، بل يبذل جهده لإصلاح غيره، ودعوة الآخرين إلى ما هداه الله إليه.

ومن هنا وجدنا سورة العصر - على وجازتها - تشترط لنجاة الإنسان من خُسر الدنيا والآخرة - إلى جواز الإيمان وعمل الصالحات - التواصي بالحق والتواصي بالصبر: «وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ» [العصر: ١- ٣].

ومعنى التواصي هنا: أن يوصي غيره بالحق ويدعوه إليه، وأن يتقبل من غيره الوصية بالحق كذلك، فكل مسلم موص، وموصى بالحق في الوقت ذاته، وهذا هو معنى التواصي.

فالمسلم بطبيعته داعية، لأنه يوقن أن رسالته للعالم كله، وللزمن كله، وللحياة كلها، فهو يسعى لمد شعاعها، وتعميم رحمتها على العالم: «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧].

وكما أن محمدًا صلى الله عليه وسلم بُعث رحمة للعالمين، كما علمنا القرآن، وكما قال عن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة» [صحيح الجامع للألباني ٢٣٤٥]، فأمته مبعوثة كذلك بما بعثه الله به، وكل من اتبعه فهو داعية إلى الله، مقتد به، كما قال تعالى مخاطبًا له: «قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى» [يوسف: ١٠٨]، فكل من اتبعه عليه الصلاة والسلام فهو داعٍ إلى الله على بصيرة، أو هكذا يجب أن يكون.

وهكذا قال الصحابي ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

والمسلم يبدأ دعوته في محيطه الخاص أولاً، أي في أهله وأولاده وأسرته، كما قال الله

تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ» [التحريم: ٦]، وقال جل وعلا: «وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ» [طه: ١٣٢].

ثم يمتد بدعوته في المجتمع من حوله، داعيًا إلى الخير، محذرًا من الشر آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فلا يجوز له أن يقف موقف المتفرج، أو غير المبالي، من شيوع المنكر، أو ضياع المعروف، بل لا بد أن يتقدم ليغيّر المنكر إن استطاع بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

ولا يفهم من «التغيير بالقلب» هنا: أنه «موقف سلبي» بل هو «غليان من الداخل» في مواجهة منكر غالب وراءه قوى ظالمة تسنده وتحميه، وهذا الغليان لا بد أن يتجسد يومًا في عمل إيجابي له أهميته في تغيير المجتمع.

المهم ألا يتخذ المنكر صفة الشرعية بطول السكوت عنه، فهذا هو الذي يجلب لعنة الله على المجتمعات، ويحل بها سخطه ونقمته: «لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ» [المائدة: ٧٨].

حتى لو كان الذين يقترفون المنكر، أو يحمونه، من أولي الأمر، وأصحاب الشأن، ينبغي للمسلم ألا يضعف في مواجهتهم بالأمر والنهي، بالحكمة والموعظة الحسنة، مستندًا إلى قوة الحق الذي معه، وإلى اليقين بأن رزقه بيد الله لا يملك أحد أن ينقصه، وأن أجله عند الله مسمى، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم.

وهذا هو الجهاد الداخلي الذي اعتبره النبي العظيم في ذروة أنواع الجهاد حين سُئل عن أفضل الجهاد، فقال: «كلمة حق عند سلطان جائر» [رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي رقم٤٢٢٠].

ولا يقف المسلم عند حد الجهاد الداخلي بالدعوة والأمر والنهي، بل هو يجاهد بلسانه، ونفسه وماله، لتصل كلمة الله إلى الناس كافة، كما جاء في الحديث: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم، وألسنتكم» [رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي رقم٣٠٩٦].

واعتبر القرآن الكريم الجهاد بتبليغ الدعوة من الجهاد الكبير، حين قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: «فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ» أي: بالقرآن «جِهَادٗا كَبِيرٗا» [الفرقان: ٥٢]، وهذه الآية مكية، أي قبل أن يشرع القتال في المدينة بسنوات.

وإذا كانت المذاهب والفلسفات الأرضية، والأديان السماوية المحرفة، تسعى لنشر دعوتها في العالم، فأولى بدين الله الخالد والخاتم أن يجد من ينشره في الآفاق حتى يتحقق وعد الله: «لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ» [الفتح: ٢٨]، وصدق الله إذ يقول: «سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ» [فصلت: ٥٣].

إنسان عقل وعلم:

وإذا كان إنسان الإسلام إنسان إيمان وعقيدة، فهو - في الوقت نفسه - إنسان عقل وعلم، إذ لا تعارض في الإسلام بين الإيمان والعقل، ولا بين الدين والعلم.

الدين الإسلامي لا يقول للمسلم ما تقوله أديان أخرى: اعتقد وأنت أعمى! بل يدعوه أن يكون على «بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ» [محمد: ١٤]، وأن يؤسس عقيدته على «اليقين» لا على «الظن»، وأن يعتمد على «البرهان» لا على «التقليد».

والقرآن ينادي أصحاب الملل والنحل المختلفة بقوله: «قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ» [البقرة: ١١١]، «قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ» [الأنعام: ١٤٨].

ويدمغ القرآن المشركين بقوله: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا» [النجم: ٢٨].

وكما أنكر القرآن اتباع الظن في الموضع الذي يتطلب اليقين، أنكر كذلك اتباع الهوى والعواطف في مقام يوجب الموضوعية الخالصة، فقال تعالى عن عباد الأصنام: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ» [النجم: ٢٣].

وإلى جوار ذلك شنّ حملة شديدة العنف على التقليد الأعمى للآخرين، الذي يجعل الإنسان يلغي عقله، ويفكر بعقل غيره، سواء كان هذا الغير يتمثل في الآباء والأجداد المعظمين عنده، أو في السادة الكبراء ذوي النفوذ والسلطان الذي قد يبلغ درجة التأله في الأرض، أو في جمهور الناس وغوغائهم الذين اختلت موازينهم.

وفي نقد التقليد للآباء جاءت آيات كثيرة، منها في القرآن المكي قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا

مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ» [الزخرف: ٢٣- ٢٤].

وفي القرآن المدني: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» [المائدة: ١٠٤].

وفي نقد التقليد للكبراء والسادة، تقرأ في القرآن المكي، وهو يصور بعض مشاهد الآخرة ومواقف المعذبين في الجحيم بعضهم من بعض: الأتباع والمتبوعين، الأذناب والرؤوس: «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ» [الأعراف: ٣٨- ٣٩]. وهذا التلاوم تكرر كثيرًا في السور المكية.

وفي القرآن المدني نقرأ قوله تعالى: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ» [البقرة: ١٦٦- ١٦٧].

وفي نقد التقليد للعامة، والاندفاع وراء الجمهور، ولو كانوا على باطل، جاء الحديث النبوي يحذر من هذه التبعية فيقول: «لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا». [رواه الترمذي وقال: حسن غريب وضعفه الألباني].

ومن ناحية أخرى يحث القرآن بأبلغ الأساليب على النظر والتفكير والتدبر، سواء في آيات الله الكونية المنظورة، أم في آياته التنزيلية المقروءة والمسموعة، وبعبارة أخرى في المصحف الصامت وهو الكون! والمصحف الناطق وهو القرآن.

اقرأ إن شئت هذه الآيات: «قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [يونس: ١٠١].

«أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ» [الأعراف: ١٨٥].

«وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» [الذاريات: ٢٠، ٢١].

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» [فصلت: ٥٣].

ويقول الله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [النساء: ٨٢]. وقال سبحانه: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» [ص: ٢٩].

والعقل عند المسلمين ليس نقيضًا للوحي، بل هو الدليل على صدقه، ولهذا يعتبر المحققون من علماء المسلمين: أن العقل أساس النقل؛ إذ لولا العقل ما عرفنا وجود الله تعالى، ولا أقمنا الأدلة عليه، وأبطلنا شبهات الدهريين والملاحدة، ولولا العقل كذلك ما قام البرهان على إمكان الوحي ووقوعه، وصدق الأنبياء والرسل، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن للعقل مجالاً لا ينبغي أن يتجاوزه، وإلا تاه في أودية الضلال، وأما ذات الله تعالى وما يتعلق بجلال شأنه فليس للعقل سلطان عليه، والأولى له التسليم للوحي فيه، والتلقي عنه، بعد أن يثبت هو صحته، فالعقل هو الذي يقيم الدليل على صدق الوحي، ثم يعزل بعد ذلك نفسه - كما قال الغزالي - ويأخذ عنه ما لا يدخل في اختصاصه في شئون الألوهية وعوالم الغيب، وأحوال الآخرة، كما قال تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» [الإسراء: ٨٥].

وقد روي في حديث: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» [حسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٩٧٦]. وبهذا التسليم يوفر الإنسان طاقته العقلية للبحث فيما هو أجدى عليه وأليق به.

وعلى المسلم أن يطلب كل علم نافع مع أهله، فطلب العلم فريضة، منه ما هو فريضة عينية، ومنه ما هو فريضة كفائية على مجموع الأمة، سواء كان علمًا دينيًا أم دنيويًا، مما يحتاج إليه الفرد أو المجتمع.

وإنما العلم بالتعلُّم، وقد منح الله الإنسان أدوات العلم، فلا يجوز له أن يعطلها: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [النحل: ٧٨].

والقرآن يذم الكفار، ويجعلهم حطب جهنم لتعطيلهم هذه الأدوات: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» [الأعراف: ١٧٩].

وينهى القرآن عن اتباع ما ليس للإنسان دليل عليه: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا» [الإسراء: ٣٦].

ودليل الماديات هو الحس، ولهذا أنكر القرآن على الذين زعموا الملائكة إناثًا بقوله: «أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ» [الزخرف: ١٩].

ودليل العقليات هو الفكر «قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ» [البقرة: ١١١].

ودليل التاريخيات ونحوها هو النقل الصادق: «ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ» [الأحقاف: ٤].

ودليل الغيبيات والشرعيات هو الوحي: «قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ» [يونس: ٥٩]، «نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ» [الأنعام: ١٤٣]، وعلى هذه المبادئ أقام الإنسان المسلم حضارة شامخة جمعت بين العلم والإيمان، وتركت آثارها في حياة الإنسان علومًا ومعارف شتى، سادت الدنيا قرونًا من الزمان.

إنسان عمارة وإنتاج

والإنسان المسلم ليس راهبًا في ديره، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة، يعطيها كما يأخذ منها، ويعد عمارتها هدفًا من أهداف خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، كما قال الله تعالى على لسان صالح لقومه: «يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» [هود: ٦١]، ومعنى: «استعمركم» أي: طلب إليكم عمارتها، والأصل في الطلب هو الوجوب، وعمارة الأرض لا تنافي العبادة، بل هي - إذا استقامت على أمر الله، وانضبطت بتعاليم شرعه - تصبح عبادة وقربة إلى الله تعالى، كما سيأتي.

وقد جعل الله الأرض للإنسان مهادًا وفراشًا، وجعل له فيها مستقرًا ومتاعًا إلى حين وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأودع فيها أسباب المعايش التي تحقق بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله، فما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا ورزقه موفور في هذه المعمورة.

ولكن جرت سنة الله ألا ينال رزقه إلا بكدح وسعي، فمن جد وجد، ومن زرع حصد.

يقول الله تعالى: «هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ» [الملك: ١٥].

فمن مشى في مناكب الأرض الذلول أكل من رزق الله، ومن قعد وتقاعس - بلا عذر - كان جديرًا ألا يأكل، إلا أخذًا من حق غيره من المشاة العاملين.

والعبادات الشعائرية في الدين الإسلامي لا تعطل المسلم عن العمل لدنياه، فهي لا تحتاج إلى تفرغ ولا انقطاع، بل هي دقائق معدودات لكل صلاة من الصلوات اليومية، الموزعة على أوقات اليوم والليلة.

والقرآن يصف رواد المساجد، العابدين لله تعالى بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ» [النور: ٣٦- ٣٧].

ليس هؤلاء العباد المخلصون رهبانًا ولا دراويش، بل هم رجال أعمال وأموال، ولكن لم تلههم دنياهم عن آخرتهم، ولم يشغلهم حظ أنفسهم عن حق ربهم.

والمسلم مطالب أن يعمل لدنياه، بما تيسر له من فروع الإنتاج، زراعة أو صناعة أو تجارة، أو رعيًا، أو صيدًا، أو استخراجًا لما في الأرض، أو غير ذلك، مما تحتاج إليه الجماعة.

وفي الحديث الصحيح: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة». [متفق عليه].

ومعنى هذا أن المسلم مطالب بالعمل للحياة إلى أن يتلفظ آخر أنفاسها، سواء انتفع بعمله أحد أم لم ينتفع، إنما هو مطالب بالعمل لذات العمل، فهو عبادة، وجهاد مقدس.

وإذا انصرف الناس عن الصناعات والحِرَف، وأصبحوا فيها عالة على غيرهم من غير المسلمين، كان العمل في هذا الميدان أولى وأعظم أجرًا.

وإذا احتاج الناس إلى التجارة لانقطاع الطرق، أو لوجود مخاطر شديدة، أو لقلة المكاسب بها، أو لغلبة بعض الأفراد أو الفئات على الأسواق، وتلاعبهم بالأسعار واحتكارهم للسلع والأقوات، تكون التجارة هنا أفضل.

نسأل الله أن يوفقنا لما ينفعنا في ديننا ودنيانا، وأن يتقبل منا صالح أعمالنا، ويغفر لنا ما سلف من سيئاتنا، والحمد لله رب العالمين.

أثر العمل الصالح في انفراج الشدائد

إعداد/ أ.د. السيد عبد الحليم

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والإمام أحمد في «مسنده»، وأبو داود في «سننه»، وأدخلت بعضهم في بعض، والسند الآتي هو للبخاري رحمه الله تعالى، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: أخبرنا ابن جريج، قال: أخبرني موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه أبو داود بنحو هذا السند، فقال في آخره: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله، قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فَرَق الأرز؟».

قال: خرج ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون يرتادون لأهليهم، فغيمت السماء، وأصابهم المطر، حتى آواهم المبيت إلى غار في جبل، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم باب الغار، فانطبقت عليهم حتى ما يرون خصاصة، فعالجوها فلم يستطيعوها. فقال بعضهم لبعض: قد وقع الحجر، وعفا الأثر، ولا يعلم بمكانكم إلا الله عز وجل، لقد وقعتم في أمر عظيم، إنه والله لا ينجيكم إلا الصدق، إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فادعوا الله بأفضل عمل عملتموه؛ لعل الله يفرجها عنكم برحمته، وينجينا من هذا.

فقال أحدهم: اللهم (إنك تعلم) أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وامرأتي وصبية صغار، فكنت أخرج فأرعى عليهم ثم أجيء فأحلب، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي. فنأى بي طلب الشجر والكلأ يومًا، فأبطأت عنهما ليلة، فما أتيت حتى أمسيت، فجئت فوجدتهما نائمين، فحلبت كما كنت أحلب، فقمت عند رءوسهما وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، والصبية يتضاغون عند قدمي، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبَوَاي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما وأبدأ بالصبية قبلهما، فلبثت والقدح على يدي، ولم يزل ذلك دأبي ودأبهما، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة يرون منها السماء، ولا يستطيعون الخروج.

وقال الثاني: اللهم (إنك تعلم) أني كنت أحب امرأة من بنات عمي، كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين دينارًا على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت. حتى إذا قدرت عليها (وجلست منها مجلس الرجل من المرأة) قالت: اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، وارتعدت من تحتي. فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين، قلت: خَفْيته في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فتركتها وانصرفت عنها. وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فافرج لنا منها فرجة، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم (إنك تعلم) أني كنت استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، استأجرته بفرق من أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه حقه، وأعطيته فرقه، فتركه ورغب عنه، وزعم أن أجره أكثر من أجور أصحابه، فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، ولم أزل أزرعه حتى كثرت منه الأموال، فصار من أمره أني اشتريت منه بقرًا ورعاتها، فجاءني بعد حين بعدما افتقر وكبر، فقال: يا عبد الله، أدِّ إليَّ أجري ولا تظلمني وأعطني حقي، فقلت له: كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق من أجرك، فإنها لك، إنها من ذلك الفَرَق، اذهب فخذها، فقال: يا عبد الله، اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، ولكنه مالك فخذه، فأخذه كله، فاستاقه فلم يترك منه شيئًا وذهب به. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فافرج لنا ما بقي، ففرج الله عنهم، وانفرجت الصخرة وخرجوا من الغار يمشون».

مراحل التحدث عن الحديث:

والكلام على هذا الحديث الشريف يتخذ المراحل التالية الخمس:

أولاً: في صحته وثبوته.

ثانيًا: في تجلية أصحاب الغار وتحديد زمانهم الذي كانوا فيه وبيان موضع الغار الذي أووا إليه.

ثالثًا: في تفسير بعض ألفاظه الغريبة وبيان بعض معانيه المجملة.

رابعًا: في ذكر ما يستنبط منه أحكام وآداب.

خامسًا: في بيان ما في الحديث من عبر وعظات بالغات، والربط بين حياتنا وبين معطيات هذا الحديث الشريف وقبل عرض هذه المراحل أبين:

أولا: في صحة الحديث وثبوته:

هذا الحديث الشريف رواه البخاري في خمسة مواضع من «صحيحه» رواه في كتاب البيوع في «باب إذا اشترى الرجل شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي»[ح٢٢١٥]، ورواه في كتاب الإجارة، في «باب من استأجر أجيرًا فترك أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، أو من عمل في مال غيره فاستفضل»[ح٢٢٧٢]، ورواه في كتاب الحرث والمزارعة، في «باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم»،[ح٢٣٣٣] ورواه في كتاب أحاديث الأنبياء في «باب حديث الغار»،[ح٣٤٦٥] ورواه في كتاب الأدب، في «باب إجابة دعاء من بر والديه [ح٥٩٧٤] »، ورواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما [ح ٥٩٧٣] وغيره .

ورواه الإمام مسلم في «صحيحه» أيضًا رقم ٢٧٤٣، وهما الإمامان المشهوران المشهود لكتابيهما بالصحة العليا والمرتبة القصوى، وكذلك رواه أبو داود في «سننه» والإمام أحمد في «مسنده» (٥٩٧٣) كلاهما رواه بإسناد صحيح أيضًا.

وهذا الحديث جاء من ثمانية طرق أخرى عن ثمانية من الصحابة غير عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، لكن البخاري ومسلمًا وأبا داود (٣٣٨٧) لم يخرجوه إلا من رواية ابن عمر فقط.

١- وقد أخرجه عن أنس الطبراني في الدعاء بإسناد صحيح، ومن وجه آخر بإسناد حسن.

٢- وأخرجه عن أبي هريرة الطبراني في الدعاء أيضًا بإسناد حسن وهو في «صحيح ابن حبان».

٣- وأخرجه عن النعمان بن بشير الإمام أحمد والبزار والطبراني بأسانيد حسان.

٤- وجاء عن علي بن أبي طالب.

٥- وعقبة بن عامر.

٦- وعبد الله بن عمرو بن العاص.

٧- وعن ابن أبي أوفى بأسانيد ضعاف.

٨- وعن ابن عباس أيضًا.

وقد استوعب طرقه أبو عوانة في «صحيحه»، والطبراني في الدعاء، فالحديث كامل الصحة والثبوت؛ لصحة إسناده وتعدد مخارجه، وهو عند بعض العلماء يُعد من الحديث المتواتر لكثرة طرقه التي جاء بها.

وقد جمعت بين روايات هؤلاء المحدثين، وأدخلت حديث بعضهم في بعض، لتكتمل الصورة في الحديث الشريف، وتتضح معانيه باكتمال جمله وألفاظه، وهذا أمر من الناحية الحديثية الاصطلاحية لا مانع منه، وخاصة أننا لسنا في مقام الرواية والإملاء، وإنما نحن في مقام الشرح والاستنباط والاستهداء.

ثانيًا: في تسمية أصحاب الغار:

أما أسماء هؤلاء الثلاثة أصحاب الغار فلم يُوقف على اسم واحد منهم، وأما زمنهم الذي كانوا فيه فهو في زمن بني إسرائيل، ففي حديث عقبة بن عامر عند الطبراني في الدعاء: «أن ثلاثة نفر من بني إسرائيل» الحديث. أما موضع الغار الذي أووا إليه، فهو الرقيم الذي جاء ذكره في سورة الكهف في قوله تعالى: « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » [الكهف: ٩]، وقد أخرج البزار والطبراني بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرقيم، قال: «انطلق ثلاثة نفر فكانوا في كهف، فوقع الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم»، فذكر الحديث. وقد مال البخاري رحمه الله تعالى إلى هذا في «صحيحه»، فأورد حديث أصحاب الغار الثلاثة بعد قصة أصحاب الكهف.

وقال القرطبي المفسر عند ذكر (أصحاب الرقيم) في تفسيره: «قيل: الرقيم أصحاب الغار الذي انطبق عليهم، وإليه نحا البخاري».

ثالثًا: في تفسير الألفاظ الغريبة، وبيان بعض المعاني المجملة:

الفرق: جاء في الحديث لفظ (الفَرَق) وهو: مكيال يسع ثلاثة أصع من الأرز أو الحنطة أو نحوهما.

الخصاصة: وجاء في الحديث لفظ: «حتى ما يرون خصاصة»، الخصاصة هنا معناها: الفرجة الصغيرة يرى منها الضوء.

يتضاغون: وجاء في الحديث لفظ: «وأهلي وعيالي والصبية يتضاغون من الجوع» أي يتضورون ويتألمون ويصيحون من الجوع.

الغبوق: وجاء في الحديث لفظ: «فاستيقظا فشربا غبوقهما»، الغبوق: ما يُشرب في الليل، والصبوح: ما يشرب في النهار.

إن كنت تعلم: وجاء في الحديث لفظ: «اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك». فيه إشكال من حيث صيغة الشك المفاد من قوله: «إن كنت تعلم»، والمؤمن يعلم يقينًا أن الله يعلم ذلك، فكيف جاءت العبارة بأسلوب الشك؟ والجواب أن الشك هنا بالنظر إلى نية القائل وتحقيق إخلاصه، وليس الشك في علم الله المخاطب المحيط بكل شيء علمًا.

وجاء في الحديث لفظ: «قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه». ومعنى هذا الكلام أن هذه المرأة المؤمنة تقول للرجل الذي أرادها على الزنا والعصيان ودنا منها دنو الرجل من زوجته، تقول له: أنا لا أحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح، فاتق الله فيّ وابتعد عني، ناشدتك تقوى الله الذي يراني ويراك.

رابعًا: في ذكر ما يُستنبط من الحديث من أحكام وآداب:

١- أسلوب التشويق والإهاجة إلى الانتباه والتيقظ في المتعلم والسامع، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فَرَق الأرز فليكن مثله». فهاجهم صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب التشويقي إلى التوجه إلى السؤال، والمعرفة لصاحب فرق الأرز، فقالوا: «ومن صاحب فرق الأرز يا رسول الله؟» فحدثهم عنه وعن أخويه اللذين شاركاه في الاحتباس في الغار، وعما كان لكل واحد من الثلاثة من الأعمال الصالحة وهذا أسلوب تعليمي تربوي رفيع، أن يوقظ المعلم النشاط والتنبيه في المتعلم والسامع، ثم يلقي إليه العلم، فيكون أوعى ما يكون لما سمع وعلم، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد المعلمين والمربين كافة.

٢- وفي هذا الحديث أحكام البيوع: جواز عقد الفضولي، وهو الذي يبيع أو يشتري لغيره شيئًا بغير إذنه، ويكون إبرام العقد ونفاذه موقوفًا على إذن ذلك الغير، فإذا أذن به نفذ، وإن لم يأذن به بقي ذلك الشيء في ملك صاحبه، ودليل هذا من الحديث: أن الرجل أخذ فرق الأرز، حين تركه صاحبه ساخطًا له مستقلاً، فزرعه حتى نما وكثر وازداد زيادة عظيمة، فاشترى منه بقرًا، وإبلاً وغنمًا ورقيقًا، وحفظها كلها لصاحب فرق الأرز، فالرجل تصرف في مال الأجير بغير إذنه، ولكنه جمع ثمره له ونماه وأعطاه إياه، وجاء الأجير فأخذه ورضي به، فدل ذلك على جواز عقد الفضولي في مثل هذا ونحوه، وخاصة أن النبي صلى الله عليه وسلم ساقه مساق المدح والثناء على فاعله، وحكاه داعيًا إلى الإغراء بمشابهته، فقال صلى الله عليه وسلم: «من استطاع

منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله».
وقد مال البخاري في هذه المسألة إلى الجواز كما يظهر من العنوان الذي وضعه للحديث في الموضع الأول، وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة أيضًا.

٣- وفي هذا الحديث من أحكام البيوع أيضًا: أن من عمل بمال غيره من غير إذنه، فنما المال وازداد، فالزيادة والربح كله لصاحب المال، وعلى هذا المعنى عنون البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب من استأجر أجيرًا فترك أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل»، أي أتى بالفضل والزيادة والأرباح، وهذه المسألة تعد من مسألة تصرف الفضولي التي سبق الكلام فيها.
ومذهب البخاري أن المال الزائد النامي من مال الأجير إنما هو للأجير بكامله؛ لأن التصرف فيه تصرف لا على سبيل الإذن أو القرض، وإنما هو على سبيل الفضول وإرادة الخير، ودليل هذا في الحديث أن الأجير لما ترك أجره وانصرف، وعمل فيه المستأجر ونماه، ثم رجع إليه الأجير يطالبه بأجره الذي كان قدرًا يسيرًا، قال له المستأجر: كل ما ترى من أجرك، فأخذه كله ولم يترك منه شيئًا، وأقر الرسول الكريم هذا التصرف بحكاية دون إنكار أو تعديل واستدراك.

٤- وفي الحديث أيضًا: جواز الإجارة بالطعام المعلوم بين المتأجرين، فإن المستأجر استعمل الأجير على فرق من الأرز، وكان ذلك أجرته.

٥- ومثل ذلك في هذا الحديث من أحكام المزارعة: أن من زرع بمال غيره المعين، بدون إذنه، وكان في ذلك صلاح لصاحب المال ونفع، فالنماء كله لصاحب المال؛ لأنه تولد من ماله، فإن المزارع هنا تصرف في أجرة العامل التي كان عيّنها له، وهي فرق الأرز، فزرعه فنماه الله وبارك فيه، ولم يعد هذا التصرف تعديًا؛ لأنه تصرف بطريق الإصلاح والنفع، لا بطريق التضييع والإساءة، ولذلك توسل بهذا العمل فاعله إلى الله عز وجل، وجعله من أفضل أعماله، وأقر على ذلك، ووقعت له الإجابة في ساعة العسرة.

٦- وفي الحديث من الأحكام - إضافةً إلى ما تقدم -: استحباب الدعاء عند حدوث الكروب فإن أصحاب الغار توسلوا إلى الله تعالى بالدعاء، فاستجاب لهم سبحانه.

٧- وفي الحديث أيضًا: التقرب إلى تعالى بذكر العمل الصالح، فإن كل واحد منهم ذكر العمل الصالح الذي رجا به الفرج من تلك الشدة.

٨- وفي الحديث أيضًا: فضل الإخلاص لله تعالى في العمل، فإنه كان مفتاح الفرج باستجابة دعائهم.

٩- وفي الحديث فضل بر الوالدين، وخدمتهما، وإيثارهما على الولد والأهل، وفضل تحمل المشقة لأجلهما، وفضل فعل ما يسرهما، وأن ذلك مدعاة الفرج للولد إذا وقع في شدة أو كرب.

١٠- وفي الحديث أيضًا: فضل العفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة عليه، وأن ذلك -وإن كان واجبًا- مجلبة للرحمة والإنقاذ من المهالك.

١١- وفي الحديث أيضًا: أن ترك المعصية طاعة لله: يمحو مقدمات طلبها، ويعد حسنة صالحة عند الله تعالى، ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المعروف: «ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة» رواه البخاري.

١٢- وفي الحديث أيضًا: أن التوبة تَجُبّ ما قبلها من الذنب، فلما تاب المراود للمرأة من مراودته وتركها، انقلب من عاصٍ أثيم، إلى طائع كريم يُستجاب له الدعاء.

١٣- وفي الحديث أيضًا: فضل أداء الأمانة، ولعل هذا كان أشق الأعمال الثلاثة التي قام بها أصحاب الغار وأصعبها، فإن الرجل الأجير لما غضب وترك أجره، كان أجره فرقًا من أرز يبلغ ثمنه نصف درهم، فنماه الرجل المستأجر حتى بلغ قطيعًا من البقر والغنم والجمال وجملة من الرقيق، وذلك إنما يتم في مدة سنين طوال، فبقي هذا الرجل المستأجر أمينًا عليه لم يطمع بكثرته ونمائه، ولم تحوله الأموال الكثيرة عن أمانته، ولا غيّرته السنون المتتالية عن استقامته، فلما جاء الأجير بعد حين وقد بلغ من الكبر عتيًا، وطحنه الفقر والعوز طحنًا، جاء راجيًا أن يأخذ أجره الذي يعدل نصف درهم يتبلغ به الرمق والعيش، ولكن المستأجر الأمين أعطاه أموالاً أدهشته، وما كاد عقله يصدق أنها له، فقال للرجل: لا تستهزئ بي، فأكد له المستأجر الأمين أنها كلها له، نماها من أجره وبارك الله له فيها وزادت وكثرت وتنوعت حتى صارت إبلاً وبقرًا وغنمًا ورقيقًا، فاستاقها كلها وما كاد يصدق ذلك.

نسأل الله الهداية والتوفيق.

أسس الاستقامة في منهج الفكر الإسلامي

إعداد/ د. السيد عبد الحليم

جاء في صحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، كلهم عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي حديث أسامة: غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

هذا الحديث الذي رواه إمام أهل الحديث أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري في باب ترجم له: «جامع أوصاف الإسلام» في كتاب: «الإيمان»، والذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الأمر الذي ينبغي أن يأخذ به المؤمن فقال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

هذا الحديث انفرد به مسلم عن البخاري، ورواه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي، ولم يرو لسفيان بن عبد الله الثقفي حديثًا آخر في «صحيحه».

وهو حديث قد عُني به كثير من أئمة المسلمين، ومن أصحاب السنن[والحديث أخرجه أحمد (٤١٣/٣)، ومسلم (٤٧/١)، والترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢) والدارمي (٢٧١٣) والنسائي في الكبرى (٤٤٧٨)].

فهو ابن ماجه وأحمد بن حنبل من رواية الزهري عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان، ويرويه النسائي وأحمد بن حنبل من طريق أخرى، هي رواية عبد الله بن سفيان عن أبيه، وعندما تتعدد الطرق في الحديث الواحد تختلف أحيانًا كثيرة الألفاظ أو الصيغ التي ورد بها ذلك الحديث، كما أن الحديث يختلف من رواية إلى أخرى بما يضم إليه من زيادات، ولذلك عندما نعود إلى رواية الإمام الترمذي نجده بهذا اللفظ، «قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر اعتصم به، قال: قل ربي الله ثم استقم، قال: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه ثم قال: هذا» وقد عقب الإمام الترمذي على هذا الحديث بوصفه بكونه حديثًا حسنًا صحيحًا. [الترمذي (٢٤١٠)].

وأما النسائي والإمام أحمد فقد رويا

هذا الحديث بصيغة أخرى تختلف عن الصيغ الأولى، وهي: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: قل: آمنت بالله ثم استقم. قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه» [مسند أحمد ٣٨٤/٤ رقم ١٩٤٥٠].

وهذان الحديثان يتفقان اتفاقًا كاملاً مع الحديث الأول الذي رويناه للإمام مسلم.

ولكن حديثًا آخر قريبًا من هذا، ورد عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قال: يا رسول الله، أوصني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل: ربي الله ثم استقم، قال: قلت: ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبًا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ليهنك العلم أبا الحسن. [أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦٥/١)].

وإنما أتينا بهذه الصيغ المختلفة لنتصور مدى اهتمام المسلمين بأمر دينهم، فهم أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم يعايشونه ويتوجهون بتوجيهه، ويعملون بقوله ويقتدون به في فعله، وتبقى في نفوسهم وساوس ومخاوف، ويريدون اتقاء الشر من أي طريق كان، ولذلك يلجأون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوضحين السبيل وطالبين منه إما التوجيه أو النصيحة، فقال: «قل لي في الإسلام أمرًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وقال الثاني: حدثني بأمر أعتصم به، وقال الثالث: أوصني يا رسول الله، فهذا يدل على إلحاح المسلمين الأولين والرعيل الصالح المتقدم الذين كانوا عماد هذا الدين وناشريه في العالم في أطراف المعمورة، كانوا يحرصون على هذا الهدي الديني الإسلامي، ونحن لا نستطيع في عجالة أن نأتي بكل ما قيل عن هؤلاء الرواة الذين ورد عن طريقهم هذا الحديث عند ابن ماجه والترمذي والنسائي والإمام أحمد، ولكننا نكتفي بالرجال الذين ذكرهم في إسناده الإمام مسلم.

ففي حديث الإمام مسلم نجد الراوي الأول هو هشام بن عروة، الذي يرويه عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله، وهشام هذا هو أبو المنذر ولد سنة (٦١) وتوفي سنة (١٤٦هـ)، شهد له النقاد بكونه ثقة مأمونًا، غير أن الإمام مالكًا رحمه الله لا يرضاه ووقع التساؤل في عدم رضا الإمام مالك عنه، فقيل: لكونه كان يتساهل في الرواية بالعراق، فيرسل عن أبيه ما كان سمعه من غير أبيه.

وأما عروة بن الزبير بن العوام، فقد كان تابعيًا، ولد سنة (٢٣)، وتوفي سنة (٩٤هـ)، وهو ثقة مأمون، حافظ لحديث عائشة رضي الله عنها، فقيه، عده أبو الزناد في الفقهاء السبعة من أهل المدينة، ووصفه ابن سعد في طبقاته بكونه كان بحرًا لا ينزف لسعة روايته وكثرة علمه، وإفادته لعامة الناس.

وأما سفيان راوي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو سفيان بن عبد الله الثقفي أبو عمر، وقيل: أبو عميرة، وهو عامل عمر بن الخطاب على الطائف، سمع النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت له صحبة، كما روى عن عمر بن الخطاب أحاديث كثيرة.

وهذا الحديث الذي بين أيدينا تتلخص الرواية أو موضع البحث في الجملة الأولى مقارنة بما يساويها ويوازيها في الرواية الثانية؛ لأنه في رواية مسلم بلفظ: «قل آمنت بالله ثم استقم».

وفي الرواية الثانية عند الترمذي «قل ربي الله ثم استقم»، وكلتا الصيغتين تدلان دلالة واضحة على أن عماد الدين هما هذان الأمران: الأمر الأول هو الإيمان بالله، والأمر الثاني هو الاستقامة، غير أن تفصيل هذا الأمر وبيانه يحتاج إلى تأمل لاختلاف الأئمة العلماء في ذلك، في العصر الأول، عصر الخلفاء الراشدين وما بعده، فإن هذا اللفظ الصغير الذي جمع معانٍ كثيرة يشهد له الإمام مسلم بكونه من جوامع الكلم، حين ترجم له بقوله: «باب جامع في أوصاف الإسلام»، كما يشهد له القاضي عياض رحمه الله بتصريحه بقوله: هذا من جوامع الكلم، وجوامع الكلم هي عبارة عن الألفاظ الدقيقة القليلة التي جاءت لتأدية معانٍ كثيرة، وكانت بذلك تفتح للناس الأبواب مشرّعة ليجدوا فيها الحكمة ويتدبروا أحكام هذا الدين.

والحديث: «قل آمنت بالله ثم استقم»، أو «قل ربي الله ثم استقم» يقوم أولاً على أساس التوحيد وبيانه، وعلى الطاعة لله سبحانه وتعالى فيما أمر به، فإذا جمعنا الطاعة إلى التوحيد، وجدنا أمرين متلازمين متكاملين؛ لأن المؤمن الكامل الموحد لا يكون إلا طائعًا لله، مؤديًا لما طلب منه، قائمًا بالواجبات، منتهيًا عما نهى عنه الله سبحانه وتعالى ورسوله، وبذلك فإن أطراف الحديث تلتئم، فتكون الرجل الصالح، والرجل المؤمن، والرجل الكامل.

المقصود بالاستقامة أمران:

والاستقامة بهذا المعنى أطلقها العلماء قديمًا، والسلف منهم بخاصة على أمرين اثنين، وصفوا بها أعمال القلب، ووصفوا بها أعمال الجوارح، والمقصود من أعمال القلب الذي هو محل الإيقان والإذعان والاعتراف بالخالق والإيمان، ووصف القلب بالاستقامة، أي قيامه على التوحيد.

وأما وصف الجوارح التي هي عبارة عن المصدر لكل أنواع السلوك الإنساني والتعامل البشري فإن الجوارح التي يمكن أن تكون أعمالها خيرة، ويمكن أن تكون غير خيرة، طلب منها أن تكون مستقيمة، فيوصف القلب بالاستقامة، وتوصف الجوارح بالاستقامة.

دعوة إلى تحقيق هذا المعنى فيهما:

التوحيد حرر الإنسان من هواه ومن عبودية الناس:

والتوحيد حرر الإنسان من نفسه أي من هواه، وحرر الإنسان من غيره، فمكّن له العقل والملكات والقوى، وكلفه وجعله يقبل المسئولية، ولولا ذلك لكان عبدًا منقادًا ذليلاً لا شعور له بأي كرامة.

ثم نجد أن هذا الإيمان الذي طولبنا به، وهذا التوحيد الذي أقرنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينبغي أن يكون صادقًا، ومعنى كونه صادقًا أن الاعتداد بالإيمان لا يكون ثابتًا إلا بشرط ألا يكون نظريًا، صاحبه مقطوع الصلة بالله؛ لأن انقطاع الصلة بين العبد وربه - وإن كان يدعي الإيمان - إذا كان إيمانه نظريًا لم يمس قلبه ولا يحرك جوارحه ولا يدفعه إلى خير فهو ليس من الإيمان.

ثم نجد أن تنكب الناس هذه الحقيقة، وبعدهم أفرادًا وجماعات عن هذا المنهج قد أورثهم أدواء كثيرة، أدواء فردية، وأمراضًا اجتماعية.

الطاعة:

وأما المعنى الثاني الخاص الذي هو الطاعة والذي أشار إليه عمر بن الخطاب بأن يكون المسلم أو المؤمن ملتزمًا بدينه لا يروغ في تطبيق ما طلب منه روغان الثعلب، هذا المعنى يقود إلى الالتزام بالأحكام الشرعية والاستقامة على منهج الله.

ولتحقيق هذه المعاني ورد في القرآن الكريم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودعوة أصحابه من حوله إلى الأخذ بأسباب الاستقامة، حتى وردت في سورة هود الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية وعن آيات القرآن كلها، فقال: شيبتني هود وأخواتها، [الترمذي وصححه الألباني].

وإنما جاء هذا الشيب وجاء هذا الإرهاق الذي يحصل للإنسان لورود أوامر متكاملة متتابعة، الأول هو الأمر بالاستقامة، والاستقامة على دين الله كما أمرت أنت ومن معك ومن تاب معك، ثم

الأمر بعدم التجاوز، عدم تجاوز الحدود التي رسمها الله؛ لأن تجاوز هذه الحدود سماه الله سبحانه وتعالى طغيانًا، ونحن ينبغي أن نحذر من الطغيان.

ثم حذر الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وحذر المؤمنين كافة بقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، أي لا يقع منكم شيء في هذه الحياة الدنيا إلا على بصر ومرأى من الله سبحانه وتعالى، وهذه الاستقامة أمرها صعب لتعدد متعلقاتها بالنسبة للاستقامة، هي العقائد حيث ينبغي أن يجاهد الإنسان نفسه مجاهدة طويلة، وعلاقتها بالأعمال حتى لا يغيّر ولا يبدل ما أمر به الله، ولا ما ارتضاه لعباده، وعلاقتها بالأخلاق حتى يلتزم الحد الوسط الذي وصف به المؤمنين حين جعلهم أمة وسطا، وذلك ليبتعدوا عن الإفراط والتفريط.

سددوا وقاربوا

هذه المعاني هي التي دعت الرازي في تفسيره إلى القول بأن الاستقامة أمرها صعب، ولا يستطيعها كثير من الناس، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أورده أحمد في مسنده: «سددوا وقاربوا». ينبغي أن نحرص على التسديد أي تسديد أعمالنا ومقاربة ما أمر به الله حتى لا نكون بعيدين عنه في حالة من الحالات، وقال الحسن رضي الله عنه سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وعى هذه المعاني وتصورها: «اللهم أنت ربنا ارزقنا الاستقامة».

مزايا الاستقامة:

ومزايا الاستقامة كثيرة، قال القشيري: «هي درجة فيها كمال الأمور وتمامها، وبها أصول الخيرات وانتظامها، وبدونها يكون السعي خائبًا والجهد ضائعًا»، ومرة أخرى يصفها أهل المعرفة بقولهم: هي صفة للرجل أو للكُمَّل من الرجال، صفة لأهل الكمال، معناها أو حقيقتها تتمثل في الخروج من المعودات ومفارقة العادات، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق.

وما لنا والناس يطلبون الرفعة، وينشدون المعالي، ويريدون الكرامة، فإذا أعطوا هذه الكرامة رضوا، وإذا ما طلب منهم أن يسعوا إلى تحقيق الكرامة بأنفسهم تقاعسوا، ولذلك فرق الناس بين أمرين بين الكرامة التي هي منحة تعطى للإنسان فيرتفع بها قدره وتعلو بها منزلته، وبين الاستقامة التي هي طلب من الله سبحانه وتعالى لعباده بأن يكونوا على الحق، فهذه ينبغي أن يسعى لها الإنسان.

الأسس التي دعا إليها الحديث النبوي الشريف بالنسبة لعملنا، بالنسبة لتفكيرنا، ولم التفكير؟

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهذا هو الصراط السوي، هذا هو الصراط الذي أمرنا الله باتباعه وهو الصراط المستقيم، وما عدا ذلك فهي منعرجات في الطريق وثنيات في الطريق التي يبتعد بها الإنسان عن المسلك الناجح الرابح.

ونسأل الله الهداية والتوفيق. والحمد لله رب العالمين.

تجديد الدين الذي نَنْشُدُه

روى أبو داود في «سننه»، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار»، والخطيب في «التاريخ»، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها». [والحديث أخرجه أبو داود (١٠٩/٤، رقم ٤٢٩١)، والحاكم (٥٦٧/٤، رقم ٨٥٩٢)، والبيهقي في المعرفة (٢٠٨/١، رقم ٤٢٢)، والطبراني في الأوسط (٣٢٣/٦، رقم ٦٥٢٧)، والخطيب (٦١/٢)، والديلمي (١٤٨/١، رقم ٥٣٢). قال المناوي (٢٨٢/٢): قال الزين العراقي وغيره: سنده صحيح، وصححه الألباني].

إعداد/ أ.د. السيد عبد الحليم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها». صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. [والحديث أخرجه أبو داود (١٠٩/٤، رقم ٤٢٩١)، والحاكم (٥٦٧/٤، رقم ٨٥٩٢)، والبيهقي في المعرفة (٢٠٨/١، رقم ٤٢٢)، والطبراني في الأوسط (٣٢٣/٦، رقم ٦٥٢٧)، والخطيب (٦١/٢)، والديلمي (١٤٨/١، رقم ٥٣٢). قال المناوي (٢٨٢/٢): قال الزين العراقي وغيره: سنده صحيح، وصححه الألباني].

وقد اخترت هذا الموضوع في ضوء الحديث الشريف لسببين رئيسيين:

السبب الأول: أن أقاوم موجة اليأس التي انتشرت بين المسلمين في الزمن الأخير، والظن القائم أن الدين دائمًا في إدبار وأن الكفر في إقبال، وأننا في آخر الزمان، وأنه لن تقوم للإسلام دولة ولن ترتفع له راية، وعززوا هذا الفهم بأحاديث وردت في الفتن وأشراط الساعة ظنوا معها أنه لا فائدة من عمل يُرجى، ولا من إصلاح يُنشد، واعتمدوا على أحاديث مثل أحاديث: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء». مع أن في رواية هذا الحديث: «قيل: ومَن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يُصلحون ما أفسد الناس من سنتي» [الترمذي وضعفه الألباني].

فليس الغرباء قومًا سلبيين، وإنما هم مصلحون مجددون عاملون إيجابيون، اعتمدوا على حديث مثل حديث أنس «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه» رواه البخاري، مع أن الحافظ ابن حجر في شرحه للبخاري قال: إن هذا مخصوص بالمخاطبين، وإن فَهِمَ الصحابي العموم، وإلا لتناقض هذا الحديث مع الواقع التاريخي، فقد جاء زمن مثل عمر بن عبد العزيز وكان خيرًا من بعض الأزمنة التي قبله، وأيضًا جاء في الأحاديث بأن الإسلام سيكون له شأن في آخر الزمان عند ظهور المهدي وعند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

هكذا جاءت الأحاديث: إذن فلا ينبغي أن تُؤخذ هذه الأحاديث كما يفهمها بعض الناس فهمًا خاطئًا، وينتهون منها إلى أن الأمر لم يعد هناك سبيل إلى إصلاحه.

وهل يعقل أن يأتي محمد صلى الله عليه وسلم

بدين يدعو الناس فيه للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإصلاح الفساد، ثم يقول للناس أحاديث تثبط هِمَمَهُم، وتضعف عزائمهم من عمل الخير وخير العمل.

السبب الثاني - لاختيار هذا الموضوع - هو التخبط، والتخبط الذي نراه عند كثيرين عندما يتحدثون عن تجديد الدين، ما المراد بالتجديد؟ هناك قوم يريدون أن يجددوا الدين كأنما يريدون أن يُحدثوا طبعة جديدة منقّحة من هذا الدين، إنهم يريدون دينًا جديدًا غير الدين الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم، و التزم به خلفاؤه الراشدون من بعده، والسلف الصالح لهذه الأمة، هؤلاء الذين سخر منهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي حينما قال: «إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر».

لا بد أن نتحدث هنا عن المجدِّد، وعن المجدَّد، وعن المُجَدَّد له، وعن معنى التجديد، ومداه وجوانبه، ومن يجدد؟

ذهب فريق إلى أن المجدد فرد واحد:

ذهب الأكثرون من شراح هذا الحديث إلى أن المجدد فرد، فهموا من كلمة «من يجدد لها دينها» أنه شخص واحد، وعلى هذا اشتهر أن مجدد المائة الأولى هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ومجدد المائة الثانية هو محمد بن إدريس الشافعي، إذ إن عمر بن عبد العزيز توفي سنة ١٠١هـ، والإمام الشافعي توفي سنة ٢٠٤هـ.

وآخرون ذهبوا إلى أن المجدد جماعة:

ذهب الإمام ابن الأثير في «جامع الأصول»، وكذلك الإمام الذهبي إلى أن كلمة «من» كما أنها تصلح للمفرد تصلح للجمع، «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، لماذا جعلناه واحدًا مع أن «مَن» تصلح للمفرد وتصلح للجمع.

فإن قيل: إن الله ينصر من يجاهد في سبيله: قد يكون هذا المجاهد فردًا، وقد يكون جماعة، ولذلك قال ابن الأثير: إن هذا المجدد قد يكون مُحَدِّثًا، وقد يكون فقيهًا، وقد يكون مفسِّرًا، وقد يكون قائمًا بالأمر حاكمًا من الحكام، وقد يكون مجاهدًا من الذين يجاهدون في سبيل الله ويجددون الدين عن طريق الحرب والغزو، وليس واحدًا.

ولذلك قال الإمام ابن الأثير: إن من الممكن في السنة الأولى أن يكون عمر بن عبد العزيز من أولي الأمر، ويكون هناك القاسم بن محمد من الفقهاء السبعة، وسالم بن عبد الله، والحسن البصري، وابن سيرين، وعدد عديدًا من الناس، وكذلك كل سنة من السنوات على رأس المائة يمكن أن يكون هناك عدد من المجددين.

كلا الأمرين ممكن:

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن الذي يقوم بالتجديد والإحياء يمكن أن يكون فردًا، أو أفرادًا، أو جماعة من الناس، أو مدرسة فكرية، أو حركة علمية، أو تربوية، أو فقهية، مجامع مختلفة من الناس، ينتشرون في الأرض كما قال الإمام النووي في شرح حديث: «لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» أخرجه مسلم وغيره.

معنى التجديد:

يأتي بعد ذلك ما معنى التجديد؟ كيف نجدّد في الدين حتى نجدّد الأمة؟ هنا لا بد لنا من وقفة، بعض الناس يُوهمنا كأن التجديد هو تغيير طبيعة الإسلام، وكلمة التجديد لا تفيد هذا؛ لأن تجديد الشيء معناه العودة به إلى يوم نشأ وظهر، كأنه بدأ اليوم، يعني العودة به إلى مجده يوم بدأ، فليس معنى التجديد هو تغيير طبيعة الشيء، أو استحداث شيء مبتكَر، مستحدَث، لو أخذنا مثلاً في الحسيات، إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق فما معنى تجديده؟ معناه أن نُبقي على جوهره، على خصائصه، على مقوماته، على طابعه، على معالمه الرئيسة حتى طريقة نقشه، نُبقي عليه، نرمّم ما تهدّم منه، وما فعلته عوامل التعرية، ولكن ليس معنى التجديد أن نهدم القديم ونقيم شيئًا مستحدثًا على أحدث طراز مكانه هذا ليس تجديدًا.

التجديد الحقيقي:

فتجديد الدين أن نُبقي على جوهر الدين، على خصائصه، على مقوماته، ولكن نُحسن في عرض الدين، نفهمه فهمًا جديدا في ضوء النصوص القطعية، في ضوء المقاصد العامة للشريعة.

أمور ثابتة لا تجديد فيها:

هناك أمور في الدين لا يدخلها اجتهاد، ولا يدخلها تجديد، أمور ثبتت بنصوص قطعية الثبوت، قطعية الدلالة.

هذه هي التي تمثل الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، وهذه لا مجال فيها لاجتهاد المجتهد ولا

لتجديد مجدد، وهي وجوب الواجبات، وحرمة المحرمات، وأصول الفضائل، وأصول الرذائل، والقطعيات في الشريعة، ما عُلم من الدين بالضرورة، كل هذه أشياء لا مجال فيها لاجتهاد ولا لتجديد.

أمور قابلة للتجديد:

هناك منطقتان أخريان: منطقة النصوص الظنية، سواء كانت: ظنية في ثبوتها أو ظنية في دلالتها، وهذه معظم نصوص الشريعة، من فضل الله علينا أنه لم يقيّدنا بنصوص محكمة قاطعة إلا في القليل، فمعظم النصوص جاءت ظنية لتفسح المجال لاجتهاد المجتهدين، فنجد في المدرسة الحرفية مثل مدرسة الظاهرية والمدرسة الأثرية التي تهتم بالأثر، ومدرسة الرأي، نجد هذه الأفهام.

الاختلاف في فهم النص زمن النبي صلى الله عليه وسلم:

قد ثبت هذا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، في قضية بني قريظة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» رواه البخاري.

وفي الطريق قال قوم: إنما أراد منا سرعة النهوض فلنصل قبل أن يفوت الوقت، وجماعة قالوا: لا نصلي إلا في بني قريظة، ولو كان ذلك في منتصف الليل.

جماعة أخذوا بالظاهر، وجماعة أخذوا بالفحوى، فما عنّف النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء ولا هؤلاء، وأقر الاجتهاد، والقرآن قطعي الثبوت ولكن فيه نصوص ظنية الدلالة، والسنة فيها ظني الثبوت وهو الأكثر، وقطعي الثبوت وهو المتواتر، وأكثرها ظني الدلالة.

هنا نجد مجالاً للمجتهدين، لنفهم الأمور من جديد في ضوء ظروفها، وفي ضوء حياتنا ومقاصد شريعتنا، فهذه منطقة ومنطقة أخرى هي التي لا نص فيها؛ لأن الشريعة لم تنص على كل شيء، إنما نصت على أشياء معظمها ما لا يتغير بتغير الزمان والمكان والحال، وتركت أشياء لا نص فيها كما جاء في الحديث: «إن الله حد لكم حدودًا فلا تعتدوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» رواه الدارقطني وحسنه النووي والألباني.

منطقة العفو وما سكت عنه:

هناك منطقة سمَّاها العلماء العفو لقول النبي عليه السلام: «وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا»، ثم تلا النبي قول الله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) [مريم: ٦٤] رواه أبو داود بنحوه وصححه الألباني.

هذه المنطقة، منطقة الفراغ التشريعي يمكن أن نملأها عن طريق القياس على المنصوص، وعن طريق الاستصلاح كما يقول المالكية وغيرهم. أيضا عن طريق الاستحسان، وعن طريق سد الذرائع، وعن طريق رعاية العرف، عن طرق شتى، أمامنا متسع لملء هذا الفراغ.

مقولة: هم رجال ونحن رجال:

إذن هناك مجال للتجديد، مناطق مفتوحة للتجديد ومناطق لا يمكن أن يدخلها التجديد، الذين يريدون أن يطوروا الإسلام كله بعقائده وعباداته وقيمه الأخلاقية وقطعيات شريعته، هؤلاء مخطئون وهؤلاء لا يقفون عند حد، هؤلاء التطوريون لا يقفون عند حد، إنهم يقولون لا حاجة لنا بأقوال الفقهاء وإنما هم بشر ونحن بشر، هم رجال ونحن رجال، فإن سلمنا لهم وطرحنا هذه الثروة الفقهية كلها جاءوا وقالوا: لا نستطيع أن نأخذ من السنة إلا القطعي والمتواتر، ولو سلمنا لهم لجاءوا إلى القرآن وقالوا: القرآن نفسه نزل مراعيًا للبيئة، لأنه حينما حرم الخنزير حرم خنازير كانت سيئة التغذية، أما الخنازير التي كانت تربى في حظائر ويشرف عليها أناس وتحت إشراف طبي وعناية صحية فهذه ليست كتلك، وقوم يقولون: الخمر إنما حرم في بلاد حارة، ولو نزل القرآن في بلاد باردة لكان له شأن آخر. ويقولون: المرأة إنما كان لها نصف الميراث لأنها لم تكن تعمل كالرجل ولم يكن لها الاستقلال الاقتصادي.

باب الاجتهاد مفتوح شريطة عدم الخلط:

معنى هذا أننا لو سرنا وراء هؤلاء لما بقي لنا شيء، ولم يبق لنا شرع ، وجعل هؤلاء أنفسهم مشرعين في كل الأمور، لا، نحن نقول لهؤلاء : إن الله أنزل شرعه ليَحكم لا ليُحكم، وليُتبع، لا ليَتَّبِعْ، الشرع ميزان والميزان يجب أن يثبت، هؤلاء الذين يطالبوننا بأن نطوّر الإسلام نقول لهم: إذا كنتم تطالبون الإسلام أن يتطور فأولى بكم أن تطالبوا التطور أن يُسلم، بدلاً من أن تعصرنوه كما

يقولون، العصر هو الذي يجب أن يسلم ويخضع لمقتضيات الشرع القطعي، لا ينبغي أن نخلط بين ما يجوز فيه الاجتهاد والتجديد وما لا يجوز، نحن لا نقول بإغلاق باب الاجتهاد، فهذا قول لم يقله إمام ، قاله بعض المقلدين، والمقلد لا يُقلَّد.

أما من قال من الأئمة: إن باب الاجتهاد قد أُغلق، فمن يملك إغلاق باب فتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الذي نسخ النصوص التي أقرت الاجتهاد؟ لهذا فالاجتهاد قائم وثابت، رأى الحنابلة ومعهم بعض علماء المذاهب الأخرى أن أي عصر لا يخلو من مجتهد ولا يجوز أن يخلو من مجتهد، وألف في ذلك الإمام السيوطي رسالته: «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»، فالاجتهاد فرض في كل عصر ولو جاز ألا يكون هناك مجتهد ولا اجتهاد في عصر ما فلا يجوز في عصرنا أن يُقال هذا؛ لأن الحياة قد تغيرت، الحياة في العصور الغابرة كانت بطيئة التغير، كانت رتيبة.

حاجة المسلمين إلى فهم الإسلام:

التجديد في هذا الجانب لا بد منه، نحن نحتاج إلى تجديد في الفقه، في الفهم، في الفكر، ولكني أقول: إن الاجتهاد ليس خاصًا بالعلماء، نحن نحتاج إلى تجديد في الفهم بالنسبة لعامة المسلمين، لجماهير المسلمين، لقد فهم الإسلام خطأ، لبسه الناس كما يلبس الفرو مقلوبًا كما يقول أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، أخطأ الناس فهم الإسلام، أخرجوا من الإسلام ما هو من صلبه وأدخلوا فيه ما ليس من صلبه، وقدموا فيه ما حقه التأخير، وأخروا ما حقه التقديم، وهذا شرّ ما يُصاب به الإسلام أن تزيد في الإسلام ما ليس منه، وهذا الابتداع أن تحذف من صلب الإسلام ما هو منه، وهذا للأسف ما نجده في عصرنا بعض الناس يريدون الإسلام نسخة من الأديان الأخرى أو من مذاهب أخرى، يريدون سلاحًا بلا جهاد، أو عقيدة بلا شريعة، أو زواجًا بلا طلاق، أو دينًا بلا دولة، أو حقًا بلا قوة، والإسلام هو هذا كله، الإسلام عقيدة وشريعة، ونظام حياة متكامل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

تجديد الفهم والإيمان والعمل:

إن الإسلام ليس فهمًا فقط ولا فكرًا فقط، غالب الذين يتحدثون عن التجديد يصبون التجديد على الناحية الفقهية والفكرية والعقلية، ولكن الإسلام فهم وإيمان وعمل، لا بد أن نجدد إيماننا.

أيضا نحن في حاجة إلى تجديد الروح، نحن في حاجة أن نجدد قلوبنا، نحن في حاجة إلى متنسكة معتدلة تزرع في القلوب الخشية لله والرجاء في رحمته، نحن في حاجة إلى هذا النوع من النسك السني الإيجابي، نحن نرفض الذين يقولون: دع الملك للمالك، والخلق للخالق، ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر.

نحن نرفض الذين يفرقون بين الحقيقة والشريعة ويقولون: من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة عذرهم، بخلاف من نظر إليهم بعين الشريعة.

إنما نريد النسك الذي يربي الخلق كما قال ابن القيم نقلاً عن المتقدمين: «النسك هو الخُلق فمن زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في النسك».

تجديد العمل:

نحن في حاجة إلى تجديد الإيمان، نحن في حاجة إلى تجديد العمل، العمل بالإسلام، والعمل للإسلام قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] أي أن الناس لا يتسابقون ولا يتنافسون في حُسن العمل فقط، بل في أحسنية العمل، أيهم يكون أحسن عملاً، فالإسلام دين ودنيا، يجب أن نفهم هذا، لا يمكن أن ننصر ديننا إذا أضعنا دنيانا، نحن في بلاد المسلمين بوأنا الله أحسن البلاد بقعة وأعظمها رقعة وأخصبها أرضًا، الثروات في باطن أرضنا مذخورة وعلى ظاهرها منشورة ومع هذا نعيش عالة على الأمم، في معظم بلاد المسلمين نستورد القوت أو نصف القوت أو أقل أو أكثر في الصناعة، نحن عالة على غيرنا، أمة سورة الحديد لم تتقن حتى اليوم صناعة الحديد، ولا الصناعة المدنية التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، هذا إشارة إلى المصنوعات الحربية، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] إشارة إلى المصنوعات المدنية، نحن ينبغي أن نتقن الأمرين، العمل لديننا والعمل لدنيانا، وبهذا نتقرب إلى الله.

والحمد لله رب العالمين.

الفطرة أساس التربية الصحيحة في الإسلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» . [أخرجه البخارى (١/٤٥٦ ، رقم ١٢٩٢) ، ومسلم (٤/٢٠٤٧ ، رقم ٢٦٥٨) ، وأبو داود (٤/٢٢٩ ، رقم ٤٧١٤) والترمذي (٤/٤٤٧ ، رقم ٢١٣٨) ، وقال : حسن صحيح .وبنحوه أخرجه أبو يعلى (٢/٢٤٠ ، رقم ٩٤٢) ، والطبراني (١/٢٨٣ ، رقم ٨٢٨) ، والبيهقي (٦/٢٠٣ ، رقم ١١٩٢٣) وابن عدي (٢/٤٣٤)].

وفي رواية في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ يُولَدُ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تَنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا. قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ». أخرجه مسلم في صحيحه [برقم ٢٦٥٨] .

إعداد/ أ.د. السيد عبد الحليم

ترجمة راوي الحديث:

الصحابي الجليل أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي (١٩ ق.هـ/٥٩٩م - ٥٧ هـ/٦٧٦م)

أبو هريرة صاحب رسول الله ومن كبار الصحابة، قد أجمع أهل الحديث أن أبا هريرة أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله . كان اسمه في الجاهلية عبد شمس بن صخر، ولما أسلم سماه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الرحمن بن صخر الدوسي نسبة إلى قبيلة دوس.

أسلم في قبيلة دوس على يد الطفيل بن عمرو الدوسي سنة ٧ هـ، وهاجر عام خيبر في المحرم سنة ٧ هـ إلى المدينة أثناء فتح خيبر.

كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأثر الأكبر في تنشئة وتربية أبي هريرة، فمنذ أن قدم إلى النبي لم يفارقه مطلقا، وخلال سنوات قليلة حصل من العلم عن الرسول ما لم يحصله أحد من الصحابة جميعًا، وكان النبي يوجهه كثيرًا، فعنه أن النبي قال له: «يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس».

فضله وعلمه

وأبو هريرة من الصحابة المكثرين، ومن أهل الصُّفة، قدم المدينة واستقر بها، ليأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين والعلم، وهو أحد السبعة المكثرين من الصحابة، رضي الله عنهم.

كان رضي الله عنه من علماء الصحابة وفضلائهم، يشهد لذلك رواية كثير منهم عنه، ورجوعهم عليه في الفتوى، فقد روى عنه من الصحابة: زيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وعائشة، والمسور بن مخرمة، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وأبو رافع مولى رسول الله، وغيرهم من الصحابة.

قال الإمام البخاري: روى عنه ثمانمائة نفس أو أكثر، وكما رووا عنه فقد رجعوا إليه في السؤال والفتوى، ومنهم من قدمه في ذلك ووافقه فيما قال.

عن زياد بن مينا، قال: كان ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وجابر مع أشباه لهم، يفتون بالمدينة عن رسول الله من لدن توفي عثمان إلى أن توفوا، قال: وهؤلاء الخمسة إليهم صارت الفتوى.

وكان من عُبَّاد الصحابة، يكثر الصيام، ويقسم الليل أثلاثا بينه وبين امرأته وغلامه، كل منهم يقوم ثلث الليل ويوقظ الآخر، رضي الله عنه وأرضاه.

شرح الحديث

قوله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» فإن هذه الصيغة تفيد العموم؛ نظرًا لأنها نكرة في سياق النفي، والنكرة في النفي تعم. والعام هو اللفظ الذي يدخل فيه عدد غير محصور، وقد ذكر الباحثون في أصول الفقه أن العام له ألفاظ تخصه، وله صيغ محددة؛ منها أسماء الشرط، والاستفهام، الموصولات، والنكرة في سياق النفي، وكل وجميع، والمعرف بالألف واللام، وغيرها من الصيغ التي تدل على إرادة العموم والشمول.

وهاهنا دقيقة تتعلق بنقاش جرى بين المبرد وسيبويه، فإن سيبويه يرى أن العموم يستفاد من النكرة المنفية أو النكرة في سياق النفي، بينما المبرد يقول إن العموم، إنما يُستفاد من لفظة «من» الداخلة على النكرة، وقد صوّب علماء النحو، كما صوب علماء الأصول مذهب الإمام سيبويه إمام النحاة في عصره.

قوله صلى الله عليه وسلم: «من يولد يولد على الفطرة»: «من» اسم موصول موضوع للعموم، فقوله صلى الله عليه وسلم: «يولد على الفطرة» معناه: أن جميع من يُولد؛ يُولد على الفطرة، فإن لفظ «كل» موضوع لإرادة استغراق جميع أفراد المضاف إليه.

قوله صلى الله عليه وسلم: «فأبواه» الفاء في قوله (فأبواه) واقعة في جواب شرط مقدر أو هي للسببية، أو هي للتعقيب بمعنى أنه إذا كان من يولد يولد على الفطرة، فإن التغيير الذي يقع في هذه الفترة، إنما هو بسبب الأبوين، بسبب تأديبهما أو بتعليمهما أو بما يكونان عليه من الانحراف، فلا يوصلان الخير إلى ولدهما، فتتغير فطرته، وتحول وتصير خلقًا آخر.

قوله صلى الله عليه وسلم: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» هذا من قبيل التمثيل والتشبيه، بما أن النبي صلى الله عليه وسلم يصور لنا حالة الولد في نشأته على الفطرة، ثم ما ينشأ على تلك الفطرة من التغيير والتبديل، وهذا أمر غير محسوس، إنما هو أمر معنوي، فيحتاج الذي يتتبع الموضوع إلى أن يعرف ذلك بطريق المحسوس، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المثل، لندركه محسوسًا، ملموسًا، مصورًا، فلهذا قال: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء». بمعنى أن هذا الولد في هذه الحالة هو بمثابة البهيمة التي تنتج الولد كامل الخلقة، ولكن يتصرفون فيه بقطع أذنه وبتر بعض أعضائه، فيتغير ويحول.

وهذا التشبيه هو الذي يسمى عند البلاغيين بتشبيه التمثيل، ويعرفونه بأنه ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، فإنه ليس تشبيه فرد بفرد، وجزء بجزء، ولكنه تشبيه مجموعة من الصور أو مجموعة من الحالات بحالات أخرى، وهذا من أبلغ التشبيه وأبدعه عند البلاغيين .

وأبو هريرة رضي الله عنه بعد هذا يقول في الحديث : «اقرءوا إن شئتم : «فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم: ٣٠]، يستدل على هذا بآية وردت في سورة الروم، وهي قوله سبحانه وتعالى: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » [الروم: ٣٠ - ٣٢]. فقوله سبحانه وتعالى: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» [الروم: ٣٠] اللفظ مأخوذ من قولهم: أقام العود، يقيمه إذا سواه، وقومه إذا عدله، ومعنى هذا الزم الإسلام، ولا تنحرف عنه، ولا ينصرف وجهك إليه، ولتقم بأسبابه ولتعمل به، ولا يصرفك عنه شيء.

الإنسان مخلوق على فطرة هي الحق:

من هنا يتبين أن الإنسان مخلوق على فطرة، هي جوهر كيانه، ولبّ إنسانيته، وأنه ينبغي العناية بهذه الفطرة، وعدم التفريط فيها، وأن هذه الفطرة ما دامت فإن الإنسان يبقى على الحق، وهذا هو مذهب جمهور العلماء والفقهاء، واستدلوا له بقول أبي هريرة رضي الله عنه تفسيرًا للحديث، « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم: ٣٠]، واستدلوا كذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث القدسي: «خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم». وفي رواية: «حنفاء مسلمين» (رواه مسلم)، فدل على هذا أن الخلق يخلقون حنفاء مسلمين مستقيمين على الدين، ثم يقع التغيير بسبب من الأسباب.

الناس مفطورون على حب الدين:

وقد ذهب ابن قيم الجوزية إلى أنه لا ينبغي أن نفهم من أن الناس مفطورون على فطرة الإسلام، أنهم يعلمون الدين بدون تعليم، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: « وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا» [النحل: ٧٨]، وإنما المعنى في هذا أنهم مفطورون على الدين، يحبونه ويقبلون عليه،

ويرغبون فيه، ويجدون فيه لذتهم، وسعادتهم، وراحة قلوبهم، ويبقون على هذه الحالة، إلا إذا تغيرت فطرتهم بسبب من الأسباب .

اليهودية والمسيحية انحرفتا عن دين الفطرة:

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث: «فأبواه يهودانه وينصرانه» بمعنى أنهم يجعلونه يهوديًا أو يجعلونه نصرانيًا أو يجعلونه مجوسيًا، ومن المعلوم أن اليهودية قد نسخت بالإسلام، وأن المسيحية كذلك منسوخة بالإسلام، وكذلك سائر الأديان.

فهذه الأديان قد انحرفت عن الفطرة، فالمسيحية مثلاً يؤمنون بالثالوث، وهذه المسيحية لا يوجد فيها كتاب مقدس مروي عن رسولها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقد دخلتها فلسفات، وتغيرت وتبدلت، وصارت بذلك منحرفة عن الدين الحقيقي الذي هو دين الفطرة، واليهودية ذكر الله سبحانه وتعالى عن أصلها ما هو مذكور في القرآن لا حاجة إلى إعادته في هذا المقام.

أدلة محافظة الإسلام على الفطرة :

أما الإسلام فهو الدين الذي حافظ على الفطرة؛ لأنه قائم على هذا الكتاب المُنزل من عند الله سبحانه وتعالى المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي وصل إلينا بطريق التواتر ، ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بإقامة وجهه للدين حنيفًا، إذ إنه فطرة الله ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على هذه الفطرة، ولهذا يروى أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا قام للصلاة يقول: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا». [مسلم ح٧٧١]. وفيه إشارة إلى الفطرة.

كما أن أئمة الحديث ومنهم الدارمي في سننه، يروي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا أصبح: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة إبراهيم حنيفًا مسلمًا».

وهذا مما يدل على أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن نبي الإسلام كان يحرص على الفطرة، وعلى تزكية النفس بها، وأن يجعلها الإنسان نصب عينيه ولا ينساها أبدًا.

الفطرة تقتضي الأمانة :

إن فطرة الإنسان فطرة خيّرة، كما يذهب إلى ذلك الدين الإسلامي، والدين لما كان هو الفطرة فإنه واحد، ولكنه تعدد لأسباب تاريخية، وآخر الأمر جاء الإسلام الذي هو الدين الذي لم يتغير ولم يتبدل، والذي هو دين الفطرة.

والفطرة تقتضي الأمانة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة». [البخاري: ٦٤٩٧، ومسلم: ١٤٣ عن حذيفة رضي الله عنه].

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى وهب الإنسان فطرة الأمانة، ثم جاء بعد ذلك القرآن فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم وفسره بالسنة التي توضحه وتظهر معانيه.

ثم إن الأمانة تشمل أمور التكوين النفسي والعقلي والعلمي، ثم إن الأمانة تنشد فاطرها، فالإنسان قد يغفل الأمانة ويغفل عن الدين، ولكنه في وقت الشدة يتذكر هذه الحقيقة، ويلتجئ إلى فاطره الذي فطره وخلقه؛ يلتمس منه النجاة من الهلاك والعذاب.

الفطرة تتغير بالتربية والتعليم :

ثم إن الفطرة تتغير بالتربية والتعليم، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «فأبواه يهودانه وينصرانه»، وفي رواية: «ويمجسانه»، وإسناد ذلك للأبوين من باب التغليب، والمراد أن الفطرة تتأثر بأوضاع المجتمع، وأحوال البيئية؛ حيث ينشأ الأولاد على مقتضى التربية السائدة التي تحرص الأمم والشعوب على تلقينها أبناءها.

ومن هنا أهمية التربية في الإسلام التي يلزم أن تكون على وفاق مع هذا الدين، من حيث كونه دين الفطرة.

فتنمي في النفوس عناصر الإيمان والإسلام والإحسان، وتتعهد الفرد والمجتمع في مجالات السلوك الفردي والجماعي، وتغرس في النفوس فضائل التقوى، وتنهاها عن الفحشاء والمنكر، وتحبب إليها الإصلاح، وتعلم الناس مراقبة النفس ومحاسبتها.

وتكون مع ذلك تربية واقعية، تراعي أحوال الناس وأوضاعهم، وأعرافهم، وفوارقهم الفردية والاجتماعية، وتجعل من المدرسة مؤسسة تهتم بالدرس وتعنى بالسلوك.

نسأل الله أن يصلح أحوالنا، ويحفظ علينا ديننا، ويحسن لنا الختام أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

واقع المسلمين اليوم

عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ. قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ.

[أخرجه أحمد (٥/٢٧٨، رقم ٢٢٤٥٠)، وأبو داود (٤/١١١، رقم ٤٢٩٧)، والطيالسي (ص ١٣٣، رقم ٩٩٢)، وابن أبي شيبة (٧/٤٦٣، رقم ٣٧٢٤٧)، والروياني (١/٤٢٧، رقم ٦٥٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٨٢). والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٩٧، رقم ١٠٣٧٢)، والديلمي (٥/٥٢٧، رقم ٨٩٧٧) وصححه الألباني].

إعداد/ إعداد: د. السيد عبد الحليم

راوي الحديث

مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سُبي من أرض الحجاز ، فاشتراه النبي -صلى الله عليه وسلم. وأعتقه ، فلزم النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه ، وحفظ عنه كثيرا من العلم ، وطال عمره ، واشتهر ذكره . يكنى أبا عبد الله ، ويقال : أبا عبد الرحمن . وقيل : هو يماني .

شرح معاني الحديث

قوله صلى الله عليه وسلم: «يوشك الأمم» أي: يقرب فرق الكفر وأمم الضلال، أن تداعى عليكم، أي: تتداعى عليكم بأن يدعو بعضها بعضًا لمقاتلتكم وكسر شوكتكم، وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال.

«كما تداعى الأكلة» كما يجتمع الأكلة على الطعام.

«إلى قصعتها» الضمير يعود إلى الأكلة يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفوًا صفوًا دون كدر، بحيث يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم، أو ضرر يلحقهم، أو بأس يمنعهم.

«أمن قلة نحن يومئذ؟» أي: هل ذلك التداعي لأجل قلة نحن عليها يومئذ.

«بل أنتم يومئذ كثير» أي: عددكم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، والغثاء ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبّههم به لقلة شجاعتهم وقلة قدرتهم.

«ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة» أي: ليخرجن الله الخوف والرعب من قلوب عدوكم.

«وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»: أي: يرمي

الله الضعف في قلوبكم، وفسّر عليه الصلاة والسلام الوهن بحب الدنيا وكراهية الموت؛ إذ أمة الإسلام أمة مجاهدة، أمة دعوة، فإما حياة بعزة وكرامة، وإما أن تنال الشهادة في سبيلها دون اعتداء على أحد، أو إكراه لأحد، ولكنه تثبيت للحق، ودحض للباطل، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ما يهدف إليه الحديث

أما الدلالة المعنوية لهذا الحديث، فهو عَلَم من أعلام النبوة، سيق مساق الإخبار المتضمن للتحذير والتنبيه إلى ما سوف تئول إليه الأمة إن لم تَعرف قدر نفسها، ولم تعرف مكانتها التي بوَّأها الله إياها: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠]، «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» [البقرة: ١٤٣].

فإذا ما جهلت الأمة المسلمة حقيقتها، وضيّعت واجباتها، واستسلمت للراحة والدعة، تراجعت عن منزلتها، وتركت أسباب خيريتها، وفرّطت في عوامل قوتها، فعندها تلين وتضعف، ويسلط عليها عدوها فيستحلّ أرضها، ويستبيح كرامتها، وينتهك حرمتها، ويدنّس مقدساتها، ويخرّب ديارها، وينهب ثرواتها، ويذلّ أبناءها، وهذا كائن لا محالة إذا ظهرت عوامل وقوعها، نوجزها وباختصار في الآتي:

ظهور عوامل ضعف الأمة

أول هذه العوامل: الاختلاف:

والاختلاف سبب من أسباب تدمير الأمم وفناء الشعوب، وقد حذرنا الله منه حيث يقول: «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» [الروم: ٣١ - ٣٢]، وسبب من أسباب الفرقة والشتات.

والمؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، والله تعالى يقول: «مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» [الفتح: ٢٩]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد بالسهر والحمى». [مسلم: ٢٥٨٦].

ويترتب على العامل الأول..

العامل الثاني: التنازع والتناحر والفتن:

فإذا ما وقع الخلاف، وإذا ما احتدم النزاع، فإنه يؤدي إلى فتن وإلى محن، وإلى كوارث لا تُحمد عقباها، وذلك متى حكمت الأهواء، وتباينت الآراء، وتعددت التوجهات دون ضابط من شرع، ودون قيد من عقل، وعندها تنشب الفتن، وتحل الخصومات محل المودة والمحبة، وتتوسع دائرة التباين، وتتعمق الهوة بين أخوة العقيدة الواحدة والمصير الواحد، والغاية الواحدة، ولو أن الأمة حكّمت شرع ربها، ومنهج نبيها صلى الله عليه وسلم لحلت كثيرًا من مشاكلها، فالله تعالى يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» [النساء: ٥٩]، ويقول عز وجل: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [النساء: ٦٥]، ويقول الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

> عندما تعود الأمة إلى شريعة ربها تحكمها، وإلى منهج نبيها تعيشه واقعًا، فإن المحبة تحل محل الخصومة، والمودة تحل محل النزاع، ويكون رائد الجميع ابتغاء الحق والاهتداء إليه.

﴿ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وعندما تعود الأمة إلى شريعة ربها فتحكمها، وإلى منهج نبيها فتعيشه واقعًا، فإن المحبة تحل محل الخصومة، والمودة تحل محل النزاع، ويكون رائد الجميع ابتغاء الحق والاهتداء إليه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» [رواه البخاري].

وما يلاحظ اليوم في عالمنا الإسلامي من نزاعات وخصومات داخل كيانه، وبين شعوبه وحكوماته، يجعلنا نتساءل: ألم يكن لهذه الأمة مرجع ترجع إليه؟ وشرْعة تحتكم إليها؟ فنزاعٌ هنا ونزاعٌ هناك، دماء تُسفك، وديار تُدمر، ومقدرات تُهدر، وقطيعة بين الأخ وأخيه، والجار وجاره، مما يجعل الأمة مهددة من داخلها، ويجعل خطرها على نفسها أكبر من خطرها على عدوها عليها.

العامل الثالث: عدم الثقة بين الأمة الواحدة:

وهو يترتب على العاملين السابقين، وهو عدم الثقة بين الأمة الواحدة.

وهذا العامل جرها إلى عدم التكامل فيما بينها، مع المقومات التي تؤهلها لأن تكون في مقدمة الأمم، فلديها مقومات معنوية، فهي تدين بالدين الحق الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده، وتحمل العقيدة الصافية النقية التي تتفق مع الفطرة السليمة، ولا تعارض المعقول ولا تعارض الواقع، وتكاليفها مراعية لقدرة الإنسان واستطاعته ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

مقومات الأمة المادية:

أما مقوماتها المادية فهي كثيرة وظاهرة، كثرة عددية تتجاوز المليار، وقوة مادية: زراعة وبترول، ومواد أولية، أرض خصبة واسعة، ومناخات جغرافية متعددة، هذه المقومات لو أحسن توظيفها واستُغلت الاستغلال الأكمل لتغيرت أحوال الأمة؛ شريطة أن يحصل التكامل وتبادل المنافع، وعندما لا تحتاج الأمة إلى غيرها، ولا تذل نفسها وراء السعي بتوفير لقمة العيش من عدوها، وبهذا يكون لها وزن بين الأمم، ويُحسب لها ألف حساب، فلا يُقطع أمرٌ دونها، ناهيك من أن يُنتقص من حقها.

وقوة الأمم اليوم منظومة متكاملة العدد والعدة، القيم والمبادئ، التنسيق والتكامل، أما كثرة الأسماء والمسميات فتلكم هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، ولكنها حالقة الدين.

قوة الأمم اليوم عبارة عن منظومة متكاملة العدد والعُدة، القيم والمبادئ، التنسيق والتكامل، أما كثرة الأسماء والمسميات فتلكم هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، ولكنها حالقة الدين.

أعداء الأمة:

أما ما تواجهه الأمة من عدوها فهو أمر ظاهر للعيان، فمؤامرات على الإسلام، وكيد بالمسلمين آناء الليل وأطراف النهار، دماء تُسفك، وجراحات تنزف، وأرض تتقطع.

وفي الجملة فجسم العالم الإسلام مثقل بالجراح، فهو بحاجة إلى من يضمد له جراحه، ويعيد له حقوقه، ويصون له كرامته، وأبناؤه هم المعنيون بذلك، وعلى رأس الأمة قادتها.

والجميع: قادة وعامة، مدعوون إلى السعي الجاد، من أجل تخفيف المعاناة عن المحرومين ورفع الظلم عن المظلومين، وإعادة الحقوق إلى المستضعفين المقهورين، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «تحجزه

وتمنعه، فذلك نصره» [صحيح البخاري].

وعندما نستعرض واقع المسلمين اليوم - ولا نستطيع الإحاطة به- نجده واقعًا مؤلمًا تهتز له المشاعر، وتجزع له النفوس، وواقعًا لا يشرّف أمة منهجها كتاب الله عز وجل، وقدوتها محمد صلى الله عليه وسلم بدءًا بفلسطين أرض الأنبياء ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وانتهاء بأرض البوسنة والشيشان والعراق وأفغانستان والصومال والسودان، وبينهما شعوب وأقليات تعاني الأمرَّيْن من أعداء الإسلام دون نصرة من أخ أو رحمة من عدو، وعدونا - كما يلاحظ- لا يكتفي بما تحت يده من أرضنا ومقدساتنا، بل يريد أرضًا وأمنًا وسلامًا وتجارة ومياهًا، دون أن يعطينا شيئًا مما أخذوه منا، وهذا هو منطق القوي دائمًا، وأصبح من يدافع عن أرضه وعرضه وعن حقوقه ومقدساته في المصطلح العالمي إرهابيًا، ومتطرفًا، وعنيفًا، ومن يقتل ويشرد ويدمر ويغتصب متحضرًا ومسالمًا، وهذا ينطبق على اليهود في فلسطين.

واجب المسلمين نحو أمتهم حتى تصبح أمة قوية:

والمخرج من هذا كله - وحتى لا تتحقق فينا الغثائية التي أصيبت بها الأمة- أن نستعيد تضامننا، وأن نكون إخوة فيما بيننا، الأخوة الإيمانية التي لا تقدم عليها قرابة ولا جوار، ولا عشيرة ولا قبيلة: «لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ» [المجادلة: ٢٢]، «لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ» [آل عمران: ٢٨]، أن نستعيد تضامننا، وأن نكون كالجسد الواحد الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم، أو كالبنيان الواحد، ينصر بعضنا بعضًا، ينصر قوينا ضعيفنا، ويرحم غنينا فقيرنا، وأن نعتصم بحبل الله عز وجل جميعًا: « وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا» [آل عمران: ١٠٣].

فالإيمان هو الذي جمع القلوب المتباينة، هو الذي جمع الألوان المتعددة، هو الذي جمع بين أمة متناحرة متباينة.

عندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم نادى الناس باسم الإيمان، ناداهم باسم الإسلام: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فلما أن دخلوا في دين الله أفواجًا حتى كانت أمورهم مستقيمة، قائمة على اتباع منهج الله عز وجل، وامتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

> القوة التي نصَّ عليها حديث «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» متنوعة تشمل قوة إيمانية، وقوة أخلاقية، وقوة اقتصادية، وقوة في الرأي، وسداد في القول، وحكمة في التصرف، هذه القوة هي التي يريدها منا الإسلام ٥

وأن نحقق فينا ما يريد الله منا وما يريده منا رسول الله صلى الله عليه وسلم، من القوة والعزة والمنعة، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، والقوة التي نصَّ عليها الحديث قوة إيمانية، وقوة أخلاقية، وقوة اقتصادية، وقوة في الرأي، وسداد في القول، وحكمة في التصرف، هذه القوة هي التي يريدها منا الإسلام، وهي التي دعا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أوجد أمة قوية في أخلاقها وفي قيمتها، وفي مُثُلها، وفي عاداتها، وتقاليدها.

نسأل الله تعالى أن يرد الأمة الإسلامية إلى الطريق المستقيم، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نظرات في مفهوم الحرية في الإسلام..

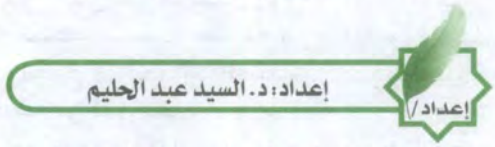

إعداد/ إعداد: د. السيد عبد الحليم

عن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ؛ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا؛ فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا».

تخريج الحديث

[أخرجه أحمد (٤/٢٦٨، رقم ١٨٣٨٧)، والبخاري (٢/٨٨٢، رقم ٢٣٦١)، والترمذي (٤/٤٧٠، رقم ٢١٧٣) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: البزار (٨/٢٣٧، رقم ٣٢٩٨)، والبيهقي (١٠/٢٨٨، رقم ٢١١٩٩)، وابن حبان (١/٥٣٢، رقم ٢٩٧)].

راوي الحديث

النعمان بن بشير بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. أمه عمرة بنت رواحة، أخت عبد الله بن رواحة، وُلد قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بثماني سنين وسبعة أشهر، وقيل: بست سنين. والأول أصح. وقال ابن الزبير: النعمان أكبر مني بستة أشهر. وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة في قول، له ولأبويه صحبة، يكنى أبا عبد الله.

هذا الحديث

أخرجه البخاري في كتاب «الشركة»، وذكر الحافظ ابن حجر أنه يشمل الفرق الثلاث وهي:

١- الناهي عن المعصية.

٢- الواقع فيها.

٣- المرائي بذلك أو المداهن كما في الرواية الأخرى.

فالذين أرادوا خرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله، ثم من عداهم إما مُنكر وهو القائم على حدود الله، وإما ساكت وهو المداهن.

من معاني الحديث

وقوله: «استهموا على سفينة» أي: اقترعوا فأخذ كل واحد منهم سهمًا، أي موقعًا منها إجارة أو ملكًا.

إن هذا الحديث قد ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً، ومن شأن الأمثال أن تنفتح على معان كثيرة، ويمكن أن تُضرَب لصور عديدة مما تحتمله ألفاظها وسياقاتها، على أن لا تغيَّر في حال مضربها عن حال موردها.

قضية الحرية في القرآن:

إن هذا الحديث غزير المعاني، غني بالدلالات، قدم به رسول الله صلى الله عليه وسلم للأسس القرآنية التي أقام القرآن المجيد عليها بناء وفهم الحرية، باعتبارها من أعلى القيم الحاكمة بعد التوحيد، عليها تتوقف التزكية، وبها يقوم العمران، وبها يكون الإنسان إنسانًا.

أما الأسس القرآنية لقضية الحرية فإن الآيات الكريمة التي تناولت هذه القضية تجاوزت مائتي آية، ذات دلالة مباشرة عليها.

ومع ذلك فإن البعض وَهِمَ فادعى أن القرآن لم يتعرض لقضية الحرية، ولم يولها اهتمامًا؛ لأنه لم يجد لفظ الحرية واردًا فيه ورود الألفاظ والمفاهيم الشرعية التي عني القرآن الكريم بها، وأنها حين ورد ما يشير إليها في بعض الآيات مثل قوله تعالى: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ» [البقرة: ١٧٨] يأتي في أحكام القصاص أراد بذلك ما يقابل الرق والعبودية بمعناها السائد المتداول آنذاك.

فالحر في الآية قد فُسِّر بأنه خلاف العبد المسترَق، أو أنه من لم يجرِ عليه استرقاق، وقد التفت

علماؤنا قديمًا إلى هذه الشبهة وناقشوها، ومن بين الذين أجادوا في مناقشتها وتفنيدها الراغب الأصبهاني من علماء القرن الرابع الهجري فقال: «إن معنى الحرية غير قاصر على ما يقابل الرق؛ لأن الحر أيضًا من تملكته الصفات الذميمة من الحرص والشره والطمع في حيازة المقتنيات الدنيوية، وقبول الدَّنيَّة من أجل ذلك».

وأوضح أن العبودية ما يقابل ذلك، واستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة»، كما استأنس بقول الشاعر:

ورق ذوي الأطماع رقّ مخلّد

ويقول العرب: «عبد الشهوة أذل من عبد الرق».

كما أن التحرير في القرآن المجيد جاء بمعنى جعل الإنسان حرًا كما في قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ» [النساء: ٩٢]، وقوله تعالى حكاية عن أم مريم: «إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا» [آل عمران: ٣٥] أي: جعلته خالصًا لك ولعبادتك، فلن يلزم بشيء من أمور الدنيا قد يعيقه عن ذلك.

ومنه تحرير الأسرى وتحرير السجناء بمعنى إطلاقهم من قيود الأسر والحبس، فالمادة اللغوية موجودة في القرآن وألفاظه، وليست غريبة عنه، فلا يليق بباحث أن يزعم أنها لم ترد في القرآن إلا في مقابلة الرق بمفهومه الذي كان سائدًا عالميًا في مرحلة نزول القرآن المجيد.

من فوائد الحديث

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث فوائد جمة ومعاني وفيرة، ومع ذلك فهذا الحديث- المثل- ما يزال قادرًا على مدنا بالمزيد، فيمكن أن نضربه مثلاً للأرض ووحدتها، ولسكانها من البشر، ووحدة مصيرهم، فالأرض مثل السفينة، والأسرة البشرية الممتدة مثل ركاب تلك السفينة، وهذه الأسهم من الأرض التي نطلق عليها أوطانًا وديارًا، هي أسهم المجموعات البشرية التي جُعلت شعوبًا وقبائل لتتعارف وتتآلف وتتعاون على تحقيق العمران في الأرض الذي يُعد جوهر مهمة الاستخلاف فيها.

وهذا لا يعطي الحق لأية مجموعة بشرية أن تتعسف في استعمال حقها هذا في الانتفاع، فتفسد في نصيبها من الأرض بحجة كونه نصيبها أو وطنها، فكونه وطنها لا يعطيها الحق في الإفساد وتدمير البيئة أو تلويثها أو تعريضها للخطر؛ لأن الضرر لن يكون قاصرًا على ذلك الجزء، بل سيكون شاملاً في بعض الأحيان للبيت الإنساني الكبير، ألا وهو المعمورة كلها، وسيكون ضارًا بالأسرة البشرية بمجموعها.

الحديث يقدم صورة للتضامن البشري:

من هنا يجب على الأسرة البشرية الممتدة أن تتضافر بكل شعوبها، وتتكاتف لحماية سفينة الأرض ومن عليها، وما عليها من أية أعمال قد تؤدي إلى الإفساد في الأرض، أو العيث فيها فسادًا، «وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» [البقرة: ٦٠].

وهذا الواجب يتناول المجموعات الإنسانية الصغرى في المدن والقرى والأقاليم، ويتناول كذلك الأسرة باعتبارها الوحدة الصغرى في المجتمع.

فالكل شركاء في المسئولية عن حماية السفينة كلها، وركابها أجمعين، ولا يغني عنهم أو يرفع المسئولية عن كواهلهم أمام الله تعالى أنهم لم يشاركوا بإحداث التخريب؛ لأن الهلاك سيعم الجميع، فلو أن البشر أدركوا مسئولياتهم نحو سفينتهم الأرض، والأسرة البشرية الممتدة التي تسكن عليها، وتضامنوا للقيام بواجب منع الإفساد في الأرض، والأخذ على أيدي المفسدين لما كانت أسلحة الدمار الشامل ستظهر أو تنتشر بهذا الشكل المريع؛ الذي جعل مخزونها كافيًا لتدمير الأرض ومن عليها، وما عليها ولعدة مرات، وإنهاء الحياة عليها تمامًا، ولما ظهر الفساد والتلوث في البر والبحر والجو بهذا الشكل الخطير، ولما كان ثلث البشرية يعيشون اليوم تحت خط الفقر تفتك بهم الأمراض المختلفة والجهل والأمية والتسلط والحروب.

والحديث يقدم بعد ذلك أساسًا متينًا للتضامن البشري، والتكامل لمواجهة الأخطار المشتركة صفًا واحدًا، وإرساء دعائم ما نسميه بالمجتمع المدني، وتقوية ما هو متوافر من مؤسسات، وما ليس بموجود منها لتحمل كل مجموعة بشرية مسئوليتها في تقوية الثغر الذي تقوم عليه، وحماية السفينة.

والحمد لله رب العالمين.

هلك المتنطعون

إعداد/ د. السيد عبد الحليم

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله واله وصحبه ومن والاه وبعد..

أخرج الإمام البخاري في صحيحه قال: حدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قال: حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

أولا: التخريج:

- صحيح البخاري ٢٦٥٨/٦، ط/دار ابن كثير) ولم يذكره البخاري إلا في هذا الموضع.
- مسلم ٩٧٥/٢، ١٨٣١/٤، ط/دار إحياء التراث العربي.
- سنن ابن ماجه ٣/١، ط/دار الفكر.
- سنن الترمذي ٤٧/٥،ط/دار إحياء التراث العربي.
- سنن النسائي (المجتبى) ١١٠/٥،ط/مكتبة المطبوعات الإسلامية.

فائدة على تخريج الحديث:

الحديث ورد في كثير من كتب السنة، واكتفينا بإثبات لفظ البخاري، ثم بتخريجه من الكتب الستة؛ لعدم الحاجة إلى غير ذلك.

ثانيًا: رواة الحديث

أبو هريرة: هو الصحابي الجليل حافظ الصحابة، اختُلف في اسمه واسم أبيه، وقيل عبد الرحمن بن صخر الدوسي (على الراجح) مات سنة سبع، وقيل سنة ثمان وقيل تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة (انظر: تقريب التهذيب للحافظ بن حجر ١/ ٦٨٠، ط/ دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة).

فائدة خاصة بأبي هريرة رضي الله عنه:

معلوم لدى علماء الحديث أن أبا هريرة روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثا (٥٣٧٤)، اتفق الشيخان منها على ثلاثمائة وخمسة وعشرين (٣٢٥)، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين (٩٣)، ومسلم بمائة وتسعة

وثمانين (١٨٩) (انظر: الحديث والمحدثون لمحمد أبو زهو ص ١٣٤، ط/مطبعة مصر، الطبعة الأولى) فأبو هريرة هو راوية الإسلام رغم أنف الحاقدين الذين يريدون هدمه.

٢- الأعرج: هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج أبو داوود المدني، ثقة ثبت عالم من الثالثة، مات سنة ١١٧هجرية (انظر: تقريب التهذيب رقم ٤٠٣٣).

٣- أبو الزناد: هو عبدالله بن زكوان الفقيه الثبت مات سنة ١٣٠هجرية (انظر تقريب التهذيب رقم ٣٣٠٢).

٤- مالك : هو ابن أنس إمام دار الهجرة، رأس المتقنين، مات سنة تسع وسبعين (انظر: تقريب التهذيب ١ /٥١٦).

٥- إسماعيل: هو ابن أبي أويس صدوق مشهور ذو غرائب، وسمع منه الشيخان، وقال أبو حاتم: محله الصدق، وقال النسائي: ضعيف، وقال غيره: ليس بالقوي، وقال الدارقطني: لا أختاره في الصحيح. (انظر: ذكر مَن تكلم فيه وهو موثق لأبي عبدالله الذهبي ١/٤٤، ط/مكتبة المنار، الطبعة الأولى).

فائدة على رواية البخاري لهذا الحديث مع اختلاف الرواة في إسماعيل:

قلت: احتج الإمام البخاري بما رواه إسماعيل بن أبي أويس عن الإمام مالك من أحاديث الموطأ ومن غيرها بشروط الإمام البخاري المعروفة، والتي يضيق المقام عن بسطها، فضلاً عن شرط آخر تجاه إسماعيل بن أبي أويس، وهو أنه يُتَابع على روايته، وقد توفر هذا الشرط في هذا الحديث، فقد تابعه في رواية هذا الحديث عن الإمام مالك سبعة من الرواة.

ثالثا: درجة الحديث

أجمع النقاد من علماء الحديث على أن ما اتفق عليه البخاري ومسلم من أحاديث هي أعلى مراتب الصحيح. (انظر: مجموع الفتاوى ١٨/٢٩٥).

فائدة على درجة الحديث:

اتفق الجمهور على إفادة خبر الواحد العلم إذا توفرت فيه شروط الصحة، واحتف بالقرائن، ومن هذه القرائن:

اتفاق الشيخين على الحديث، أو أن يكون مسلسلاً بالأئمة الحفاظ وإن لم يكن في الصحيحين. [انظر الإحكام للآمدي (انظر: ٢/٤٨، ط١، دار الكتاب العربي].

قلت: وقد فاز هذا الحديث بهذين الشرطين، فالشرط الأول واضح من التخريج، والشرط الثاني: سلسلة مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة هي أصح الأسانيد إلى أبي هريرة (قاله: أبوعبدالله الحاكم في معرفة علوم الحديث ط٢/ دار الكتب العلمية). قلت: وعليه فإن هذا الحديث يفيد العلم اليقيني ويوجب العمل به.

رابعا: سبب ورود الحديث

قلت: من أظهر ما يستنبط كسبب لورود هذا الحديث ما بينته رواية الإمام مسلم من طريق محمد بن زياد عن أبي هُرَيْرَةَ قال: خَطَبَنَا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ قد فَرَضَ الله عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا»، فقال رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حتى قَالَهَا ثَلَاثًا، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «لو قلت نعم لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قال: ذَرُونِي ما تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ من كان قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ على أَنْبِيَائِهِمْ، فإذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ، وإذا نَهَيْتُكُمْ عن شَيْءٍ فَدَعُوهُ» [صحيح مسلم ٢ / ١٧٣، ط/ دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي].

فائدة على سبب الورود:

من فطنة المرء الاستدلال بما كان على ما لم يكن فإن الأمور اشتباه.

خامسا: شرح الحديث وبيان غريبه مختصرا

(هذا الشرح بفوائده بتصرف من فتح الباري ١٣/٢٦٠ لابن حجر، ط/ دار المعرفة، تحقيق محب الدين الخطيب).

١- قوله:(دعوني) في رواية مسلم ذروني، وهي بمعنى دعوني.

٢- قوله:(ما تركتكم) أي مدة تركي إياكم بغير أمر بشيء ولا نهي عن شيء.

٣- قوله:(فإنما أهلك)، وقال بعد ذلك بسؤالهم أي هلكوا بسبب سؤالهم.

٤- قوله:(واختلافهم على أنبيائهم) يعني إذا أمرهم الأنبياء بعد السؤال أو قبله، واختلفوا عليهم فهلكوا واستحقوا الإهلاك. (انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري ٣٧٣/٧، دار الكتب العلمية).

٥- قوله: (فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه): في رواية محمد بن زياد (فانتهوا عنه)، وهذا النهي عام في جميع المناهي، ويستثنى من ذلك ما يُكرَه المكلف على فعله كمن أكره على شرب الخمر، وهذا على رأي الجمهور.

٦- قوله: (وإذا أمرتكم بشيء) وفي رواية مسلم (بأمر فأتوا منه ما استطعتم) أي افعلوا قدر استطاعتكم.

سادسا: ما يستفاد من الحديث

١- ترك السؤال عن شيء لم يقع؛ خشية أن ينزل به وجوبه أو تحريمه، وعن كثرة السؤال لما فيه غالبًا من التعنت وخشية أن تقع الإجابة بأمر يستثقل، فقد يؤدي لترك الامتثال فتقع المخالفة، قال ابن فرج: معنى قوله: «ذروني ما تركتكم» لا تكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مفيدة لوجه ما ظهر، أي: طالما ظهر لكم هذا الوجه)، ولو كانت صالحة لغيره كقوله: كما في رواية مسلم سالفة الذكر في سبب الورود، ولا تكثروا التنقيب؛ لأنه قد يفضي إلى مثل ما وقع لبني إسرائيل؛ إذ أمروا أن يذبحوا البقرة، فلو ذبحوا أي بقرة كانت، لامتثلوا، ولكنهم شدّدوا فشدّد عليهم.

٢- واستدل به على أن لا حكم قبل ورود الشرع، وأن الأصل في الأشياء عدم الوجوب. [انظر: فتح الباري٢٦١/١٣ومابعدها].

٣- وقال النووي: هذا من جوامع الكلم وقواعد الإسلام، ويدخل فيه كثير من الأحكام، كالصلاة لمن عجز عن ركن منها أو شرط، فيأتي بالمقدور، وعبّر عنه بعض الفقهاء بأن الميسور لا يسقط بالمعسور.

٤- واستدل بهذا الحديث على أن اعتناء الشرع بالمنهيات فوق اعتنائه بالمأمورات؛ لأنه أطلق الاجتناب في المنهيات ولو مع المشقة في الترك، وقيّد في المأمورات بقدر الطاقة، وهذا منقول عن الإمام أحمد؛ إذ كل أحد قادر على الكف لولا داعية الشهوة مثلاً، فلا يتصور عدم الاستطاعة عن الكف، بل كل مكلف قادر على الترك بخلاف الفعل، فإن العجز عن تعاطيه محسوس، فمن ثَم قيّد في الأمر بحسب الاستطاعة دون النهي.

٥- واستُدل به على أن المباح ليس مأمورًا به؛ لأن التأكيد في الفعل إنما يناسب الواجب والمندوب.

٦- واستُدل به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في الأحكام؛ لقوله (ولو قلت نعم لوجبت).

٧- وفي الحديث إشارة إلى الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلاً عما لا يُحتاج إليه في الحال، فينبغي للمسلم أن يبحث عما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم يجتهد في تفهم ذلك، والوقوف على المراد به، ثم يتشاغل بالعمل به، فإن كان من العلميات (العقائد) يتشاغل بتصديقه واعتقاده، وإن كان من العمليات (يعني الأحكام) بذل وسعه في القيام به فعلاً وتركًا.

سابعا وأخيرا: إسقاط على الواقع

ظاهرة السؤال وحب الاستطلاع والفضول غريزة في طباع البشر، وقد ظهرت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسُئل عما ليس له شاهد في عالم الحس، وسُئل عن مدة هذه الأمة، وعن الساعة، وعن الروح، وعن أشياء لا علاقة لها بالدين، فقد سأله من يشك في نسبه (من أبي)!! فعن أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قال: سُئِلَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا، فلما أَكْثَرُوا عليه الْمَسْأَلَةَ غَضِبَ، وقال: سَلُونِي فَقَامَ رَجُلٌ فقال يا رَسُولَ اللَّهِ: من أبي؟ قال: أَبُوكَ حُذَافَةُ، ثُمَّ قام آخَرُ فقال يا رَسُولَ اللَّهِ من أبي؟ فقال: أَبُوكَ سَالِمٌ مولى شَيْبَةَ، فلما رَأَى عُمَرُ ما بِوَجْهِ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم من الْغَضَبِ قال: إنَّا نَتُوبُ إلى اللَّهِ عز وجل. (صحيح البخاري ٦/ ٢٦٥٩، ط٣/ دار ابن كثير).

ومعلوم أن الاستجابة الكاملة لهذه الغريزة

تفضي إلى الانسياق وراء البحث فيما لم نُكَلَّف ولم نؤمر به؛ وذلك إنما يكون على حساب حدود الشريعة، فتختل بذلك الموازين، كما حدث لبعض الفِرَق وأصحاب الشهوات من الاتجاهات الفكرية المخالفة لأهل السنة والجماعة قديمًا كالشيعة، وحديثًا كاللادينيين وما شابههما، والتي أغرقت في البحث عن الحقيقة- بزعمهم الكاذب- فكان ذلك سببًا لضلالهم عن الشريعة والحقيقة؛ لأن العمل بالشريعة هو مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة.

وقد حدد الإسلام لهذه الظاهرة مسلكين:

أولاً: منع ما كان على وجه التعنت والتكلف، وهو المراد في هذا الحديث والله أعلم، وقال الأوزاعي: هي شداد المسائل، وقال الأوزاعي أيضا: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط فلقد رأيتهم أقل الناس علمًا، وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل. (انظره في الفتح ١٣/ ٢٦٢، نقلا عن البغوي في شرح السنة).

ثانيًا: يستثنى من المنع السؤال عن ضرورة الدين الواجب: ما كان على وجه التعليم لما يُحتاج إليه من أمر الدين، فهو جائز بل مأمور به، قال تعالى: «وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ» [النحل: ٤٣] وعلى ذلك تتنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال، والكلالة، وغيرهما.

قال الحافظ: قال ابن العربي: كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشق عليهم، فأما بعدُ فقد أُمن ذلك؛ لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع، قال: وإنه لمكروه إن لم يكن حرامًا إلا للعلماء، فقد فرّعوا ومهّدوا فنفع الله مَنْ بعدهم بذلك، ولاسيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم. انتهى ملخصًا، وينبغي أن يكون محل الكراهة للعالم إذا شغله ذلك عما هو أهم منه، وكان ينبغي تلخيص ما يكثر وقوعه مجردًا عما يندر، ولاسيما في المختصرات ليسهل تناوله، والله المستعان». (فتح الباري ١٣/٢٦٣).

وعليه فإننا نذكر أنفسنا وإخواننا بما يلي:

١- أن كثرة الأسئلة فيما هو بعيد عن الواقع نوع من أنواع الغلو في الدين، وأن ذلك ليس من هدي سيد المرسلين، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا» (صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٥).

٢- أن كثرة الأسئلة ربما تُوقع الإنسان في وساوس مرضية وعقدية، ربما تهلكه، كمن يسأل عن ذات الله سبحانه، وما شابه ذلك.

٣- أن كثرة الأسئلة التي قد يمارسها بعض الطلاب لامتحان بعض العلماء، أو للتقرب إلى بعضهم على حساب البعض قد تسبب دمار الأمة الإسلامية وهلاكها.

٤- أن من مقاصد الشريعة التوسعة وعدم التضييق، والتيسير وعدم التعسير، فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا». (صحيح البخاري١/ ٣٨).

٥- وأن ما سكت عنه الشارع لم يسكت عنه تقصيرًا ولا نسيانًا، فقد قال الله تعالى: « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا » [مريم: ٦٤].

٦- وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن يبين للأمة ما يحتاجون إليه ابتداءً من غير سؤال منهم، وهو المراد بقولهم: «لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة»، ودليل ذلك قوله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ » [المائدة: ٦٧].

وعليه فإن ما سكت عنه الشارع هو من باب التيسير، فلا ينبغي للعاقل أن يضيّق على نفسه بكثرة السؤال وقد وسّع الله عليه.

والله أسال أن يرزقنا وإياكم التوبة والإخلاص والتوفيق والقبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

روضة التائبين

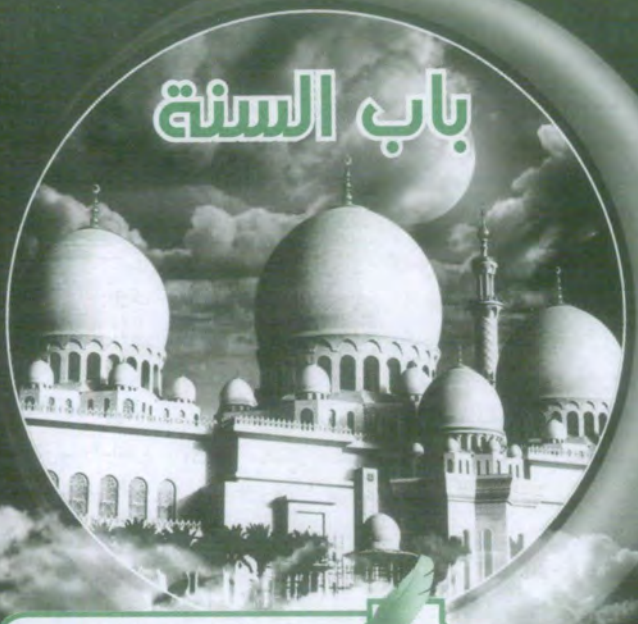

١٤٣٤

إعداد/ د. السيد عبد الحليم

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي صَالِحٍ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تَعَالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي في ملأ ذَكَرْتُهُ في ملأ خَيْرٍ منهم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلي شبرا تَقَرَّبْتُ إليه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أولا: التخريج

أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله ٦/٢٦٩٤، ط٣/ دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، واللفظ له.

وأخرجه مسلم في كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، بَاب الْحَثِّ على ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى (٤/٢٠٦١)، وأخرجه في كتاب التوبة، بَاب في الْحَضِّ على التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بها (٤ / ٢١٠٢)، ط/ دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وزاد «والله لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ من أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ».

صحيح ابن حبان (١/٤٠١) وزاد « فليظن بي ما شاء »، و(٢/٤٠٥) بزيادة «إن ظن خيرًا فله، وإن ظن شرًا فله».

شرطنا في هذا التخريج:

اقتصرنا على تخريج الحديث من الصحيحين، ومن موضع واحد من كل منهما إلا إذا كانت هناك زيادة في لفظ الحديث تستدعي تخريجه من الموضع الآخر، أو من كتاب آخر.

ثانيًا: رواة الحديث

أبو هريرة: حافظ الصحابة، اختُلف في اسمه واسم أبيه، فقيل: عبد الرحمن بن صخر الدوسي (قلت: على الراجح) مات سنة سبع وقيل سنة ثمان، وقيل تسع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين سنة. (انظر: تقريب التهذيب للحافظ بن حجر ١/ ٦٨٠، ط/ دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة).

أبو صالح: هو ذكوان السمان الزيات المدني، ثقة ثبت، وكان يجلب الزيت إلى الكوفة، من الثالثة، مات سنة إحدى ومائة، (انظر: تقريب التهذيب للحافظ بن حجر ١/ ٢٠٣، ط١/ دار الرشيد، تحقيق: محمد عوامة).

فائدة مهمة:

هناك راويان عن أبي هريرة يروي عنهما الأعمش، وكلاهما يكنى بأبي صالح؛ واحد ثقة، والآخر مختلَف فيه، وهو إلى الضعف أقرب.

الأول: أَبُو صَالِحٍ السَّمَّانُ، ذَكْوَانُ بنُ عَبْدِ اللهِ خرَّج حديثه أصحابُ الكتب الستة، وإذا أطلق الراوي «أبا صالح» فالمراد به ذكوان السمان المذكور في حديثنا هذا.

الثاني: أَبُو صَالِحٍ بَاذَامُ، وَيُقَالُ: (ذاذان)، مولى أم هانئ، مختلَف فيهِ، وهو إلى الضعف أقرب (انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء لأبي عبد الله الذهبي، ط٩/ مؤسسة الرسالة - بيروت، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي).

ثالثا: درجة الحديث

قلت: هذا الحديث مما اتفق عليه الشيخان، وقد أجمع علماء الحديث على أن ما اتفق عليه البخاري ومسلم من أحاديث هي أعلى مراتب الصحيح. (انظر هذا الإجماع في مجموع الفتاوى ١٨/٢٩٥).

رابعا: معاني الحديث وشرحه مختصرا:

قوله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي):

- أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به. (فتح الباري ١٣ / ٣٨٥)، ط/ دار المعرفة، تحقيق: محب الدين الخطيب).

(أو عند ظنه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب، وتأميل العفو إذا ظن هذا بربه. (انظر: شرح السنة للبغوي (٥/١٧)، ط٢/ المكتب الإسلامي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش).

قوله تعالى: (وأنا معه إذا ذكرني): أي معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية، وأما قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) فمعناه بالعلم والإحاطة. (انظر: شرح السنة ٥/١٧).

قوله تعالى: (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي): قال المازري: [وهو من أئمة المالكية الذين شرحوا صحيح مسلم (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠ / ١٠٤]: النفس تطلق في اللغة على معان، منها الغيب، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) أي ما في غيبي، فيجوز أن يكون مراد الحديث أي إذا ذكرني خاليًا بما لا يطلع أحد من البشر على هذا العمل، أثابه الله وجازاه عما عمل بما لا يطلع أحد من البشر على هذه المثوبة. (انظر: شرح السنة: ٥/١٧).

قوله تعالى: (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم): أي ذكرته في ملأ الملائكة الذين هم خير من ملأ البشر. (شرح السنة: ٥/١٧).

قوله تعالى: (وإن تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة): يقول الإمام البغوي: «هذا الحديث من أحاديث الصفات. [شرح السنة: ٥/١٧].

قلت: والقاعدة في الصفات سيأتي بيانها فيما يُستفاد من الحديث، فانظرها فهي مهمة.

الزيادات على اللفظ المذكور من كتب السنة الأخرى وبيان معناها

قوله صلى الله عليه وسلم: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة) (مسلم ٤/ ٢١٠٢): هذه ونظائرها صفات لله تعالى، ورد بها السمع يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، معرضًا فيها عن التأويل، مجتنبًا عن التشبيه، معتقدًا أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) [الشورى: ١١]. (شرح السنة للبغوي: ١ / ١٧٠).

قوله: (فليظن بي ما شاء) (صحيح ابن حبان ١/٤٠١): المراد أنا عند أمله ورجائه. (فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٤ / ٤٩٠، ط١/ المكتبة التجارية الكبرى).

قوله: (إن ظن خيرًا فله، وإن ظن شرًا فله) صحيح ابن حبان (٢/٤٠٥)، أي: إن ظن أني أفعل به شرًا فله، فالمعاملة تدور مع الظن، فمن حسَّن ظنه بربه وفَّى له بما ظن، ومن ساء ظنه بربه فالعقوبة إليه سريعة. (التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢ / ١٨٨)، ط٣/مكتبة الإمام الشافعي).

خامسا: ما يُستفاد من الحديث

قاعدة مهمة في صفات الله تعالى التي ورد بها السمع: يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضًا فيها عن التأويل، مجتنبًا عن التشبيه،

معتقدًا أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) [الشورى: ١١]، وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعًا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن الراسخين في العلم، فقال عز وجل: (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) [آل عمران: ٧].

وسأل رجل الإمام مالك بن أنس عن قوله سبحانه وتعالى: (الرحمن على العرش استوى) [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً. وأمر به أن يُخرَج من المجلس،

وقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقال: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف. وقال الزهري: «على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم». وقال بعض السلف: قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم. (شرح السنة ج ١ ص ١٧٠).

ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه، موقنًا بأن الله يقبله ويغفر له؛ لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد أو ظن أن الله لا يقبل أعماله أو أنها لا تنفعه، فهذا هو اليأس من رحمة الله وهو من الكبائر، ومن مات على ذلك وُكِلَ إلى ما ظن؛ كما في بعض طرق الحديث المذكور (فليظن بي عبدي ما شاء).

قال ابن حجر: «وأما ظن المغفرة مع الإصرار فذلك محض الجهل والغرة، وهو يجر إلى مذهب المرجئة».(فتح الباري: ١٣ / ٣٨٥).

قال بعض أهل العلم: «يستفاد منه أن الذكر الخفي أفضل من الذكر الجهري». (فتح الباري ١٣ / ٣٨٧).

قال الحافظ: «قال ابن بطال: هذا نص في أن الملائكة أفضل من بني آدم، وهو مذهب جمهور أهل العلم، والأنبياء أفضل من الملائكة، ومن أدلة تفضيل النبي على المَلَك أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم على سبيل التكريم له حتى قال إبليس: (أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ)، ومنها قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، لذا وإن كان الأنبياء في جملة الذاكرين إلا أن الخيرية إنما حصلت بالذاكر والملأ معًا، فالجانب الذي فيه رب العزة خير من الجانب الذي ليس هو فيه بلا ارتياب، فالخيرية حصلت بالنسبة للمجموع على المجموع. (انظر: فتح الباري ١٣ / ٣٨٨).

وهذا خلاف لما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال الإمام النووي: «ومذهب أصحابنا وغيرهم أن الأنبياء أفضل من الملائكة؛ لقوله تعالى في بني إسرائيل (وفضلناهم على العالمين) والملائكة من العالمين» (انظر: شرح السنة ١٧/٥).

٥- هذا الحديث أصل عظيم في حسن الرجاء في الله، وجميل الظن به، وليس لنا وسيلة إليه إلا ذلك، قالوا والأفضل للمريض أن يكون رجاؤه أغلب، قال القرطبي: وقد كانوا يستحبون تلقين المحتضر محاسن عمله ليحسن ظنه بربه (انظر: فيض القدير للمناوي: ٤ / ٤٩٠، ط١/ المكتبة التجارية الكبرى).

سادسًا: رمضان ودموع التائبين

حبيبي في الله: أعلم أنك تحمل قلبًا بتوحيد الله ناطقًا، وفي جنته راغبًا، ومن ناره خائفًا، من أجل هذا أرغب في القرب منك، والتحدث إليك حديث المحب لحبيبه.

حديث الروح للأرواح يسري وتدركه القلوب بلا عناء

حبيبي في الله تصور إذا مات الإنسان من غير توبة ولم يغفر له، وهو يُسْحَب على وجهه وهو أعمى في نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وطعام أهلها الزقوم وشرابهم فيها الصديد (يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ) [إبراهيم:١٧]، يُسْحَب على وجهه في نار (وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ) [التحريم:٦].

فتفكر حبيبي في الله في الصراط وحدته، والخلائق أمامك يسيرون عليه، فناج مسلّم، ومخدوش مرسل، ومكردس على وجهه في نار جهنم، قال صلى الله عليه وسلم واصفا

مرور الخلائق: «كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» (جزء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في صحيح البخاري (٦ / ٢٧٠٧).

وقال تعالى واصفًا صنفي العباد يوم القيامة: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) [هود:١٠٥-١٠٨].

أخي الحبيب.. إذا كان الحال كذلك فلا بد من وقفة مع النفس لمحاسبتها، قال تعالى: (ففِرُّوا إلى الله)، قال ابن الجوزي رحمه الله: (ففروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم، والمعنى: اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان). (زاد المسير ٨/ ٤١، ط٣/ المكتب الإسلامي).

حبيبي في الله: ألم يأن الأوان - وقد أقبل رمضان - أن نتوب إلى الله، وقد قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) [الحديد:١٦]. رجاء الفوز بذلكم الموعود على لسان سيد كل مولود، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أول ليلة من رمضان صُفدت الشياطين ومردة الجن، وغُلقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب، وفُتحت أبواب الجنان فلم يُغلق منها باب، ونادى مناد يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار». [قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرك (١ / ٥٨٢)، ط١/دار الكتب العلمية، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا).

ثم ها هي بعض فضائل التوبة يا حبيبي، عسى أن تقر بها أعيننا، ونسارع بها إلى ربنا تائبين:

أولًا: التوبة سبب نيل محبة الله تعالى: قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) [البقرة:٢٢٢].

ثانيًا: التوبة سبب نور القلب ومحو أثر الذنب: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر سقل منها قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلق بها قلبه فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (أخرجه الحاكم ٢ / ٥٦٢، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه).

ثالثًا: التوبة سبب لإغاثة الله تعالى لأصحابها بقطر السماء، وزيادة قوة قلوبهم وأجسامهم: قال الله تعالى على لسان هود عليه السلام: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) [هود:٥٢].

رابعًا: التوبة تجعل المذنب كمن لا ذنب له: فعن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» (صحيح الجامع للألباني ٦٦٧٩).

خامسًا: التوبة من صفات المؤمنين: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) [التوبة:١١٢].

سادسًا: التوبة سبب في فرح الرب سبحانه وتعالى فرحًا يليق بجلاله وعظمته سبحانه، كما تقدم ذكره. قال ابن القيم رحمه الله: «هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله» (مدارج السالكين ١/ ٢١٠، ط٢/ دار الكتاب العربي، تحقيق: فضيلة الشيخ حامد الفقي رحمه الله).

سابعًا: وبالجملة؛ فإن الله تعالى علّق الخير والفلاح بالتوبة، فلا سبيل إلى نيل خيرات الدنيا والآخرة إلا بها، قال سبحانه: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [النور:٣١].

وفي الختام أسأل الله العظيم رب العرش الكريم بأسمائه وصفاته أن يرزقنا وإياكم والمسلمين الإخلاص والتوبة؛ إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

القناعة

إعداد/ د. السيد عبد الحليم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإن القناعة سمة من سمات المسلم المؤمن الراضي بما آتاه الله تبارك وتعالى، المدرك لحقيقة أن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

والقناعة معناها: الرضا بما قسم الله تبارك وتعالى.

أولاً: القناعة سمة للمؤمن الصادق:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه». [صحيح مسلم: ١٠٥٤].

هذا الحديث الشريف الجليل القدر، يبين صفة من صفات المفلحين، وهم الذين هُدوا إلى الإسلام وآتاهم الله تبارك وتعالى من الرزق ما يكفيهم ولا يلهيهم، وقد قنعوا بعطاء الله تبارك وتعالى.

ثانيًا: دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقناعة وتعليمها لأصحابه:

فقد كان الحبيب صلى الله عليه وسلم يدعو ويعلم أصحابه ويعلمنا أن ندعو كذلك بأن يرزقنا الله تبارك وتعالى القناعة، ففيما أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو: «اللهم قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير». وفي رواية : «واخلفني في كل غائبة بخير»، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يدعو بهذا الدعاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم ارزق آل محمد قوتًا». [أخرجه الشيخان].

وكان صلى الله عليه وسلم قانعًا بكل ما آتاه الله عز وجل، وعوَّد أصحابه ذلك، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا تسع تمرات، وكنا تسعًا، فأعطى تمرة تمرة. [القناعة لابن السني: ص٥٥].

هذا العطاء اليسير الذي قد تزهد فيه النفوس، يبين لنا أبو هريرة رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قنعوا به ورضوا به، ورضوا بما آتاهم الله ورسوله من فضله.

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، علمني دعاء أنتفع به، قال: «قل: اللهم اغفر لي ذنبي ووسِّع في خُلقي وبارك لي في كسبي وقنعني بما رزقتني، ولا تفتني بما زَويت عني». [الترمذي: ٣٤٩١، وضعفه الألباني]. أي: لا تعلق قلبي بما أخفيت عني حتى لا أُفتن وأتعلق بما لم تقدره لي، هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو، وهكذا كان يعلم أصحابه ويعلم الأمة القناعة.

ثالثًا: من الأسباب المعينة على تحقيق القناعة:

١- أن تدرك أنك في هذه الدنيا ضيف لا يلبث أن يرحل، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب». [صحيح مسلم: ٢٤٠٨].

إذا أدركنا ما عند الله تبارك وتعالى من الخير؛ فإننا ندرك أن ما نحن فيه إنما هو بمثابة نُزُل الضيف، والضيف لا يتعلق بما في دار الضيافة، إنما يأخذ ما يكفيه في أدب وفي قناعة، ثم هو يدرك أنه راحل عن هذا، وذلك يُعينه على أن يلتمس القناعة.

٢- أن تدرك أنه لا فائدة من جمع ما لا تنتفع به: لقد خُلق الإنسان جَموعًا مَنُوعًا، والعاقل إذا تأمل سأل نفسه: ما قيمة الجمع الكثير الذي لا آكله ولا أشربه ولا أتمتع به ولا يكون لي فيه فائدة عملية؟ هذا ما يجب أن يدركه كل عاقل، ولكن إذا كان الإنسان طُبع على الطمع، وعلى أن يجمع ويمنع، فإن الدين قد جاء ليهذب هذا الطبع العجيب.

يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: «ما طلعت الشمس قط، إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يُسمعان كل ما على الأرض إلا الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى». [مسند أحمد: ٢١٧٦٩، وصححه الألباني].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يسد جوف ابن

آدم إلا التراب». [صحيح البخاري: ٦٤٣٨].
والعاقل يسأل نفسه: ما قيمة الوادي والواديين والثلاثة؟ ما قيمة كل هذا إذا كان لا ينتفع به؟ ليس لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، كل ما سوى ذلك هو زاد تتعب في جمعه وتُحاسب على منعه، وتُسأل عنه بين يدي الله تبارك وتعالى.
إن مما يملأ القلب قناعة أن يدرك الإنسان أن جمع ما لا فائدة فيه، وجمع ما لا ينتفع به هو تعب من غير طائل؛ ومن ثم يرضى بما آتاه الله تبارك وتعالى ويقنع به.

رابعًا: فوائد القناعة:

أما فوائد القناعة، فهي عظيمة جليلة:

١- فأقنع الناس هم أغنى الناس؛ لأن الغنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس». [صحيح البخاري: ٦٤٤٦].
الغنى: أن تدرك أنك لست في حاجة إلى غير الله تبارك وتعالى، وأن تستغني عن الناس وعما في أيدي الناس، هذا هو الغنى الحقيقي، فالقانع هو أغنى الناس.
وقد ورد أن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل: أي رب، أي عبادك أغنى؟ قال عز وجل: أقنعهم بما أعطيته، قال: يا رب فأي عبادك أعدل؟ قال عز وجل: من دان نفسه. [الزهد لهناد: ١/٢٧٧].
وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام سأل ربه، قال: رب أي عبادك أغنى؟ قال: الراضي بما أعطيته، قال: فأي عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذكرًا، قال: يا رب فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم على نفسه بما يحكم به على الناس. [سنن الدارمي: ٣٦٢، وصححه الألباني].
٢- أنها تغني صاحبها عن الوقوف على أصحاب المال أو التذلل لذوي الجاه والسلطان، وهذا هو عز النفس الذي تحققه القناعة للقانع.
وقد كتب إلى الرجل العابد الزاهد أبو حاتم أحد أبناء بني أمية يعزم عليه أن يرفع إليه حاجته، فكتب إليه يقول: أما بعد، فقد جاءني كتابك تعزم عليّ أن أرفع إليك حوائجي، وهيهات، قد رفعت حوائجي إلى ربي فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عليّ منها قنعت، هكذا كان الصالحون. [القناعة لابن السني ١/٤٣].
٣- أن يُرْزق الإنسان الحرية، فإن العبد يكون حرًا متى قنع، عبدًا متى طمع، فهو عبد للدينار، عبد للدرهم، عبد للقطيفة، عبد لمن أحسن إليه، عبد لمن كان بيده أن يعطيه أو يمنعه.
فإذا تخلص الإنسان من هذا المعنى ورُزق القناعة، لم يكن عبدًا إلا لله تبارك وتعالى، وتلك قيمة في غاية الأهمية، وهذه صفة لا يصح أن يخلو منها داع إلى الله وحامل للرسالة.

خامسًا: قناعة مذمومة:

وإني أشير في نهاية المطاف إلى معنى خاطئ من معاني القناعة عند بعض الناس، يفهم بعض الناس القناعة أنها رضا بالواقع وعدم تغييره، وعدم سعي إلى تحسينه، وهذا غاية الخطأ، فالقناعة ليست رضا بالواقع بكل ما فيه، إنما رضا بعطاء الله، رضا بقدر الله، وأما الواقع الفاسد، فالقناعة تعني السعي في تغييره.
فليس من القناعة أن ترى المنكر وتسكت وترى أنك لا بد أن ترضى بقدر الله وهكذا الدنيا.
وليس من القناعة أن ترى معروفًا فلا تسارع إليه ضنًا منك بجهدك وظنًا منك أن هذا من القناعة.
ليس من القناعة أن يُفتح لك باب رزق من حلال فتقعد ولا تلتمسه، وترى أنك قانع، لا يلزمك أن تجمع، بل يلزمك أن تسعى لتكسب لتعطي الفقراء من مال الله وتنفع دين الله ودعوة الله بمالك.
ليس من القناعة على الإطلاق الرضا بالباطل، أو الرضا بالواقع السيئ، أو الرضا بالواقع المر، بل هذا من السلبية التي نهانا الله تبارك وتعالى عنها، بل هي ما يسمى باللامبالاة؛ فحين ترى المنكر وترى الباطل وترى أهله، وترى الحق ينكمش والباطل يتمدد وترى أسباب الفساد، ثم تقعد وترى أنك قانع بما أنت فيه، فهذا ليس من القناعة.
القناعة إذن؛ هي معنى نفسي يعني الرضا بعطاء الله، ويعني عدم التذمر أو التسخط على ما أعطاك الله تبارك وتعالى، لكنه لا يعني أبدًا أن تقعد عن تحصيل الرزق الحلال أو أن تقعد عن إصلاح الفساد وتقويم العوج.
هذا هو المعنى الصحيح للقناعة أيها الأحبة، أسأل الله العلي العظيم أن يقنعنا بما آتانا، وأن يبارك لنا فيما رزقنا، وألا يفتننا بما زوى عنا، وأن يوفقنا أن نكون من أهل الخير، إنه ولي ذلك والقادر عليه.
وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أثر الإسلام في التفكير الإنساني

إعداد/ د/السيد عبد الحليم
الأمين العام المساعد لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لقد وصلتنا عدوى أثيمة مع ما وصلنا من أباطيل الغرب وأكاذيبه وآثامه، استهوت فريقًا من إخواننا في الوطن والعروبة والدين، فلاكتها ألسنتهم، ورددتها أفواههم، دون أن يعرفوا لها معنى ولا مضمونًا، ودون أن يدركوا خطرها ونتائجها، هذه العدوى هي دعوة تتنكر لشرع الله، وتحاول أن تربّي شباب العالم من جديد على معاداة الدين بكل ما يدعو إليه من مُثُل ومبادئ شريفة.

من أجل هذا نسطر هذه الكلمات -عبر مجلة التوحيد الغراء- لنوضح أهمية الإسلام وأثره في التفكير الإنساني، وأنه رسالة سماوية نزل بها ملك من السماء على عبد الله ورسوله نبينا محمد بن عبد الله، ونوضح كذلك أننا لا يمكن أن نترك عقيدتنا الصالحة، وديننا الأمثل، ونستعيض بها أفكارًا جاهلية أتى بها إنجلز وماركس ولينين وستالين، وسواهم من دعاة الشرك والضلال.

الإسلام أول وثيقة لحقوق الإنسان

يقول الله تعالى: «قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [الأنعام: ١٦١].

منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان، قامت الثورة الفرنسية، وأذاعت في أوربا والعالم كله مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، وقام على أساس هذه المبادئ عهد جديد في تاريخ الإنسانية، ونسبوا كل فضل فيه إلى فرنسا مهد الحرية والنور، ويعلم الله أنهم كانوا في ذلك أغرارًا، وأنهم نسوا الإسلام ومبادئه الخالدة التي كانت أول لبنة في صرح الحضارة الإنسانية.

ولقد هال الناس ولا يزال يهولهم، هذا الفرق الشاسع بين هذه المبادئ التي طبّقها الغرب في العالم، فكانت شرًا وبلاءً واستعمارًا مخيفًا، وقتلاً للحريات والشعوب، وبين مبادئ الإسلام السمحة الكريمة، التي قامت عليها دول، نشرت العلم والحضارة، والنور والحرية، والإخاء في العالم كله، وأنقذت الدنيا من ظلمات العصور الجاهلية، ورفعت قدر الفكر الإنساني، ونقلت تراث الأقدمين وحفظته ونشرته، واقتبس الغرب كل مقومات حضارته وعمرانه وحياته من تاريخها ومبادئها، وأفكارها وثقافاتها، وحضارتها الزاهية المشرقة.

إن الإسلام بما قدم للإنسانية قد برهن أنه هو أول وأعظم وثيقة سماوية حمت حقوق الإنسان ودافعت عنها، وأعلنت حمايتها له.

مثلنا الأعلى

«مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ» [غافر: ٤].

جمع الإسلام وكتابه الحكيم شتى أصول التقدم الأدبي والروحي والمادي والاجتماعي، ودعا إلى مختلف المقومات العالية لمدنية فاضلة كريمة مهذبة، غايتها سعادة الفرد والجماعة والأمم والإنسانية. وأحكام الإسلام وآدابه هي نمط رفيع للمُثُل العليا التي سعدت بها البشرية، واستقامت بها حال المجتمعات، وفاءت إلى ظلها الظليل الشعوب.

ولقد كان نزول القرآن على نبينا محمد بن

عبد الله صلى الله عليه وسلم حدثًا فكريًا ودينيًا وإنسانيًا خطيرًا، فقد قلب الأوضاع السيئة ، وبدّل النُظم الرديئة، وغيَّر مجرى الحياة، وقضى على ما توارثه بعض البشر من جهل وحمق وسفه، ووحشية وضلال، وطغيان وبهتان، وأحال ذلك كله حضارة وعلمًا وأدبًا وأمنًا وحرية وسلامًا ورفاهية في كل مكان.

خفقت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواميس التقدم والرقي من قبل، فوحَّد الشعوب، وبدَّد الفرقة، وساوى بين هذه وتلك، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل والنظام، والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس، وصارت العربية هي لغة العالم الجديد، والقرآن دستور الحياة في هذه الرقعة الشاسعة من الأرض، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد.

جاء الإسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها، ويدعو إلى أكرم ما في الحياة من مبادئ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية من مُثُل وغايات وأهداف، ويشرع شرائع للسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهبٌ من المذاهب، ولا عقيدة من العقائد.

كفل ديننا الخالد الحريات، وهدم الفروق الظالمة بين الناس، وسوَّى بينهم في الحقوق والواجبات، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالهم، ووسَّع باب العدالة ؛ حتى لا تنتهي فيه عند حدّ، ولم يستثنِ من أحكامها إنسانًا ولا طائفة، ولم يقف في طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة، يقول عمر رضي الله عنه من وصيته للخليفة من بعده: «اجعل الناس عندك سواء: لا تبالِ على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله». (نثر الدرر ٢/ ٣٨) .

موقف الإسلام من الحريات:

وقد قرر الإسلام الحريات وحماها الإسلام في كتابه الحكيم، ولنشر الإسلام في الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الكاملة بين الناس جميعًا: الصغير والكبير، والمحكوم والحاكم؛ والفقراء والأغنياء، وبين جميع الطبقات والجماعات، وهي مساواة لا تعرف معنى للعصبيات والأجناس والألوان، حتى لقد كان الخليفة عمر رضي الله عنه يمشي وعبده راكب، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً رضي الله عنه على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والإكرام: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ» [الحجرات : ١٣] ، ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات، ودعا إلى عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة والتكافل العام بين الأفراد والجماعات، عدالة أساسها التحرر الوجداني والضمير البشري الحي والتشريع الإسلامي المحكم.

ويقرر الإسلام أن أصل الناس واحد، وأنهم إخوة في الإنسانية، وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تنبني على السلام والمحبة والتعاون في الأرض، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والطغيان والفساد، وحرم شنّ الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان، ودعا إلى الرحمة والخير، والإيثار والإخاء، والمحبة بين الناس، وحطّم الشرك والوثنية حتى لا يستعبد أحد أحدًا في الأرض، وهدم عروش الطغيان والجبروت، واعترف بحقوق الفرد الأساسية، ورعى حقه في العيش وفي الأمان الاجتماعي، وفي المنزلة الأدبية، حتى لا يوجد شيء يعكّر أسباب السلام بين الناس.

والإسلام كذلك دين يرتكز على أصول قوية، ودعامات ومبادئ مثلى، فهو يؤمن بروح التسامح والحرية الاجتماعية، وحرية الرأي

للأفراد والجماعات، وبالحرية الاقتصادية التي تهدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة، والتي تؤدي التزاماتها كذلك للفقراء وللمجتمع والدولة، ثم هي تحارب كل لون من ألوان التمييز بين الناس، طالما كانت كل هذه الحريات في ظل أصول هذا الدين الحنيف.

أصول الإسلام تراعي أحوال البشر:

فقد أقام الإسلام أصوله على قواعد مثلى، دعامتها العمل والتعاطف والتكافل، والمحبة بين الناس، والإيثار والتضحية، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، ومساعدة كل محتاج، لا يدع لذي ألم ألماً، ولا لذي حاجة حاجةً، ولا لذي كربة كربةً، تكافل يرعاه الله ورسوله وشريعته، ويدعو إليه الضمير الإنساني.

وهو من الناحية الاقتصادية ينزع إلى مقاومة الاستغلال في مختلف ألوانه، ومن الناحية السياسية يدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس، ومن الناحية الاجتماعية يقاوم الفقر، ويجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق والتزامات.

ومن حيث الوسائل ينكر الثورة والتمرد وصراع الطبقات، ويحرص على الأمن والسلام بين الناس، ولا يجعل الملكية وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بني البشر عامة، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة، وتقرير التأمين الاجتماعي للفقراء والمعوزين، وفرض الزكاة عبادة يخصص إنفاقها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس، وحرّم الربا والاستغلال والاحتكار في شتى صوره، ورفع شأن العامل وفتح أبواب العمل أمامه، وحض على العمل وعلى إيجاده للعاطلين؛ بما يشرعه للإسلام من نظم اقتصادية سليمة، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة، والشركة والإجارة، وعقد العمل وسوى ذلك.

ومن ثَم حرم ديننا الترف، وأوصى بالصدقة والإحسان، وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة، والإعارة والهبة، وفريضة الميراث، وأوصى بالتكافل الاجتماعي بين المسلمين عامة.

عظمة حضارة الإسلام:

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائم ميراثه الروحي، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساسًا لحضارة إسلامية مشرقة، ومدنية روحية مزدهرة، قامت ونمت وترعرعت في الأرض، واجتمعت عليها الأمم والشعوب متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمأنينة، والنور والعلم؛ والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية.

فأين هذا من صنع الحضارات المادية السائدة في عالم اليوم، ومن آثام المدنية الغربية المجللة بالخزي والعار والكراهية على أرض الشرق؟! أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التي تبنى عليها دول الغرب سياستها التي تهدم صروح الحرية والسلام في كل مكان؟!

إن الإنسان الذي يعيش اليوم في غمار مدنية القرن الحادي والعشرين لأولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش في ظلال القلق والخوف والطغيان والدماء.

وإن المدنية التي ترفرف على شعوب العالم الآن لحري بها أن تنكس الأعلام خزيًا وحياءً من أن تنسب إلى المدنية الفاضلة، وإشفاقًا من أن توزن بمدنية المسلمين التي شملت العالم كله حِقَبًا من الزمن، فشمله الخير والنور والسلام، وسعدت بها أمم كانت ترسف في قيود الطغاة، فاستعادت حريتها، وعاشت تكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس. وللحديث بقية إن شاء الله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .